المناهل

21

المناهل

تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الواحد والعشرون
السنة الثامنة

رمضان 1401
يوليو 1981

تهنئة "المناهل" بعيد الشباب المجيد

يسعد أسرة "المناهل" ويشرفها أن ترفع بمناسبة عيد الشباب المجيد، أسمى آيات التهاني والتبريك إلى ملك البلاد، وقائد مسيرات الوطن، وراعي الفكر والثقافة، وحامي حمى العلم والعرفان والبيان، حضرة صاحب الجلالة الحسن الثاني المؤيد المنصور بالله.

و"المناهل" إذ ترفع عواطف محبتها وولائها لشخص جلالته، تضرع إلى الله سبحانه أن يعيد هذا العيد السعيد عليه وعلى أسرته المجيدة بأعظم المسرات، وأن يطيل عمره ويقر عينه الكريمة بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وبصنوه الأمير المحبوب صاحب السمو الملكي مولاي رشيد، وبأخواتهما الأميرات المصونات المبجلات.

كما تضرع إليه سبحانه أن يوالي لملكنا العبقري آلاء التوفيق والنجاح وأسباب التحقيق لواسع آمال أسرته الكبيرة. إنه سميع الدعاء.

"المناهل"

فهرس

صفحة

تهنئة المناهل بعيد الشباب المجيد

1) الحياة بلا فلسفة

محمد العربي الخطابي 9

2) خطة الحسبة (القسم الثالث)

عبد الرحمن الفاسي 20

3) عدة القوافي بين الخليل والأخفش

د. عبد الله الطيب 44

4) النظرات

عبد العلي الوزاني 68

5) القاضي عياض بين مناهل العلم والأدب ومعاناة السياسة والحرب

د. مصطفى الشكعة 99

6) كتاب الإحاطة لابن الخطيب (8)

محمد ابن تاويت 172

7) قطرة ماء...! (شعر)

علي الصقلي 202

8) التطير والفأل في مورثنا العربي
د. ابتسام مرهون الصفار 204
9) محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية (1559)
أحمد بوشرب 224
10) إيقاظ أهل الغفلة والمنام...!
عبد القادر زمامة 279
11) لغة الزجل في كتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي
د. ابراهيم السامرائي 287
12) تراجم في تسمية فقهاء الأندلس وتاريخ وفاتهم
د. عبد الوهاب خلاف 296
13) مناهج التعليم التقليدية عند المسلمين (2)
د. عبد اللطيف السعداني 313
14) لباب الأنساب لابن الأثير ومعطياته الاجتماعية
د. معن خليل عمر 353
15) التطرف الفكري في حياتنا دوافعه وعلاجه
د. محمد كمال شبانة 373
16) الاعلام الثقافي
المناهل 393

الحياة بلا فلسفة

محمد العربي الخطابي

1 ـ كتاب الأرض

كان من دأبي أن أراقب فلاحا مسنا، جاف البشرة، صلب العروق، نشيط الحركة. أراقبه وهو يعمل في الحقل فأطيل النظر إلى تعابير وجهه وهو جالس يستريح أو قائم يتأهب لسعي جديد. فلا يبدو لي منه ما يدل على اهتمامه بشؤون العمر. بل إنني أيقنت ـ بطول المراقبة ـ أنه قد نسي عهد الشباب نسيانا كاملا وكأنه لم يكن قط في غضارة الربيع وطراوة الفتوة، وهو قد نسي الضحك أيضا كما نسي الدموع وخلجات القلب حتى عاد كالربوة الراسية يفوح مثلها ترابا وعشبا.

يخرج هذا الفلاح إلى حقله حينما تعلن الديكة بزوغ الفجر. يصلي خاشعا لله فوق التراب ويدعوه دعوات مقتضبة لا بلاغة فيها ولا بيان. فهو يعتقد أن ربه يفهم النأمة وما تهتز به الشفاه.

يبدأ الفلاح عمله اليومي مستعينا بفأسه أو منجله أو مذراته وقد يستعمل بعض الدواب.

وهو يأكل - حينما يجوع - طعاما خفيفا خشنا ويشرب بكفيه من العين أو من الساقية فلا يشكو ولا يسأم ولا يسخط.

لم يسمع قط بلفظ الحرية غير أنه يعيشها في أعماقه ويتنفسها مع الهواء والتراب. وهو يتحمل في سبيل إحساسه الفطري هذا كثيرا من البلايا التي يعرفها بأسمائها وصفاتها.

يعرف هذا الفلاح أسماء الأعشاب والزهور والأشجار والدواب والخشاش. ويعرف ألوان السماء وطعم الهواء وأمزجة الطبيعة. ويفهم تعابير البهائم وأصواتها. ولم يخطر على باله قط أن يؤلف معجما أو أن يكتب كتابا يودعه جملة تجاربه وخبراته. العلم عنده ما ينفع. وهو ما تعلمه بالممارسة والنظر وطول المعاناة. والحكمة هي الصمت وإتقان العمل والرجاء. حبه الأكبر هو الأرض بترابها وحصاها ونبتها وكل ما ترتبط به ويرتبط بها من عناصر الطبيعة.

سألته ذات يوم ،

هل تحس بالسعادة ؟

وقبل أن أدرك بلادة هذا السؤال أشار الفلاح الشيخ بيده ونظر بعيدا وقال ،

- انظر إلى تلك الربوة. أتراها تتحرك ؟

قلت ،

- لا. إنها جامدة.

فكرت مليا في علاقة هذا الكلام بسؤالي فلم أهتد إلى شيء، وشاهد الفلاح حيرتي فقال ،

- إني أرى الربوة متحركة. فأنا أطيل النظر إليها وألحظ تغير الفصول عليها.

- وهل يسعدك هذا ؟

- إنني أنظر وأفكر.

- ألا يعييك التفكير ؟

- التربة لا يعييها المطر ولا تشكو من الشمس.

- كيف وهي جماد ؟

- وهل نعلم شيئا من أمرها علم اليقين ؟

ألقى الفلاح على الربوة البعيدة نظرة أخرى أطول من الأولى ثم

قعد على الأرض من غير أن يلتفت إلى مكان جلوسه. وبعد لحظة من الصمت قال :

ـ الخضرة في القلب كالخضرة في الربوة. تشاهد هذه وتحس بتلك. والفرق كما ترى ضئيل.

ـ ولكن القلوب ليست كلها خضراء...

ـ بل هي كما يحس بها أصحابها.

ـ وأنت. هل تجد في قلبك خضرة ؟

أحسست بالفرح حينما ألقيت عليه هذا السؤال وكأنني نصبت له فخا لا بد وأن يقع فيه فأعرف رأيه في السعادة وهل هو سعيد.

قال :

ـ الربوة هي مرآتي ما دمت أبصر الأفق البعيد بوضوح.

فشل الفخ وازدادت الحيرة، وبعد صمت قضيته أنا في التفكير وقضاه هو في التأمل ـ أو هذا ما بدا لي من أمره ـ قلت :

ـ كأني بك وقد آثرت العزلة عن الناس، ألا تهتم بالآخرين ؟

ـ إن الذي يهتم بالأرض يهتم حتما بالناس. والفلاح لا يشبه الزاهد الذي يلتمس الخلوة في غار. حبه للأرض يجعله في حاجة دائمة إلى غيره.

ـ وهل تحس بأن الآخرين ينصفونك ويقدرون سعيك وعملك ؟

ـ أعرف أن الأرض لا تظلم من يرعاها ويحبو عليها. وهذا يجعلني أتعلق بها وأدفع عنها العوادي صابرا مقداما.

ـ وهل تأسى على فوات شبابك ؟

ونظر الشيخ مرة أخرى إلى الربوة فلمعت عيناه وانبسط جبينه ثم قال :

ـ ما أحسب أن العمر يقدر بالمراحل كما تقدر السنة بالفصول والمنازل. إن للإنسان عمرا واحدا. والأعمار كمكاييل الزرع فيها القنطار والمد والصاع. وكل حي يكيل على قدر ما يتاح له.

ـ والموت. هل يشغل بالك ؟

ـ لم تترك الحياة في بالي مكانا يشغله التفكير في الموت. وهل الموت في الحقيقة إلا معبر لحياة أخرى أبقى وأسعد.

ـ ها أنت في النهاية تذكر السعادة فتومىء إليها إيماء. وقد سألتك عنها في البداية فلم تجبني.

ـ المرء يجيب عما يعرف، أنت سألتني هل أحس بالسعادة. وأنا لا أعرف لهذه الكلمة معنى يمكن أن يرتبط بأمور هذه الأرض. إنني أعرف الرضا والسخط. وأعرف الغضب والحلم. وقد أحس براحة البال وطمأنينة

النفس أحيانا. وقد يعتريني القلق والهلع أحيانا أخرى فلا أعرف كيف أتصرف تصرفا موزونا. ولكن السعادة... هذه لفظة لا أدرك معناها سيما وأنت تربطها بأمور هذه الأرض.

- أية أرض تعني. أهذه المساحة المحدودة التي نمد عليها بصرنا أنا وأنت. أم الأرض الشاسعة الممتدة التي تعيش عليها المخلوقات ؟

- الأمر سيان. فالذي لا يدركه البصر تدركه الحواس والخيال... انظر إلى تلك الرابية...

وعدنا إلى حديث الرابية وهل هي ساكنة أم تتحرك. فأشكل علي أمر هذا الفلاح الشيخ الغامض. أحدثه من خلال ما أقرأ في الكتب وما أسمع من كلام المفكرين. ويصر هو على أن يجيب بما يقرأ في كتاب الأرض.

ومرت شهور عرجت بعدها على حقل ذلك الفلاح فإذا بي أجد شابا في شرخ الفتوة يتحرك ويغني وينظر من حين لآخر إلى الرابية البعيدة وهو يبتسم بتفاؤل، لم أسأل الشاب عن الفلاح الشيخ، وقلت في نفسي ، لعل الشيخ مات وهذا الفتى ابنه ! فكيف أسأله وكتاب الأرض ما يزال مفتوحا أمامي ؟

2 ـ الحمار والطريق

حتى الحمار يحب الربيع. يحبه بقدر ما يكره المسالك الوعرة والطريق الملتوية وسوط صاحبه. ولذلك فهو يحلم بالربيع في الشتاء حينما يخلو إلى نفسه في وحشة الليل وظلمة الإصطبل.

وينهق الحمار في الصباح حينما ينظر إلى وجه صاحبه فيقرأ فيه أن جو النهار الجديد ما يزال عابسا مكفهرا كما كان البارحة فلا يسعه إلا أن يتذرع بصبر الحكماء.

حماري صبور كحمير سائر الناس. وبه مع ذلك وداعة يصطنعها ووقار يتكلفه. وليس ذلك لأنه يعلم أني أحمل عليه أسفاري وأقلامي ودواتي ـ فالأثقال أثقال على كل حال ـ بل لأنه يقدر صمتي وأناتي، وهما صفتان يتحلى بهما هو نفسه. فكأنه يجد ـ من هذه الناحية ـ شبها بيننا (أنا وهو).

وفي ذلك الصباح البارد المطير دخلت على حماري فوجدته مستلقيا على التبن وعيناه زائغتان وأذناه مسترخيتان، وكأنه مستغرق في حلم طويل لا نهاية له.

كان علي أن أحمل عليه في ذلك اليوم نسخة من «لسان العرب» لابن منظور، وأخرى من «حياة الحيوان» للدميري، وثالثة من «عجائب

المخلوقات» للقزويني. وأشتاتا من أسفار أخرى متباينة المواضيع من بينها كتاب كبير الحجم يبحث في تعبير الرؤيا.

وإذ كنت أومن بأن من حق الحمار أن يستسلم للأحلام كسائر المخلوقات، قلت في نفسي ، لا بد وأن يكون في هذا الكتاب كلام يعينني على معرفة ما يحلم به حماري وهو في حال اليقظة.

جلست على التبن وفتحت الكتاب من وسطه فطالعني هذا الكلام ،

«إذا رأيت في منامك أنك تأكل تبنا وحمارك جائع فاعلم أن عاصفة هوجاء ستصادفك في نهارك التالي فترمي بك وسط الحقول العارية حيث تقضي ليلتك تحت وابل من الأمطار تحلم بالدفء فلا تجده. أما إذا رأيت أن حمارك هو الذي يأكل التبن وأنت جائع فاعلم أنك ستعشق امرأة حسناء تراك ولا تراها وتكلمك فلا تسمعها وهي على قاب قوسين منك».

لم أفهم شيئا من هذا الكلام الغامض المغلق ولم أقتنع به. فأسلمت نفسي لسلطان الأحلام وسرعان ما بدأ بيني وبين حماري هذا الحوار ،

- ترى. بأي شيء تحلم ؟
- بالربيع.
- ولم الربيع ونحن في الشتاء ؟
- ألست أحلم ؟

- نعم، ولكن...

- الربيع هو الأمل في صورة حلم.

- وماذا يعني الأمل في نظرك ؟

- يعني نهاية الحلم.

- إذن لماذا تحلم ؟

- لكيلا أشاهد الأشياء بوضوح، سيما وأن عيني كبيرتان.

- أو تراك تحلم أن تصير إنسانا ؟

- لا...

- ولم لا ؟

- لأن حمل الأثقال فوق الظهر أهون من حملها في القلب.

- أو لست تجد في القلب أثقالا ؟

- أي قلب تعني ؟

- وهل يوجد قلبان في جوف واحد ؟

- نعم، في جوف بني آدم. أما نحن معشر الحمير فليس لنا سوى قلب واحد، وهو مجرد مضغة تنبض بالحياة. ونحن لا نستعمله لحمل الأثقال. ظهورنا تكفي.

وماذا يستهويك في الربيع حتى تسخر له كل أحلامك ؟

- طراوة العشب ونداوة الطريق وانصراف الآدميين إلى الدعة والراحة.

- وما هي الأشياء المحببة إليك في الحياة ؟
- التظاهر بالغباوة والإنتظار.
- انتظار ماذا ؟
- الأتان ووقت الخلوة والاجترار.

وأفقت على نهيق حماري وفي نفسي رغبة أن يطول الحلم ويستمر الحوار. وإذ كنت أفهم معنى هذا النهيق المتقطع الموزون حزمت كتبي وبقية أغراضي ووضعتها فوق ظهر الحمار وانطلقنا معا إلى السوق صامتين جادين... وكانت السوق بعيدة والطريق طويل والمطر هاطل.

3 ـ النرجسة والبعوضة

حينما يعجز الإنسان عن الكلام يغني أو يصمت أو يسرح ببصره في الفراغ. أما النرجسة فإنها تهيم في عشق ذاتها وتتكلم بشذاها ولونها وهي لا تعبأ بالنحلة والفراشة والعصفور.

ذات يوم تفتحت في الجنينة نرجسة يتيمة في لون الكنار، ولم يكن الزمان ربيعا.

تحررت النرجسة من برعمها ونشرت أكمامها في كل اتجاه وأطلت على الكون الصغير. ولما فتحت عيونها بدأ المطر ينزل رذاذا منعشا

حنونا. ولم يكن في الجنينة طائر يطير ولا دودة تزحف ولا دويبة تسعى.

ارتوت النرجسة واغتسلت وتعطرت ثم نظرت حولها بزهو ودلال وأرهفت سمعها... إلا أنها لم تر شيئا ولم تسمع إلا همس الرذاذ المتساقط في رشاقة وتؤدة، وحينئذ حاولت النرجسة أن تنشغل بذاتها ـ كما هي عادتها في الربيع ـ إلا أن القلق عطل حواسها الرقيقة وأشل مياسمها المرهفة فتساءلت في سرها كيلا يسمعها القمر :

ـ أين عروس الفراشات وملكة النحل ؟ أين اليعسوب والحباحب المضيء ؟.

وبينما هي كذلك إذ سمعت طنينا أزعجها...

إنها بعوضة تائهة تطن لتهتدي إلى طريقها. ولم تكن النرجسة الحسناء لتغري هذه المجنحة المفترسة التي لا تحب اللون الأصفر.

تابعت البعوضة طيرانها وطنينها حتى غابت عن الأنظار. أما النرجسة فقد يئست واغتمت وبلغ من غمها أن تصاغرت وتضاءلت ثم ذوت وجف رحيقها وتبخر طيبها واختلط بالماء والهواء والتراب في انتظار مقدم الربيع.

الرباط محمد العربي الخطابي

خطة الحسبة

في النظر والتطبيق والتدوين

مسيرة الحسبة في المغرب الاقصى

القسم الثالث

عبد الرحمن الفاسي

وأما في المغرب الأقصى، فإن المذهب المالكي الذي تأسس فقه الحسبة في الغرب الإسلامي على قسم المعاملات منه، فقد تحكمت على - خلاف الحال بالأندلس - عدة اعتبارات في تدرجه ببطىء، قبل أن ينتشر انتشارا، ويتمخض عن الثروة الفقهية الهائلة، التي انبثقت بتدرج في مغربنا، وعن آثاره العميقة في جميع نواحي الحياة، ومرد ذلك البطء إلى أن منطقة المغرب الأقصى قد نالها في العصور الإسلامية الأولى، من فتنة الخوارج، مارج المغربين الأوسط والأدنى رجا، وكان أثر الإضطراب الفكري في هذه الفتنة أشد وطأة على أهل هذه الربوع من شدة الإضطرابات الدموية، التي انساحت من أقاصي تونس إلى طنجة، فقد عمدت هذه الجماعة إلى قلب المفاهيم الإسلامية في عقول المسلمين البرابرة، باستدراجهم إلى عقيدتهم الرافضة لكل خلافة، وكل دعوة إسلامية، وعقبى لذلك نشأت في العقول الخشية عند هؤلاء المسلمين البرابرة من محاولات بعض ولاة الخلافة الاستبداد عليها، وإقامة

حكم مستقل عنها، لغاية تغذية مطامعهم الخاصة في حكم البلاد، كأن ترابها غنم، وليس بأرض إسلام، وسرعان ما فعل فعله النشاط الخارجي في العقول، وذر قرن العصبية القومية في صورة «خارجية مغربية»، فكانت ثورة «ورفجومة»، على والي الخلافة عبد الرحمان بن حبيب، وكانت حركة خالد بن حميد الزناتي بين المغربين الأوسط والأقصى، وكانت زعامة ميسرة المطغري في نواحي طنجة، وكان تأسيس إمارة الخوارج الصفرية في «تاهرت»، وأخرى في «سجلماسة»، ولم يكن لهذه الحركات - وهي بين صفرية وإباضية أيضا - وجه، ولا أصل، ولا فصل في الإسلام، وإنما جرت إليها مطامع المتزعمة، ومنازع العصبية القومية، وانساقت معها مطامع وأغراض الأتباع، وبهت أقوام وأقوام لهذا الغموض الذي ساورهم حول وجهة الإسلام أمام هذا الذي يضطرب من حولهم، وحول محجة هذا الدين الذي اعتنقوه، واشرأبوا لهدايته بإيمانهم.

وكتب للقيروان أن يستقر بها بعض التابعين، فواجهوا الحالة الخطيرة بهمة الإرشاد إلى الطريق المستقيم في الدين، وتطلع الكثير من القيروانيين أمام هذه الفتنة الضالة المضلة، إلى الهجرة نحو منازل الوحي، وإلى دار الهجرة بالذات، فأخذوا أصول الإسلام عن إمامها مالك، وعن تلاميذه، ثم عادوا بلواقح أصول مذهبه ليغرسوها في أرضهم، كما هو صنيع الأندلسيين، واستطاعوا أن ينتصبوا لصراع المبادىء الشاردة، خلال حقبة متطاولة إلى أن انتهى الصراع في الأخير بظهورهم على ذلك

النحو الذي جعل منهم رواد تلك الثروة الفكرية المالكية التي رفعت العماد لخطة الحسبة الشرعية في الديار المغربية.

وفي معترك تلك الاضطرابات وقبلها. كان ولاة الأمويين والعباسيين آخذين بالمذهب الحنفي. فذاع على أوسع نطاق. ولا سيما بعد أن شجر الصراع بينه وبين مذهب المالكية بالقيروان. وان النصوص التاريخية لتفيد أن المذهب الحنفي قد كان سابقا في دخوله إلى إفريقيا. ومن إفادات القاضي عياض (تـ 544) قوله المعروف ، (وأما إفريقيا وما وراءها. فقد كان الغالب عليها في القديم. مذهب الكوفيين (الأحناف). إلى أن دخل علي بن زياد (تـ 183). وأبو مسعود بن عبد الرحمان بن أشرس (تـ 170) والبهلول بن راشد (تـ 183). وبعدهم أسد بن الفرات (تـ 213). وغيرهم بمذهب مالك).

وهذه هي وضعية المغرب الأقصى. عندما استقر المولى الإدريس الأول في إمارة «وليلة الأوربية» (سنة 172) (92).

وان الحفاوة التلقائية - وقد يقال المخططة من قبل الطرفين - التي لقيها سليل الرسول (ص) لدى هؤلاء البربر المسلمين. الماثلة في تنازل كبيرهم عن إمارته. وفي مبادرته لاستنفار الناس إلى الأخذ بناصر الشريف اللائذ بأرض المغرب. لتعود بالذاكرة إلى مالمح إليه سابقا. من

(92) أوربة من بطون البرانس القديمة. واليها ينسب زعيم البربر «كسيلة». وكانت منازلهم من سلسلة أوراس شرقا إلى جنوب تلمسان غربا. ثم دحرهم الجيش العربي نحو المغرب الأقصى فاستقروا بين مرتفعات زرهون ومضيق تازة والحوض الأعلى لنهر ورغة.

اهتزاز النحلة الخارجية في نفوس طائفة من البرابرة المسلمين، ومن شعور مبهم داخلي في نفوسهم بهضيمة قوميتهم.

وهكذا تفرس هؤلاء البربر المسلمون في الشريف القادم عليهم، الزعيم الذي يمثل الإسلام الصحيح، ووجهته، والأمير الذي سيتوطد أمره بسياج من قوميتهم، وسرعان ما تبددت عندهم دوافع مجاراة النزعة الخارجية التي ظلت متوطنة في «تاهرت» بالمغرب الأوسط، ثم انقلبت في الأخير سجلماسة الصفرية إلى محجة السنية، وانسحب المذهب الحنفي من الميدان، بيسر وسهولة، لأن الأمير الشريف مالكي المذهب، فالإمام مالك يروي في موطئه عن عبد الله الكامل والد المولى إدريس، كما أنه أخذ عن الإمام جعفر الصادق، والإمام أيضا قد امتحن في سبيل الشريف محمد النفس الزكية، وهو أخو المولى إدريس، الذي نازع أبا جعفر المنصور بيعته، وذلك أن الناس هرعوا عندها إلى إمام دار الهجرة يستفتونه في البيعة للمنصور بالإكراه، فلم يتحرج الإمام من أن يعلن لهم كلمته السائرة ، «طلاق المكره لا يجوز» (93).

ولا ريب أن تخطيط فاس بأسواقها ومؤسساتها العامة، والاستقرار الذي كان يطبع الحياة، والحركة التي دبت فيها، قد كانت كافية للايحاء بالا تفكير في خلق منصب الحسبة بين مناصب المساعدين للدولة

93) انظر القصة في «المدارك» للقاضي عياض، ج : 2، ص : 130، ط : المغرب - «الديباج المذهب»، لابن فرحون، ص : 28، ط : السعادة الأولى .

الإدريسية. ويستطيع الباحث أن يتلمح بداية التأثير الأندلسي في المغرب. عند هذه الدولة الإدريسية. ولا سيما منذ قامت عدوة الأندلس في مخطط بناء فاس. وتوالت هجرات الأندلس إليها. للاستقرار. ونستطيع أن نتجاوز تلمح التفاعل بين أهل العدوتين. المغربية والأندلسية. إلى استجلاء التأثير الأندلسي أوضح وأوسع في تلك الفترة التي أعقبت انتثار سلك دولة الأدارسة. وهي الفترة التي كانت فيها بلادنا مرتع مد وجزر بين نفوذ الفاطميين. الذين يكسبونها من جهة الشرق، وبين نفوذ الأمويين الذي كانوا ينشرون قلاع أجفانهم إليها من الشمال. فكانت للفاطميين جولة حتى مدينة فاس، وكانت للأمويين نهدات إليها. وأيام مشهرة في ربوعها.

ويحفظ التاريخ لعبد الملك ابن المنصور بن أبي عامر. سيرة محمودة في ولايته على فاس. التي طالت بينهم. وتمكن فيها رضاهم على الوالي الأندلسي. الذي كان يعمل ما وسعه للتحبب إليه. سواء بسيرته فيهم، أو بما يطبقه في بلادهم من تراتيب. يظهر أن نظام الحسبة كان في طليعتها.

ونستطيع أيضا أن نمعن في هذا الترجيح إذا علمنا أن عبد الرحمان الناصر. قد لجأ إلى مقاومة الشيعة الفاطمية في الغرب. فاهتم بتوفير أسطول بحري كامل لفرض الحراسة على الثائر الأندلسي عمر ابن حفصون. الجانح إلى الفاطميين الذين كانوا يسندونه. وألقوا إليه بمراكب

في البحر لتأمين احتياجاته إلى متابعة الثورة على الدولة الأموية (94) وفي هذا النطاق. سارع أيضا إلى تحصين سواحله. وثغوره في الجنوب. لصد كل غزو فاطمي مفاجيء من المغرب. حتى أنه أشرف بنفسه على الأعمال الدفاعية في «طريف» و «الجزيرة الخضراء». ثم ذهب إلى أبعد من هذا. فاستولى على بعض ثغور الساحل المغربي المسامتة للجزيرة الأندلسية. فاستولى على مدينة مليلية. وجعل منها معقلا للزعيم المكناسي موسى ابن أبي العافية. الذي خلع طاعة الفاطميين. وانضم إليه. كما أن الناصر احتل مدينة سبتة (95). والملحوظ هنا أنه (شكها برجاله) على حد تعبير ابن عذاري (96) ، وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده) وقد كانت تعيش في سبتة. إلى جانب هؤلاء القواد. جالية أندلسية هاجرت إليها. واستوطنتها. وانتجمتها عندما أصاب المحل جزيرة الأندلس بين سنة 131 و 136. ولأهدافه هذه في فتح سبتة. احتل أيضا مدينة طنجة. وحاول احتلال جزيرة «أرشقول» (رشجون) من سواحل تلمسان.

ومن المعروف أيضا أن الخليفة عبد الرحمان الناصر قد استمال إليه زعماء الدويلات التي كانت قائمة في شمال المغرب الأقصى. وأعني بذلك دولة الأدارسة. التي التجأ فلها إلى شمال المغرب بين قبائل غمارة.

---

94) «البيان المغرب». ج : 2. ص : 247.

95) كتاب «المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب». لأبي عبيد البكري. ص 89.

96) «البيان المغرب». ج : 3. ص : 307.

بنواحي البصرة، وأصيلا، وقلعة حجر النسر. كما كانت امارة نكور (97) السنية المالكية بمنطقة الريف، تابعة لنفوذه أيضا.

وهكذا سار الناصر في نفس الطريق، فاستألف قبيلة زناتة، وأمدها بالمال والرجال، وتعهدها ـ كما يقول صاحب كتاب «مفاخر البربر» (بوجوه رسله وخواصه) واستحثها على قتال صنهاجة التي كانت في حزب الفاطميين خصومه.

وهذا الانسياح الأموي في تراب المغرب ـ كما نرى ـ يؤكد القول ببداية التأثير الأندلسي، منذ العهد الإدريسي، وأعني أن التراضي من جهة، والفترة الطويلة من جهة أخرى، مما يسهل التفاعل، ويثير بين المتساكنين على الصعيد الواحد طبيعة الاقتداء والاقتباس وذلك ما تعرضه علينا الملامح المتشابهة لهذه الخطة، ولا سيما بعد امتداد مسيرتها التاريخية في كل من العدوتين.

وبالرغم عن هذه الارهاصات كلها، فإن المصادر التاريخية، لاتمدنا بأي إشارة إلى ترتيبات احتسابية، أو إلى اسم «محتسب» أو من كان يقوم بمهمته من الولاة، كما هو متوقع وضروري بالنسبة لمجتمع فاس، ويظهر أن المهاد، وان كان موطأ لاقتباس ماعند الأندلسيين الطارئين، إلا أن ذلك لم يكن كافيا لخلق هذا المنصب بقسماته المذهبية، ومقوماته

97) انظر كتاب «المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب» ص : 90، و «البيان المغرب» لابن عذاري، ج : 1، ص 22، 252.

العلمية. التي لا تضفي عليه حلة الحسبة. والنيابة عن الامام الشرعية. إلا حين تتسع المعاملات. وتتعقد الحياة بتنوع المعايش. وتشابك الأغراض. وذلك ما لم يتوفر ـ فيما يظهر ـ لا في عهد الأدارسة. ولا في فترة النفوذ الفاطمي في شرق البلاد. أو النفوذ الأموي في الشمال.

وعلى كل حال. فالذي نستجليه أيضا من ذلك العرض التاريخي. هو أن المذهبية المالكية قد تقوقعت في فترات المد الشيعي ـ ولا مراء ـ وظلت منطوية على نفسها إلى أن جاء العهد المرابطي. حيث تنفست الصعداء. لأن المرابطين كانوا مالكية. ودعوة فقيههم ومدبر دولتهم. الشيخ عبد الله ابن ياسين. قد قامت على مبدإ الأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر. ودولاب إدارتهم كان يدار بسواعد الفقهاء. وهو سواد المثقفين في دولتهم. ثم دخولهم إلى الجزيرة حماة ثم منقذين. هذا إلى أن المعابر على عهدهم نحو الأندلس مشرعة في وجه الغادين والرائحين. وكل هذا يوحي بأن نظامهم لم يكن ليخلو من منصب الحسبة. كما كان عليه الحال يومئذ في الأندلس. وقد عرفنا من رسائل ابن عبدون والسقطي أن تطور فقه الحسبة من النظريات إلى التأليف في التطبيقات. قد بدأ على عهدهم بالأندلس. وذلك استجابة لمستوى الجزيرة في المعايش والأرزاق. وأبلغ من هذا كله. أننا نجد الفقيه ابن سهل. وأعني به عيسى بن أصبغ الجياني القرطبي، أحد قضاة طنجة. ومكناسة الزيتون. وغرناطة.

المتوفي بها سنة 486 هـ ـ 1094م، قد ذكر في نوازله (98) مسألة في الاحتساب على المؤذن أبي الربيع، في أذانه بالاسحار وابتهاله بالدعاء، وذكر أن قائما قام عليه عند الوزير القاضي علي ابن ذكوان، وهو في خطة أحكام السوق بالحسبة، وذكر أنه يقوم بالاسحار في جوف الليل، ويصعد على سقف المسجد الذي يقرب داره، ويؤذن على السقف، ويبتهل بالدعاء، ويتردد في ذلك إلى أن يصبح. وقال القائم، ان في ذلك ضررا على الجيران، ثم جلب ابن سهل في الأخير أقوال الفقهاء في ذلك، وملخص حكم ابن ذكوان ، أن يجري المؤذن على ما كان يجري عليه الناس قبله من الاذان المعهود في الليل، والاقتصار عليه، ثم أتبع ذلك بفتاوى الفقهاء في الموضوع، وما يشابه، مما يتصل بالحسبة على المساجد.

وهذا يؤكد أن نظام المرابطين في عدوة المغرب الأقصى، لم يخل من نظام الحسبة، غير أنهم ـ فيما يبدو ـ قد كانوا أصحاب تقشف بطبيعتهم، وكما أنهم اعتادوا الكفاف في عدوتهم المغربية، فقد جنحوا إلى الكفاف في الإدارة، وقام عندهم القاضي مقام المحتسب، كما كان شأن الأدارسة، وكثير من الدول قد سارت على هذا حسبما نبه إليه الإمام ابن تيمية.

98) «الاعلام بنوازل الأحكام»، منه نسخة خطية بالخزانة الملكية، في جزء واحد تحت رقم : 2501، ومنه نسخة بمكتبة جامع القرويين بفاس، في جزئين متوسطين بخط أندلسي، تحت رقم : ل 80 / 299.

وعلى كل حال، فالظاهرة الماثلة الآن هي غياب المحتسب على عهد المرابطين في المغرب الأقصى، وذلك أن كتب التراجم الأندلسية، لم يرد فيها شيء عن محتسبة عدوة المغرب العابرين إلى الأندلس، وهم ممن يترجم لمثلهم عادة تحت اسم «الطارئين» و «الغرباء». كما أن كتب التاريخ العامة والخاصة التي انتهت إلى الباحثين، لا خبر فيها عن أمرهم في طول وعرض العدوتين. والجواب المعهود عن هذا السؤال الذي ينشأ في النفس، هو أن تاريخ المرابطين قد اندرس على يد الموحدين، بما فيه من أخبار الحسبة والمحتسبين، وقد كان الموحدون يتعبدون باتلاف المؤلفات في تاريخهم، لأن ابن تومرت كان يسمهم بأعداء الله، وبأنهم المجسمون الكفار الذين يتشبهون بالنساء في تغطية الوجوه، والتنقيب، والتلثم، على حين تشبه نساؤهم الرجال بالكشف عن الوجوه، إلى غيرذلك من تهريجه، الذي دعاه إلى إسدال اللثام على تواريخ المرابطين. ويبدو أيضا أن المرابطين قد كانت لهم في عدوة المغرب إدارة خاصة وسياسة لها سلوكها الخاص، فلا يبيحون هنا ما يجيزونه هناك، ثم انهم كانوا يأنفون من الاقتباس والأخذ عن الأندلسيين في أي شيء، اعتقادا منهم أن الفسولة قد تأصلت فيهم، ولا خير في السير على منوالهم، والأخذ بوسائلهم.

ومع ذلك، فالواقع أن المذهب المالكي، الذي ازدهرت فيه فروع فقه الحسبة، قد كان منتشرا في الامبراطورية المرابطية، إلا أن فقهاء الطائفة

الملثمة قد كان نشاطها في جبهة الجهاد أوضح وأوفر منه في ميدان القراطيس والأقلام، فلم تصدر عنهم آثار في حقل الحسبة، الذي يوطيء البساط لظهور هذا المنصب بين مناصب إدارتهم في عدوة المغرب الأقصى، ولم يستفزهم لدى الأندلسيين، حتى ذلك الجانب التطبيقي العملي في الحسبة، الذي بلغ ازدهاره في عهدهم بالأندلس، على يد أبي عبدالله بن محمد السقطي المالقي، كما مر بنا، وكما أنهم اعتادوا في عدوتهم المغربية الكفاف في العيش، فقد لجأوا إلى الكفاف في الإدارة أيضا، واكتفوا بالقاضي المحتسب على طريقة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي قامت دولتهم عليها، فكلهم على هذا الأساس محتسبة.

وما إن أدبرت دولة الملثمين حتى أقبلت المحنة على فقهاء المالكية، لأنهم كانوا يمثلون المعارضة الفكرية التلقائية تجاه مذهب ابن تومرت، الذي يقوم على الرجوع إلى الأصول، ونبذ طريقة اليبس على الفروع.

ومع ما هو معروف من أن يعقوب المنصور قد كان شديدا في تثبيت هذا الاتجاه، فأمر بإحراق (99) كتب الفروع، «كالمدونة» لسحنون، و «الواضحة» لابن حبيب، «والتهذيب» للبرادعي، وغير ذلك من أحمال كتب الفروع، فإن المذهب المالكي لم ينحسر مده على عهدهم، لا أمام

99) انظر قصة هذا في «المعجب» للمراكشي، ص : 170 ـ 171.

دعوة ابن تومرت وعبد المومن إلى الرجوع إلى الأصول. ولا أمام ظاهرة المذهب الظاهري، الذي كان له نشاط واضح على عهدهم. وذلك أن هذه الكتب التي ألقي بها طعمة للنار. قد استعاد الفقهاء نسخها. وبينهم من نسخت من حفظه. وأسفرت هذه الهمة الفقهية عن ظهور عدة أئمة في الفروع على عهدهم ـ كأبي القاسم الجزيري، صاحب «المقصد المحمود في تلخيص العقود»، الذي كان مرجع الفقهاء في كتابة الوثائق قبل سواه ـ وكأبي الحسن المتيوي، شارح الرسالة النابه، الذي استقصى في شرحه أقوال أئمة الفقه، الذين انتهت إليهم الفتوى والتوثيق ـ وأبي محمد صالح، الذي أصبح يضرب به المثل عند فقهاء المذهب المالكي كموثق عدل مبرز، وغير هؤلاء، ولا ريب أنهم كانوا ثمرة من ثمار الاتجاه الفقهي المذهبي في العهد المرابطي.

ونظرا لمبدأ الموحدين هذا، فلن يكون هناك تفكير عند ابن تومرت في إدخال نظام الحسبة، الذي يقوم أساسا على الفروع الفقهية بالرغم من أنه كان مؤسس أنظمة وهيئات، حتى في الحقول الزراعية وبالرغم من أن دعوته قامت بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي عليها مدار الحسبة.

ويفهم من فقرات وردت عند المؤرخ عبد الواحد المراكشي أن الموحدين اكتفوا بأمناء الأسواق، حيث ذكر أن يعقوب المنصور (كان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر) في كل شهر مرتين).

كما أن فقرة أخرى في «البيان المغرب» لابن عناري، تفيد أن يعقوب المنصور كان يباشر هذه الخطة بنفسه بإصدار الأوامر (100).

وفي نفس الفقرة أنه (أمر أصحاب الشرطة بقطع الملهين، والقبض على من شهد من المغنين) فنحن بهذا ازاء أمناء، وازاء شيوخ الحذر وازاء أصحاب الشرطة، فالهيئات الثلاث ـ كما يلاحظ ـ قد وزعت عليها بعض مهام المحتسب، وبازاء هذا، نجد في ترجمة الفقيه الشاعر ميمون الخطابي من أهل فاس، والمعروف بابن خبازة، المتوفى سنة 637، أنه كان على حسبة الطعام بمدينة مراكش في هذا العهد الموحدي، واصطلاح ، حسبة الطعام ، «هكذا»، مما لم يرد في غير ترجمة الخطابي ميمون، لا عند الأندلسيين، (×) ولا عند المغاربة، مما يدل على أنه لم يكن محتسبا بالمعنى الفقهي المعروف باختصاصاته كلها، وإنما كانت مهمته مقصورة على الطعام، أي على ما من شأنه أن يسرع إليه الفساد، وذلك ما يفيده انتصاب الهيئات المشار إليها في نص ابن عذارى.

وقد فهم بعض المؤلفين أن الحسبة كانت بمكان مرموق عند الموحدين، معتمدا في ذلك على أن دعوتهم قامت على الأمر بالمعروف،

---

100) انظر ابن عذارى في «البيان المغرب»، قسم الموحدين، ج ، 3.

×) لقد كان عند الأندلسيين اصطلاح اخر هو حسبة السوق التي تشمل مختلف الترتيبات ومختلف أسواق الطعام وغير الطعام، أما هنا فالمقصود الحسبة على الطعام اي اغراض التموين دون سواها انظر القسم الثاني من هذه الفصول في مجلة المناهل عدد 20 ، 50.

والنهي عن المنكر، ومعتمدا أيضا على أن أبا بكر الصنهاجي، المعروف بالبيدق، قد أدرج (101) المحتسبين في (باب تمييز الموحدين على يد الإمام المهدي، وشرح أنسابهم وأفخاذهم، حيث قال بعد ذكر قبائل وأفخاذ : (المحتسبون، وفقهم الله، لهم من القبائل إحدى وعشرون)، مع أنه يعني بكلمة «المحتسبين» الذين احتسبوا أجرهم على الله في القيام بالغزو، وقد شرحها البيذق نفسه، فقال : (وهم المسمون بالغزاة عن اذن أمير المومنين أبي يوسف) ثم يتابع كلامه في ذكر أفخاذهم من غير إشارة إلى ما يفيد قيامهم بأي مهمة من مهام الحسبة.

الحسبة في العصر المريني 668/869 :

وبالعبور إلى العصر المريني، يواجهنا جهاز إداري واسع، يتكون من سلطتين على طبقتين اثنتين.

فهناك سلطة عليا، ممتازة، وتتفرع عنها مناصب متعددة ـ ومجالس مركزية وجهوية. ـ وملحقات بالمناصب.

ـ وسلطة عليا ثانوية، تدخل فيها رئاسات ـ وأمانات ـ وقيادات حربية ـ واشرافيات ـ ونظار أخبار ـ ونظار «أوقاف» ـ وما يشبه المفتشين المتنقلين.

---

101) «اخبار المهدي بن تومرت»، وابتداء دولة الموحدين، بعناية بروفنصال، مطبعة باريس، ص : 46 ـ 47 وانظر : المقتبس من كتاب (الأنساب في معرفة الأصحاب) للبيذق ص 57 ط دار المنصور ـ الرباط.

وفي هذه الطبقة الثانوية، أدرج كل من القاضي والمحتسب.

كما أن العمالات التسع، حسب تقسيم يعقوب بن عبد الحق للمملكة (102) قد كانت لها مناصب رئيسية تعددت باتساع الجهاز المركزي، (103) ويقع منصب المحتسب في آخر الترتيب.

وان تعدد المناصب في النظام المريني قد تحيف المناصب التقليدية، ولاسيما خطة الحسبة، فنجد من بين هذه المناصب صاحب الصلاة، الذي كان في أول دولتهم من اختصاص القاضي، ثم أصبح في أيام أبي عنان، منصبا مستقلا، ومهمته (104) ندب الناس للصلاة في أوقاتها، والمحافظة على صلاة الجماعة، وانزال العقاب بالمتخلفين، ومتابعة تارك الصلاة بالشدة.

---

102) «الذخيرة السنية» ص : 95.

103) يمكن أخذ نظرة معبرة، وعامة عن هذا الجهاز الإداري المريني بواسطة الافادات التاريخية، التي وردت في كتاب : ورقات عن الحضارة المغربية للأستاذ محمد المنوني ابتداء من الصحيفة 59. والافادات في موضوع الادارة على عهد دولة بني مرين توجد متناثرة في غير ما مصدر بين مخطوط ومطبوع، ويرجع بالخصوص الى المصادر التالية : «المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق، وفي غير ماباب من أبوابه مقدمة ابن خلدون، والجزء السابع من تاريخ ابن خلدون الجزء الخامس من «صبح الأعشى» ـ «الذخيرة السنية ـ «روضة النسرين» ـ «روض القرطاس» ـ «جذوة الاقتباس» لابن القاضي ـ «مستودع العلامة» ـ «زهرة الاس» ـ «فيض العباب» (مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط) «مختصر الإحاطة» (مصور بالخزانة العامة بالرباط)

104) مخطوطة «فيض العباب»، ورقة : 22 ـ 23.

ولا ريب أن هذا مما يدخل في عموم اختصاصات المحتسب الأصلية.

وهناك مجالس عدلية دائمة ذكرت (105) في تنظيمات السلطان أبي الحسن، وتجتمع هيأتها في كل بلد بعد صلاة الجمعة. وتتألف من والي القصبة، والقائد، والقاضي، والخطيب، ووالي الجباية، والعدول، ومهمة الهيأة سماع الشكايات.

وواضح أن صاحب منصب الحسبة أشكل بهذه الهيأة، وذلك لأن مهمتها من صميم اختصاصه، الذي يتركز على القضايا المستعجلة، وفي طليعتها المعايش، والمشاكل المهنية، ثم ان اتصال منصبه بالعموم يجعل حضوره في هذا المجلس حضورا أوليا.

ومن التنظيمات على عهد السلطان أبي الحسن، أنه كان (يوجه لجهات المملكة (106) في كل سنة من يتفقد أحوال الرعية في كل ناحية من البلاد)، ولا نجد أيضا المحتسب في جملة هؤلاء المتفقدين لأحوال الرعية.

كما نجد أن القاضي (107) يتولى ما يتعلق بالأمناء ليحصل له الوثوق، بهم، مثلما يباشر التعازير، والمعروف أن كل ما يتعلق بالأمناء،

105) «المسند الصحيح الحسن»، الباب العاشر.
106) «المسند الصحيح الحسن»، الباب العاشر.
107) «مقدمة ابن خلدون»، ص : 192 ـ 193.

يرجع إلى المحتسب، لأنهم أعوانه في السوق، وأن لخطة المحتسب أكبر نصيب في التعزير الذي أصبح يباشره قاضي المرينيين.

وهذا هو موضع المحتسب في نظام المرينيين، ولذلك لم يحفظ المؤرخون غير أسماء بعض النابهين منهم، كالفقيه الملزوزي المتوفى سنة 697، الذي نجد ذكره منزويا في مخطوطة : «مختصر الإحاطة (108) حيث جاء فيه : (وقد كان جعل له النظر في أمور الحسبة ببلاد المغرب).

كما أن هناك فقرة في «روض القرطاس» (109) تفيد أن تعديل الصيمان (ج : صاع) المغربية على المد النبوي، كان على يد الملزوزي.

وقد أفادنا ابن القاضي في «جذوة الاقتباس» باسم «محتسب فاس» غالب بن علي بن محمد الشقوري الغرناطي، نزيل فاس المتوفى سنة 741، ومن بين المذكورين أيضا من محتسبي فاس، علي بن أحمد الحسيني السبتي الشهير بالكفاد الذي كان يجمع إلى الحسبة النظر في أحباس فاس سنة 839 (110).

وذكر ابن الخطيب (111) أنه لقي بمدينة آسفي، عام 761،

---

108) مصورة الخزانة العامة المأخوذة عن مخطوطة الاسكوريال.

109) ص : 82.

110) لقد أفادنا بهذه الأسماء ومصادرها، البحث القيم الذي نشره الاستاذ الأخ محمد المنوني، بمجلة «المناهل»، العدد : 14، السنة السادسة.

111) «نفاضة الجراب»، ط : الكاتب العربي، ص 72.

محتسب هذه المدينة. والناظر في مارستانها. أبا الضياء منير بن أحمد ابن محمد بن منير الهاشمي الجزيري.

كما جاء في «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب». المجهول الهوية. اسم أبي عبد الله بن الجيار محتسبا في سبتة.

ويتعين ازاء هذا. الالتفات أيضا إلى أن عصر المرينيين قد عرف رسالة الكرسيفي (112) في الحسبة. مما يدل دلالة قاطعة على أن الحسبة كانت مزدهرة على مستوى أوسع وأعلى مما تعرضه علينا النصوص التاريخية المعروفة.

ولقد كان من أثر توزع اختصاصات منصب الحسبة. أن ضخامة هذا الجهاز الإداري. لم تسد مسدها. فنرى على عهدهم من نصب نفسه للأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر. في نطاق المصلحة العامة. كأبي حفص عمر الرجراجي الذي تصدى لاصلاح طرق المسلمين. واماطة الأذى عنها. وتجديد ما فيه منفعة دائمة للمسلمين. من بئر أو سقاية (113).

والمعروف أيضا أن ابن خلدون أشار في «المقدمة». إلى قضية إفساد اعراب البادية. وأنها كانت سببا في ظهور جماعات انتحلت الدعوة إلى إقامة السنة. وتغيير المنكر.

---

112) تقدم ذكره.

113) شرح القصيدة التلمسانية. للتيساني. مخطوطة المكتبة الملكية. تحت رقم: 1750. - انظر «نيل الابتهاج». ص: 158.

ويظهر أن هذا الفساد لم يجعل له حد. فقد ذكر السرخسي (114) أن يعقوب بن عبد الله الخاقاني الفاسي. من أبناء البربر، انتصب في سنة 817، للأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر، وردع المفسدين. حتى صار له أنصار وأتباع.

الحسبة على عهد الوطاسيين :

إذا كانت ظاهرة شح كتب التراجم ومؤلفات التاريخ المغربية بأخبار المحتسبة في عهد المرينيين تعود - كما أشير - إلى سعة هيكل نظامهم الإداري، الذي تاهت في أبعاده خطة الحسبة، وتوزعت اختصاصاتها بين مهام مؤسساته. فاننا نجد ظاهرة نضوب المصادر التاريخية قائمة ماثلة بعد عهدهم، فهي تساير الباحث - حسبما وصل إليه علمي - على مدى عهد الوطاسيين. ولكن بين يدينا نصا صريحا يتعلق بالحسبة بمدينة فاس يقدمه لنا الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، وذلك في كتابه المعروف «وصف إفريقيا». وهو يطلق أولا اسم «رئيس الأمناء». ثم يسميه بعد «بالمحتسب» وذلك حيث يقول في معرض الكلام على جباية الجمرك (115) ، (كما لا يؤخذ شيء كرسم تجاري، عند الأبواب، عن الأغنام المجلوبة إلى فاس،

---

114) الجزء العاشر، ص : 115، من كتاب «الضوء اللامع».

115) انظر وصف إفريقيا الترجمة العربية، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بترجمة الدكتور عبد الرحمان حميدة.

ولكن يدفع عن كل خروف، في المسلخ، رسم مقداره درهمان فضلا عن درهم واحد للحاكم الذي هو رئيس الأمناء، وكثيرا ما يتجول هذا الموظف في المدينة على ظهر جواده مخفورا باثني عشر من رجال الشرطة لمراقبة الخبز ووزن اللحوم وسائر ما يبيعه الجزارون، وإذا لم يجد الوزن المطلوب، قام بتفتيته إلى قطع صغيرة، ويلطم الخباز لكمة على قفاه تتركها متورمة موجعة، وفي حالة تكرار المخالفة يجلد البائع على ملأ من الناس، ويعهد الملك بهذه الوظيفة، أي المحتسب، للوجهاء الذين يرغبون فيها. وبعد أن كان يعهد بها في الماضي لرجال أكفاء من ذوي السمعة الطيبة، أصبح الملوك في أيامنا يعهدون بها لأناس عاديين) .

والاحتفال لموكب المحتسب على هذا الوجه يدل على أن خطة الحسبة كان لها وزنها على ذلك العهد، وأن المحتسب قائم ماثل في جميع الحواضر، وربما حتى بنوا به الأمناء في مناطق البوادي.

الحسبة على عهد السعديين : (من 956 هـ إلى 1076 هـ)

وما يقال عن العهد الوطاسي، يقال عن العهد السعدي، وبين يدينا أيضا نص صريح للفقيه الشيخ ميارة الكبير (المتوفي سنة 1023 هـ)، من (عهد السعديين)، حيث يقول في أول شرحه على لامية الزقاق، لدى كلامه على ولاية الحسبة ،

(قد ألف الناس في خطة الحسبة بالخصوص تواليف وقفت على جملة منها. وشاهدت في صغري كتبا عديدة. على مرافع دكان المحتسب. الكائن بالقشاشين. فقيل لي أنها في أحكام الحسبة. وما يتعلق بها وهي محبسة على أن تكون هنالك ليطالعها وينظر فيها من يتولى خطة الحسبة).

وكما سمعنا من قبل الحسن الوزان يقول في آخر النص السالف. إن هذه الخطة قد أصبح يعهد بها لأناس عاديين. فكذلك يقول الشيخ ميارة (فما زال الأمر يتناقص ويقل حتى صار يتولاها من لا يميز الألف من الباء. فإنا لله وإنا إليه راجعون).

وهو نص شاهد عيان. على أن خطة المحتسب قد أخذ بها في هذا العهد السعدي. ويدل لذلك أيضا أننا نجد أبا عبد الله محمد بن الطيب العلمي (116) (ت 1134 هـ). يتعرض لابن ماواس. ويقول ، (هو الشيخ الفقيه الأجل العدل الأرضى. المحتسب. أبو العباس أحمد بن الفقيه العالم الأفضل الموقت بجامع القرويين. شارح «روضة الأزهار».

ويدل أيضا. لأخذ السعديين بالحسبة. أننا نجد ابن القاضي في «درة الحجال» (117) يترجم لأحد محتسبي العهد بهذه الفقرات ، (أحمد

116) «الأنيس المطرب». ط : حجرية. ص : 252 ـ 253.

117) الجزء : 1. ص : 91. ط : الرباط.

بن سعيد التونسي، محتسب «درعة» وله نظم وهو من أهل العصر حتى الآن سنة 999).

والمفهوم أنه إذا كان «لدرعة» محتسب. فإن بعض المناطق الأخرى. لم تكن لتخلو من محتسبين. ولكن المؤرخين - فيما يبدو - لا يعنيهم غير ذكر النابهين. والنابهون من المحتسبين هم نفسهم النابهون من الفقهاء. ولذلك لم تخصص للمحتسبين كتب طبقات. - كما أشير سابقا - فأدرجوا بوصف الفقه اكتفاء به عن وصف الاحتساب في كتب طبقات الفقهاء.

وعلى كل حال. فافادات المؤرخين. على نحو ماسمعنا. لاتمكن من رؤية واضحة. فهي تدل على الأخذ بخطة الحسبة. ولا تشير إلى ازدهار يغري المؤرخ بتتبع الآثار. واستقراء أسماء الرجال. لاسيما مع ملاحظتي الشيخ ميارة والوزان.

ويبدو أن الوضعية قد ظلت على ماهي عليه في أعقاب دولة السعديين. وقبيل قيام دولة العلويين. أي في تلك الفترة التي كان فيها المغرب مقسما إلى كيانات سياسية متعددة. والصراع قائم على الخلافة. بين محمد الحاج الدلائي. وبين السلطان الشيخ ابن مولاي زيدان. وبين أبي محلى. وبين المجاهد العياشي. وبين مولاي محمد الشريف العلوي السجلماسي. وفي معترك الفتنة القائمة بين عدوة الأندلس وبين عدوة

اللمطيين بفاس. قلد (118) الأندلسيون في أواسط شوال من عام ألف وثمانية وأربعين (1048 هـ). الفقيه (الحاج صالح) ولاية الحسبة.

ويظهر من المعلومات الواردة في ترجمة عند كل من القادري في «النشر». والافراني في «الصفوة» (119). أنه كان محمود السيرة. وأن ولايته حلت محلها في تلك الظروف العسيرة. ويلفت النظرة ما تفيده «صفوة من انتشر» من أنه كان واليا على السوق. وقواما على تغيير المنكر أيضا.

ولن يجد الباحث غير اسم هذا المحتسب بطبيعة هذا العهد الذي كان أمر حكمه مقسما وغير قار. وليس في قيامه بالمهمتين أحسن قيام. ما يؤخذ منه أن الحسبة قد دخلت في مرحلة جديدة فالفرد الوحيد. والبلد الواحد مما لا يقاس عليه. ولا سيما في فترات الهيجان التي لها دواعيها الخاصة في انتصاب الصالح والطالح للمهمات. فلا يصح معها أن يتلمح جديد في نظام الحسبة في مثل تلك الأحوال.

على أنه يلاحظ ازاء هذا. أنه ماكانت تعوز هذين العهدين. الوطاسي. والسعدي. وكذا الفترة التي بعدهما قبيل استشباب الأمر لدولة

---

118) انظر مخطوطة «نشر المثاني الكبير». في حوادث سنة 1048. - انظر «صفوة من انتشر» للافراني. ص : 82. مع مراعاة ملحوظة الخطأ المطبعي الواقع في «الصفوة». في تاريخ وفاة هذا المحتسب - حسبما نبه على ذلك الأستاذ المنوني في بحثه القيم بمجلة «المناهل». العدد : 14.

119) ص : 82. طبعة حجرية.

الشرفاء العلويين. تلك الأســس التي تقوم عليها هذه الخطة. وتمكن لها في الازدهار. وأعني بالأسس فقه الحسبة. ثم مطالب المجتمع التي يستدعي القيام على نوازلها تعيين محتسب لها. فإن هذه الأسس كانت قائمة في العهدين. ويشهد لذلك أسماء العديد من رجال الفقه. الذين ذكرت لهم آثار في فقه الحسبة منفردا ومخالطا فقه المعاملات العام. فلا محيد عن القول بأن ملوك العهدين المذكورين. قد كانوا في كثير من الأحيان. يجنحون إلى التقليد الذي جرى به العمل في كثير من الآفاق الإسلامية. وذلك بإسناد مهمة المحتسبة إلى القضاة. فإن ألحت الحاجة إلى تنصيب محتسب مستقل. فينزل عندها. كما كان الشأن بالنسبة إلى محتسب «درعة». التي كانت لها يومئذ عند السعديين مكانتها وحاجتها. وهذا يعود بنا إلى مفاد نص سابق للإمام ابن تيمية. وذلك في موضوع عموم الولايات. وتوزع اختصاصاتها بين مختلف الولاة. وبحسب الأزمنة والبقاع.

ولابن تيمية نص آخر (120) بهذا المعنى أورده بإثر النص السابق على سبيل التنظير . فقال : (وفي بلاد أخرى كبلاد المغرب. ليس لوالي الحرب حكم في شيء. وإنما هو منفذ لما يأمر به متولي القضاء).

الرباط　　　　　　　　عبد الرحمن الفاسي

120) «الحسبة في الإسلام» ص : 9. ط : المؤيد بمصر.

عدة القوافي
بين الخليل والأخفش

د. عبد الله الطيب

المراد هنا هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط توفي سنة 215 هـ قال ابن جني في الخصائص في باب النقلة وصدقهم وثقة الرواة (طبعة دار الكتب تحقيق النجار 3 ـ 309 والنص المشار إليه بعد في 311). وقال لنا أبو علي رحمه الله يكاد يُعرفُ صدق أبي الحسن ضرورة وذلك أنه كان مع الخليل في بلد واحد فلم يحك عنه حرفا واحدا. فهذا يدل على أن الأخفش لم يقرأ على الخليل وفي كلام محقق كتاب القوافي (دمشق 1390 هـ ـ 1970 م) ما يدل على أن الأخفش قرأ على الخليل مصدره كتاب طبقات النحويين للزبيدي زعم فيه أن أبا الحسن الأخفش صحب أول أمره الخليل. وان صح هذا الخبر فيوقف عند «أول امره» هذه. وقول أبي على الفارس (يكاد) ينفى الضرورة وحدها

كما لا يخفى وفي حرص الأخفش على تناول علم الخليل من رواته وتلاميذه ما ينبىء عن شيء لا أحسب أن الصدق الذي ذكره أبو علي أجود لفظ ينطبق عليه واصحه. ولا ريب أن الأخفش لا يحكى عن الخيل. واقرب ما يقترب به إلى ذلك أن يقول «زعم» و«كان الخليل يقول» و«قد كان الخليل يجيز هذا» وجاء في كتابه (ص 63) «وزعموا أن الخليل كان يجعل ما كان لفظه واحدا واختلف معناه إيطاء وهذا ينكر وقد قال هو بخلافه لأنه قد جوز إلى آخر ما قاله...» ألا ترى أن هذا استدلال لا يستند على سماع مباشر. وجاء في حديثه عن عدة القوافي (ص 9) «وقد ذكر الخليل في الجملة ثلاثين قافية ولم يذكر في التفسير الا تسعا وعشرين فلا أدرى أيهما منه كان الغلط إلا أنهم قد رووا هذا هكذا وقد ذكروا ما أخبرتك به» ا.ه.

قلت وابن جنى عظيم الإعجاب بالأخفش. وليس بمعجب حقا مذهب الأخفش في الإتكاء على ابتكار الخليل والتكسب منه وتعقبه بالعيب. وفي خبره مع المازنى والجرمى حيث خافاه أن يدعى كتاب سيبويه لنفسه فحملاه على إظهاره ما ينضح ببعض هذا المعنى والله اعلم بخفايا الأمور.

ونعرض الآن لما روى الأخفش من قوافي الخليل الثلاثين وتفسيرها الناقص واحدة عن عدتها فيما زعم. قال في باب عدة القوافي. طبع دمشق وتحقيق د. عزة حسن .

قال (ص 8) : «باب عدة القوافي وهي ثلاثون قافية يجمعها خمسة أسماء متكاوس متراكب متدارك متواتر مترادف. اهـ». ويدل على أن هذه الأسماء من وضع الخليل. قول الأخفش قبل البدء في باب عدة القوافي : «وقد وضع الخليل أسماء من الأفعال للقوافي منها فعل وفاعل وفال وفيل فجعل كل واحد من ذا قافية. اهـ». قلت وليت الأخفش لم يكتف بقوله منها وليته ذكرها جميعها الا أن ذلك يباين أربه. وفيعل وفاعل اللتان ذكرهما المتدارك كما في بيت المعلقة :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

(منزل) كفيعل وكما في بيت النابغة :

وان خلت أن المنتأى عنه واسع

(واسع) كفاعل.

و(فال) ك(نار) في بيت النابغة : أم ضوء نعم بدا لي أم سنا نار.

(وفيل) مثل (فين) من (فينا) في بيت عمرو بن كلثوم :

أبينا أن نقر الذل فينـا

وكلا (فال وفيل) يمثلان المتواتر.

ولوددت لو قد وقع الينا كتاب أبي الفتح «المعرب» في شرح قوافي أبي الحسن وقد ذكره مرات في الخصائص ونبه إلى أشياء ذكرها فـي الخصائص وفاتته فيه.

وَيَلْفِتُ النَّظَرَ إلى أن أجناس القوافي التي سماها الأخفش أسماءها خمسة وهذا كعدد الدوائر في العروض وأحسب أن الخليل اعتمد هذا

العدد لأن أصابع اليد خمسة وأوتار العود أربعة وأمر القوافي والشعر كله إيقاع والأجزاء التي ذكر الخليل عشرة والشعر كما قال سيبويـهـ«موضـع للغناء والترنم» وزاد الأخفش عليهما الحداء وإنما الحداء من الغناء.

المتكاوس

قال التبريزى إنما سمي المتكاوس لاضطرابه وقد سمى المتكاوس والأسماء التي معه حدودا.

قال أبو الحسن : «فللمتكاوس واحدة وهي كل قافية توالت فيها أربع متحركات بين ساكنين وذلك فعلتن أربعة أحرف متحركة بين نونها ونون الجزء الذي قبلها» قلت ومثال المتكاوس ، قد جبر الدين الاله فجبر.

الشاهد : (هفجبر) ـ المتحركات هن (هـ ف ج ب) والروى راء ساكنة وقبل الهاء (لا) من الإله. سكون قبله متحرك (لا).

قلت تعريف الخليل للقافية الذي رواه الأخفش أدق مما وصف به المتكاوس ها هنا قال «القافية عند الخليل ما بين آخر حرف من البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن» ـ ا ـ هـ.

قال التبريزي «والقافية اختلفوا فيها فقال الخليل هي من آخر البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن» وقال الأخفش هي آخر كلمة في البيت أجمع وإنما سميت قافية لأنها تقفو الكلام أي

تجيء في آخره ومنهم من يسمى البيت قافية ومنهم من يسمى القصيدة قافية ومنهم من يجعل حرف الروى هو القافية والجيد المعروف من هذه الوجوه قول الخليل والأخفش. قوله :

مِكَرٍّ مِفرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معـا كجُلْمُود صَخْرٍ حطّهُ السَّيْل من عَـلِ

القافية من هذا البيت عند الخليل «من علي» وعند الأخفش «علي» وحده فقس على هذا جميعه. أ. هـ

وفي الذي ذكره أبو زكريا عن الأخفش نظر لأن آخر كلمة وآخر كلمتين والبيت والقصيدة جميع هؤلاء مما رواه الأخفش وعن الفارسي في ما رواه ابن جنى في الخصائص أنه أنكر أن يكون الأخفش له مذهب واحد ولكن له مذاهب. وأنكر الأخفش أن تكون القافية حرفا أو حرف الروى واحتج بحجج منها أن العرب لم تكن تعرف الحروف. وفي باب القوافي من كتاب سيبويه (وعن الأخفش أخذه الناس) ما يدل على أن حروف الروى قواف فهل كان يريد أن يتعقب هذا القول في هذا الموضع وفي الكتاب أن أسماء حروف الهجاء عن العرب أخذت وأنها سمتها العرب كما سمت السيف قب والضحك طيخ وما أشبه من أسماء الأصوات وينصر هذا القول الشعر والقرآن. وتوسط المعرى في مقدمة لزوم ما لا يلزم فأثبت معرفة الحروف لمن كان يكتب من العرب واستبعد أن يعرفها البدو والذين لا يعرفون الكتابة.

هذا ونلاحظ في تعريف الخليل أنه لا يسمى أول ساكن يلى آخر البيت (لا اخر حرف في البيت كما سنبين في ما بعد إن شاء الله تعالى) نونا ساكنة للجزء الذي قبل القافية كما صنع الأخفش. ذلك بأن تعريف الخليل للقافية، (والصواب نقل التبريزى) للقافية فيه كيان «نغمى مستقل، نسبته إلى أجزاء البحر بقبلية وبعدية يخفى هذا من حقيقته أنه غير وزن البحر. ينسجم معه ويناغمه ويكتمل به وزن الشعر في ما يكتمل به. وقول الأخفش، بين نونها ونون الجزء الذي قبلها. يجعل القافية طرفا من الوزن وكأنه ينظر إلى قوله هو حيث قال انها آخر كلمة في البيت وعلى هذا ينبغي أن تكون جزءا أو طرفا من جزء وهذا غير دقيق في إدراك إيقاعها.

هذا والمتكاوس مما يدل على اضطرابه أن شاعرا لو أراد مد ما يقابل فاء (فعلتن) أو عينها فخرج بقافيته من المتكاوس وجاء بها مع قافية من المتكاوس لجاز. مثلا ، «قد جبر الدين إلهي فجبر».
فهذا من المتراكب و(قد جبر الدين الاله قد جبر) فهذا من المتدارك. والثلاثة قد يجئن في قصيدة واحدة معا.

هذا وكان الوجه أن يقول أبو الحسن ، (فللمتكاوس منها واحدة وهو) إذ الحديث عن المتكاوس ولكنه قال (وهى) إذ ليست فيه إلا قافية واحدة فحمل القول عليها فساغ ذلك وقد لزم التذكير في الباقيات وهو قوله عند كل واحدة منها (وذلك كل قول فيه) إلى آخر ما قال.

هذا وتعريف الخليل يدخل في مدلول القافية حرف الروى وغيره من وصل وخروج وتأسيس وردف وما أشبه لقوله أن القافية من آخر البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن. على أن الذي في قوافي أبي الحسن طبع دمشق ص 6 كما تقدم ذكره عند الخليل (ما بين آخر حرف من البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن) ـ ا ـ هـ وعندي أن هذه الرواية غير صحيحة. ذلك بأن حرف الروى هو الراء الساكنة في بيت العجاج ،

قَدْ جَبَرَ الدين الاله فَجَبَرْ

وبه استشهد الأخفش على قافية المتكاوس وعلى هذه الرواية التي في كتابه تسقط الراء فلا تكون جزءا من القافية لأن القافية التي بين آخر حرف في البيت والساكن الذي يليه الخ. وهذا كما ترى لا يستقيم. ويستقيم أن نقول بين آخر البيت والساكن الذي يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن فتدخل الراء في التعريف. ولعل الخطأ من النساخ. والله أعلم. وتعريف الخليل بناه على تحليل القافية من حيث يمكن البدء بتحليلها وهو آخر البيت ايا كان ذلك الآخر.

وتظهر فائدة نص الخليل على المتحرك الذي قبل الساكن في القوافي التي يتوالى فيها ساكنان مثل «الكذابان» «يا كلب الدوم» «انا عدى والسحل» بسكون الحاء واللام. ذلك لأن البدء بالساكن ليس بعربي فتكون الحركة فراشا للساكنين بعدها فإن كان أحدهما مدّاً أو

لينا اعان مَطْلهُ الطَّبِعيِّ على أن يكون للساكنيين متكئا وسندا وان لم يكن كما في و«السحل» كان الفتح الناشىء من الحركة مع الحرف الذي يليها متكئا ومستندا.

وتظهر أيضا فائدة ذكر المتحرك الذي قبل الساكن في نحو «زوراء تنفر عن حياض الديلم» الدال المفتوح يبين به أن الياء الساكنة بعده صحيحة المعدن مع كونها حرفا لينا في السّنخِ فلا يجري هذا مجرى ما فيه التأسيس. ومثل «السيف أصدق أنباء من الكتب». ومثل «الحق أبلج والسيوف عوارى» المتحرك دل على أن اللين الذي من جنسه بعده ألف وفي : -

(أهذا دِينُه أبداً ودينى).

أنه ياء وفي : «حتى تقول الهامة اسقوني» أنه واو وفي القوافي التي يكون حرف الروى فيها متحركا واحدا بين ساكنين لا بد لنا من معرفة حركة الحرف المتحرك الذي قبل الساكن التالي لآخر البيت ذلك بأن حركته بمنزلة المُوَجِّه للنغمِ ومبدأ القافية.

المتراكب

قال أبو الحسن، «وللمتراكب أربع وذلك كل قافية توالت فيها ثلاث أحرف متحركة بين ساكنين وهي مُفَاعَلَتُنْ مُفْتَعِلُنْ فَعِلُنْ لأن في فعلن نونا ساكنة وآخر الجزء الذي قبله نون ساكنة وَفَعَلْ إذا كان يعتمد على

حرف متحرك نحو فَعُولٌ فَعَلْ، اللام الآخرة ساكنة واللام في فعول متحركة. ا.هـ».

(1) مثال مفاعلتن ، (عَلى لِبَدِي) في قول النابغة ،

أخنى عليها الذي أخنى على لبدى.

و ، (ولا وعلو) في قول أبي الطيب ،

ومضيت منهزما ولا وَعِلو.

القافية (لا لبدى) ولكن العين متصلة بلا كاتصال الميم بفا في ، (مفا) و(لبدى) محتاجة إلى (لا) وهذه لا بد لها من العين.

و«علو» محتاجة إلى «لا» قبلها. وحرف العطف وثيق الإرتباط ب (لا).

(2) مثال مفتعلن ، (تنسلكو) من قول زهير.

فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلكو.

(تنسلكو) هي القافية تبدأ بالتاء المتحركة وتنتهي بواو «كو». ولعل قائلا أن يقول فلم فرقت نون الوتد (نتن) فقلت (تنسلكو) ولم تقل (نت نسلكو = مفاعلتن) كما قلت (على لبدى = مفاعلتن) والجواب أن الحالتين لا سواء لأن (مفاعلتن) مقياس لا يصح أن تفرق ميمه من سائر الوتد (وتنسلكو) كلمة قائمة بنفسها وقافية تامة من عند أولها إلى آخرها و(مفتعلن) هي وحدة توازنها بوزن مستقل. وهذا الوزن ينسجم ويناغم

وزن الوتد (نتن) الوتد (نتن) وهو (علن) من (اين تن) وهي فاعلن) الجزء العروضى البسيط الثالث في شطر البيت الثاني كما لا يخفى فههنا تداخل بين (فاعلن) العروضية و(مفتعلن) القافوية ومثال آخر «مطلحا» من قول الآخر ، الأهل هاجك الأظعان إذ جاوزن مطلحا.

3) مثال فعلن ، (فقدي) من قول النابغة ،

إلى حمامتنا أو نصفه فقدى.

وههنا مساوقة من القافية لوزن العروض ومطابقة لجزء منها وهو (فقدى) الجزء (فعلن) لأن القافية (هُوَ فَقَدِي) وهو جزء من الكلمة (نِصْفَهُ)و وهذه تعادل الجزء (فاعلن).

مثال آخر قول أبي الطيب (تفلوا) من ،

قوم غرقت وإنما تفلوا

القافية (ما تفلوا) ولكن (ما) لا تفصل عن وتدها (نما) فهنا اضطرك الوتد إلى الحذف من القافية والإكتفاء منها ب (تفلوا) كما من قبل اضطرك الوتد إلى إضافة (الميم المتحركة) إلى (فاعلتن) لتصير (مفاعلتن) وذلك على القافية فيه زيادة.

(4) مثال فعل ساكنة المعتمدة على فعول المتحركة اللام ، (تُجِيبَ صَمَمْ) في قول المرقش ، هل بالديار أن تجيب صمم.

القافية (جِيبَ صَمَمْ).

وذِكْرُ التاءِ من أجل الوتد.

ومثال آخر ، (بَنَانِ عَنَم).

القافية ، (نَانِ عنم).

وذلك في قوله ، النشر مِسْكٌ والوجوه دَنَانِيرٌ وأطْرَافُ البنانِ عَنَمْ.

المتدارك

قال أبو الحسن ، «وللمتدارك ست قواف وذلك كل قافية توالي فيها حرفان متحركان بين ساكنين وهي متفاعلن مستفعلن مفاعلن فاعلن وفَعَلْ إذا اعمد على حرف ساكن نحو فعولنْ فَعَلْ اللام من فعل ساكنة والنون من فعولن ساكنة وإذا اعتمد على حرف متحرك نحو فَعُولْ فَلْ اللام من فَلْ ساكنة والواو من فعول ساكنة وكان الخليل لا يجيز سقوط نون (فعولن) بعدها (فَلْ) ويقول لأن الحذف قد أخلّ به فلا يحتمل ما قبله الزحاف ولا أراه إلا محتملا لأنه لم يكن له معاقبا وقد ذكر الخليل في الجملة ثلاثين قافية ولم يذكر في التفسير إلا تسعا وعشرين قافية فلا أدرى أيهما كان منه الغلط إلا أنهم قد رووا هكذا وقد ذكروا ما أخبرتك به».

(1) مثال متفاعلن ، (يَتَوَرَّعِي) من قول الحادرة ، (قَسماً لقد أَنْضَجْتَ لم يَتَوَرَّعِي) والقافية (ورَّعى) الساكن التالي آخر البيت راء قبلها واو متحركة ولا يمكن فصل الياء والتاء التي بعدها وقبل الواو لمكان الفاصلة

الصغرى «متفاء» بالنسبة للقافية وهي سبب ثقيل
بعده خفيف بالنسبة للوزن لا للكلمة نفسها
«يتورعى» التي منها القافية فتأمل.

مثال آخر ، (تَتَرفَّعي) في نفس القصيدة ، «وإن تُزْجَرْه به تَتَرفَّعي».

مثال ثالث ، «مُتَبَسِّمي» في قول عنترة ، «طوع العناق لذيذة المُتَبَسِّمي».

2) مثال مستفعلن ، «مُسْتَسْلِمي» من قول عنترة ، لا ممعن هربا ولا مُسْتَسْلِمي.

القافية ، «تَسْلِمي» وجيء بمُسْ قبلها لأنه أول الكلمة الذي به بدأ أصل القافية ليدل أن هذا الفرع يقع في هذا الضرب وهو المتدارك.

وأمثلته بعد كثيرة مثل «مستعجلي» في قول حسان ،

رقص الْقَلُوصِ براكبٍ مُسْتَعْجِلِ.

3) مفاعلن ، مثالها (تكلمي) في قول عنترة : «يا دار عبلة بالجواء تكلمي» القافية ، (كلمي) وأمثلة هذا كثيرة.

مثال آخر ، (حواسدو) من قول أبي الطيب ، عواذل ذات الخال في (حواسد).

مثال ثالث ، (بَمُعْلِمِ ي) من قوله ، (غيث قليل الدمن ليس بَمُعْلَمي).

مثال رابع ، سلامها ، من قوله ، كما ضمن الوحيّ سلامها.

وههنا تداخل بين وزن القافية (لامها) والجزء «يَسِلاَمُهاَ».

4) فاعلن ، مثالها ، (ذامها) من قول لبيد ، (ترجى نوافلها ويخشى ذامها والقافية (ذامها).

مثال آخر ، (شاكرِي) من ، يأيُّها السائل عن ديننا نَحْنُ على دينِ أبي شاكرِي و(نائلوا) و(فاعِلُو) من قول المعري ،

إلا في سبيل المجد ما أنا فاعلو.

عفاف وأقدام وحَزْم ونائلو.

5) فعل ساكن لآخر المعتمد على فعولن مثل ، (يُراخِي الأَجَلْ) في قوله ، ـ

ضَعيف النكاية أعداءَهُ يَخَالُ الفرارُ يراخِيُّ الأَجَلْ

القافية (خِلْ أَجَلْ)

ونصوا على (فعل) لتبيين ع الوزن النغمي من نغم الكلمات الذي يكون حيزا لما ينتهي فعل ساكن الآخر من ضرب قوافي المتدارك.

مثال آخر ، (ا بر الكتب) من قول أبي الطيب ، (فهمتُ الكتاب أبرَّ الكتب).

6) فَلْ ساكن الآخر المعتمد على (فعول) متحرك اللام قبله واو ساكنة هكذا (فَعُولُ فَلْ).

وأخذ الأخفش هنا الوزن على الخليل لأنه يمنعه من المتقارب فنقصت على ذلك قوافيه من العدة التي ذكرها وهي ثلاثون. وقد أُتِيَ

الأخفشُ من خلطه بين الأوزان العروضية والقافوية. فهذا الوزن «فَعُولُ فَلْ» وزن القافية لا الوزن العروضي ومثاله ، (نْ عَنْتَرَةْ) نون متحركة وعين مفتوحة ونون ساكنة وتاء مفتوحة وراء مفتوحة بعدها هاء ساكنة (نُعَنْتَ = فَعُولُ متحرك الآخر) و(رَةْ) = (فَلْ) من قوله :أنا الهجينُ عنترةْ) وهذا ليس من المتقارب كما ترى.

ومثال آخر (أَحْمَرَهْ) من قوله (اسودَهُ وأحْمَرَهْ).

وعلى هذا لا يكون الخليل نقص من عدته شيئا والله أعلم.

المتواتـــر

يقول أبو الحسن ، «وللمتواتر سبع وذلك كل قافية فيها حرف متحرك بين حرفين ساكنين وهي مفاعيلن فاعلاتن فعلاتـــن مفعولـــن وفعولن فعلن وفل إذا اعتمد على حرف ساكن نحو فَعُولُنْ فَلْ».

(1) مثال ، مفاعيلن قول حسان ، جسم البغال وأحلام العصافيرِ

القافية (فيرِي) وموازن «مفاعيلن» عصافيرى.

مثال آخر ، (سنا نارى) من قول النابغة ، أم ضوء نعم بدالي أم سنا نارى. أجودُ وأصحّ أن تجعل هنا من «فعْلن» لأن قوله (نارى) يوازنها وهو القافية.

مثال ثالث ، (واقرانو) من قول الآخر ،

بضربٍ فيه تفجيعٌ وتوجيع وإقران و

القافية ، (رانو)

(2) مثال فاعلاتن ، (مصمئلُّو) في قول الحماسى ،

خبر ما نابنا مصمئلٌّ و

القافية (إلْ لُو)

مثال آخر ، (بالذ ليلي) في قول زيد الخيل.

يا بني الصيداء ردوا فرسى إنما يفعل هذا بالذليلي.

والقافية «ليلى» ولك أن تجعل هذا من (فعولن)=(ذليلي) ولكن اتصال هذه الكلمة بال والذال لأن (ال) شمسية يجعل ما ذهبنا إليه أقرب. ويدنو منه قوله ، ـ علموه مثلما علمته دلج الليل وإيطاء القتيلِ

غير أن (ال) هنا قمرية فـ(قتيلى) أشبه أن نجعلها من (فعولن) وستأتي. وكل قافية مطلقة على وزن (فاعلاتن) مثل (خالياتي) في بيت التبريزى ،

اضحت الدار قفارا موحشاتــي عافيات دارسات خالياتـــي

وأمثال (مصمئلّ) و (مشمعلّو) في المديد والرمل مما يمكن أن يتمثل به ههنا.

وإذا قيدت أمثال خاليات صار وزنها «فاعلاتْ» بالسكون فدخلت في المترادف كما سيجيء وإذا قيدت (مشمعل) خففتْ ودخلت في المتدارك فصارت إلى «فَاعِلُنْ».

(3) فعلاتن (لَفَرَوّرو) من قول عمرو بن معد يكرب ،

ولقد أجمع رجلي بهـــا   حذر الموت وانى لفرورو

ومثال آخر (سروبى) في بيت قيس بن الخطيم و(قريبي) ،

أنىَّ سَرَّبتِ وكنت غير سَرُوبى   وتُقَرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريب ي

وهذا أجود من أن يجعل (فَعُولَنْ) وذلك لمكان الحرف المتحرك وأنه أعلق بالفاصلة الصغرى (فعلا)، من فعلاتن فتأمله ،

ومثال آخر ، (فَحَواها) من ،

وإذا رايةُ مجد رفعت   نهض الصلت إليها فحواها

وقال شوقي ، شَيَّعوا الشمس ومالوا بضحاها.

« بضحاها» فعلاتن.

وقال ، قَمْ سُلَيْمان بساط الريح قاما.

ريح قامـــا = فاعلاتـــن.

4) مفعولن (منقوبو).

قال عَبيد ، يَضْغُو ومخلبها في دفّهُ   لا بُدَّ حيزومه منقوبو

القافية (قوبو)

مثال آخر ، مَخْضوبي ، قال أبو الطيب.

ومن هوى الصدق في نفس وعادته   تركت لون مشيبي غير مخضوبي

وثالث (يغرى بي) في قوله ،

وأنثنى وبياضُ الصبح يُغْرى بي

ولك أن تجعل هذا شاهدا على «فل» معتمدة على الساكن قبلها وأجود وأوضح أن تجعلها من هذا الباب.

(5) فعولن ، وهذا كثير مثل (شكولو) في ،

ليالِيَّ بعد الظاعنين شكولو

وَسخِيناً في ،

إذا ما الماءُ خالطها سخينا.

(6) فعْلن ، مثالها ، (جَبْرُو) في قولِ الآخر ،

عُوجِي عليَّ فسلمي جَبْرو

ودَهْرِي في قول الآخـر ،

أَقْوَيْنَ مُذْ حِجَجٍ ومُذْ دَهْرِي

ودُونِي من قول ذي الأصبع،

فخالني دُونَه أو خِلْتُهُ دُونـــي

(7) فل إذا اعتمدت على ساكن قبلها مثلا فعولن فل

مثلا (بَهْ) باء مفتوحة بعدها هاء التأنيث ساكنة من قول الآخر ،

زبيريَّةٌ من بنات الذي أَحلَّ الحرام من الْكَعْبَةْ

(مِنَ الْكَعْ) فَعُولُنْ (بَةْ) = (فَلْ).

وهذا الذي منع الخليل من حذف نون فعولن منه ومثال آخر ، (يه) ياء مثناة تحتية متحركة بعدها هاء التأنيث ساكنة من قول الآخر ، -

خليليَّ عُوجَا على رسْمِ دارٍ خَلَتْ من سُليمى ومِنْ مَيَّـةْ

المترادف

قال أبو الحسن ، وللمترادف اثنتا عشرة وذلك كلُّ قافية اجتمع في آخرها ساكنان وهي ، متفاعلانْ مستفعلانْ مفتعلانْ مفاعلانْ فَعِلَتَانْ فاعليان فعليّانْ مفعولانْ فاعلانْ فعلانْ مفاعيلْ فعولْ.

(1) متفاعلانْ ، القافية كما لا يخفى تعادل (لان) فقط من هذا الوزن المذكور وإنما ذكروه للدلالة على نوع النغم الذي يكون للقافية حيزا. وقد مر بك من أوزان القوافي متفاعلُنْ مستفعلن الخ فمتفاعلان بسكون النون قبلها ألف ما يجيء من المترادف من ضرب وزنها وهلم جرا. ولو قلت : -

إني رأيت لدى الحديـــ قة نِسْوة مُتَبَرِّجَـــاتْ

كانت (متبرجات) هذه من الذي يتمثل به لمتفاعلانْ.

قال سعد بن مالك : إلا الفتى الصبارُ في النجدات والفرسُ الوقاحْ

لو وقفت بالسكون ولم تجعل الروى مطلقا إذ أول القصيدة.

يا بُؤْس للحرب التـــي وضعت أراهط فاستراحــوا

وحتى مثل هذا يجوز الوقف عليه بالسكون هكذا ، فاستراحْ... والفرسُ الوقاحْ. وعليه (فَرَسلو قَاحْ) = مُتَفَاعلانْ.

وقالت القرشية وهو مقيد ، ابنيَّ لا تظلم بمكة لا الصغيرَ ولا الكبيرْ (وللكبير) = متفاعلانْ.

القافية : (بيرْ) وكون (كبير) معرفة ومتصلة نغما بما قبلها يجعل كون (ولا الكبير) من (متفاعلان) أولى من أن نجعلها (فَعُولْ) ومثله ليزيد بن الحكم والقافية مقيدة من المترادف :

واعرف لجارك حقّــه   والحقّ يعرفه الكريــمْ

(رِفُهُ لكَرِيمْ) = متفاعلانْ.

2) مستفعلانْ : كقول يزيد بن الحكم :

يا بدر والأمثال يَضْــ   ربها لذى اللب الحكيــمْ

دم للخليل بــوده   ما خير ود لا يــــدومْ

الشاهد الجيد في البيت الأول : (لَبْ لِحكيمْ) = مُسْتَفْعِلاَنْ.

وفي البيت الثاني (دِنْ لاَ يَدُومْ) بزنَةِ (مستفعلانْ) إلا أنه أجود أن يجعل هذا من أمثلة (فَعُولْ) إذ القافية (دُوم) والياء تتم بها الكلمة مستقلة عما قبلها.

(3) مُفتَعِلاَنْ : مثاله : (عَهْدٍ قديم) وزنها (مفتعلانْ) وهي في بيت المرقش الأصغر :

لا بنة عجلان بالجوّ رســومْ   لم يَتَعَفَّيْنَ والعهدُ قديــمْ

وكذلك (جَوِّ رُسُومْ).

ولقائل أن يقول أن هذا من (فَعُولْ) لاستقلال : (رسومْ) و«قديم». أي (فعول الساكنة اللام) ويجاب عن هذا بأن آخر البيت وآخر الصدر كليهما

فاصلة صغرى نهايتها موصولة على نحو ما يسميه الموسيقيون «السبب المتوالي» وربما كان أجود في الإستشهاد قوله ،

لم اغتمض طولها حتى انقضت   اكلؤها بعد ما نام السّليمْ

لأن (ال) شمسية والسين متصلة بما قبلها نَعَماً (نامَسْ سَلِيمْ) = مفتعلان.

(4) مفاعلان ، نحو (وَلَا أرِيمْ) من قول المرقش ،

بادُوا وأصبحت من بعدهم   احسبني خالدا ولا أرِيمْ

وظاهر هذا أن يجعل من باب (فَعولْ) ساكن اللام. ولكن جعله منها لا يبين حقيقة ندرته كما ههنا.

ومثال آخر (إلى نعيم) من قوله ،

بينا أخو نعمة إذ ذهبت   وحوّلت شقوة إلى نعيم

(إلى نعيم) = مفاعلانْ.

(5) فَعِلتانْ وهو امتداد الفاصلة الكبرى (فَعِلَتُنْ) ليصير آخرها مثل السبب المتوالي ،

وهذه نادرة جدا ولو قال المرقش (لِمَ تلوم) مكان فيم تلوم في بيته ،

فعمرك الله هل تدري إذا   مالُمْتَنِي في حُبِّها فيم تلُوم

لكانت منها ، (لِمَ تَلومْ) = فَعِلَتانْ.

وفي كتاب التبريزى شيء يشبه هذا الوزن وهو ،

هذا مقامي قريباً من أخِـي كل امرىءٍ قائم مع أخِيـهْ

(مَعَ أخِيهْ) = فعلتان.

(6) فاعليّان = فاء متحركة بعدها ألف وعين متحركة بعدها لام متحركة وياء ساكنة تليها ياء متحركة فألف فنون ساكنة وفي هامش القوافي (طبعة دمشق 1970 م ص 9) أن الأصل هكذا وقد غيرها التحقيق إلى فاعليان وهو خطأ لأنه مكرر في وزن (مفعولان) ولا تتم به عدة قوافي المترادف.

مثال فاعليّان ، (فِلمطيّات) قال الشماخ ،

لما رأتنا واقفي المَطيَّـــاتْ

قامت تبدّى لي بأصْلَتيّـاتْ

أصْلَتيّاتْ ، أيضا تساوي ، فَاعِليّانْ.

وهذا الوزن غير نادر ندرة ما سبق. ومنه

لبْنَ عَفْفَانْ

في قول أصحاب الفتنة ، «إن عليا قَتَل ابْنَ عَفّان»

7) فعليّان ، بتحريك الفاء والعين واللام بعدهن ياء ساكنة تليها متحركة فألف ساكنة وهو كالوزن السابق بإسقاط الألف التي بعد الفاء وهو خبن بالنسبة للعروض وهنا للتوضيح إذا هذا الوزن تمثيل للقافية كما تقدم.

وهذا منه المسبغ المخبون الذي ذكره التبريزي.

واضحات فارسيات وأدم عربيات

الشاهد عربيات = فعليان.

وقول ابنة أبي مسافع :

وما ليث غريف ذي أظافير وأقدام

(رو أقدام) يمكن أن يجعل منه ولكن (مفاعيل) به أولى وقد يسوغه أن أظافير متحرك وليس بكبير شيء إذ هو جزء قائم بنفسه دخله الكف.

(8) مفعولان مثاله (عبد الدار) من قول هند :

ويها بني عبد الدار

واتصال الدار بما قبلها يجعل هذا أولى بها من (مفعول) و(كذا بان) من قوله :

إن ثقيفا منهم الكذا بان

(9) فاعلان مثاله ، (ترجمان) من قول عوف بن محلم والقافية مقيدة :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

مثال آخر : (هشليل) من قوله :

ويلمه مسعر حرب إذا ألقي فيها وعليه الشليل

(10) فعلان بتحريك الفاء والعين واللام يلتقي مع فعلتان لمساواته (علتان) غير أن موضع الفاء المتحركة من الفاصلة الكبرى الممتدة يجعل الأمثلة التي تقدمت أولى بها الموضع الذي ذكرت فيه. ومن هذا الوزن قافية بيت في ميمية المرقش مما لم يروه ابن الأنبارى.

أَمِنْ ديار تَعفى رَسْمها ... عَينُكَ من رَسْمِها بسجوم

قوله بسجوم = فعلان:

على أن هذا البيت فيه اضطراب ربما كان أصله من النساخ.

ومثال أجود ، (وطعان) من بيت ذكره التبريزى وهو :

أي شخص كأبانْ ... عند ضرب وطعانْ

ومثال آخر ، و(تقوم) من قوله.

أحسنُ الناس جميعاً ... حين تَمشي وتَقومْ

إذا قيدنا الوزن ولكنه في الأصل مطلق ويجوز تقييده. وقبله

إنما الذلفاءُ همى ... فليلمني من يلوم

(11) مفاعيل ، مثل (واقْدَامْ) - (م أقْرانْ) - (بِدْنْ آنْ).

من قول ابنة أبي مسافع :

وما ليث غريف ذو ... أظافير وأقدام

كحبي إذ تَلاقَوْا و ... وجوهُ القوم اقران

وأنتَ الطاعن النّجلا ... ءَ منها مُزْبِدٌ آنْ

وقد تَرْحلُ بالرَّكب ... فما تخْنِي لخلان

ولا يخفى أن قولها (لِخلٍّ لان) = مفاعيل.

(12) فعول بسكون اللام مثل ، (ذَلُولْ) من قوله ،

وما ظَهْرى لباغي الضَّيْمِ بالظَّهْرِ الذَّلولْ

إذا وقفت بالسكون.

و (عِرَاق) في قوله ،

أيام سلمى لا يرى مِثْلها الـرْ ... رَاءُونَ في شَامٍ ولا في عِـرَاقْ

و (حسيس) في قولـه ،

مكَّة أقوت من بني الدَّرد بيسْ ... فما لِجِنِّي بها من حَسِيـس

وبهذا تكون قد اكتملت بحمد الله أوجه التمثيل للأوزان والصيغ الثلاثين التي روى الأخفش عن رواته عن الخليل للمتكاوس واحدة وللمتراكب أربع وللمتدارك ست وللمتواتر سبع وللمترادف اثنتا عشرة فعدة ذلك ثلاثون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

فـاس ... د. عبد الله الطيـب

النظرات

عبد العلي الوزاني

نظرة أولى :

لاتنظر إلى شيء معين.. أو غير معين.. انها تنظر فقط.. أمن الضروري أن يقع النظر على شيء... ؟ الا يمكن أن يبقى الفعل في هذه الحالة دون تعدية... ؟ يبدو ان عالم النحو لاخبرة له بالعيون.. باستثناء عين الفعل.. وكتاب العين للخليل بن أحمد... ولو كانت له خبرة بها لقسم فعل نظر إلى أقسام.. قسم منها لا يتعدى إلى شيء.. هو منحصر في ذاته.. أو قل انه ينظر إلى نفسه.. غير مهتم بأي شيء آخر.. صورة مفتوحة على الحائط.. ملتصقة به.. خطاب مكتوب بالمداد السري.. عين كانت جارية بالماء... ولكن جف ماؤها وبقي تجويفها شاهدا على أن الماء كان هنا يوما.. مصباح مطفأ.. انقطع عنه التيار.. مع بقاء اسلاكه الداخلية في وضعها المعهود.. صورة فوتوغرافية اخذت وضعها النهائي.. لا يعنيها في شيء أن يذهب هذا العالم. ويجيء عالم آخر.. نص مكتوب بلغة لا يعرفها أحد.. في زمن لا وجود فيه للعرافين من قارئي فناجين

العيون المطفأة.. إلا في بلد يسمع به الناس دون أن يروه.. وهنا نتذكر عيون السيارة الامامية المعطلة.. وعيون البنادق المهجورة المعطوبة من زمن بعيد.. وعيون الرؤوس المحنطة من أيام الفراعين.. وعيون الحقائق التي لم يعد يبحث عنها أحد.. والعيون الصناعية المحدق باتقان ظاهر. لدرجة انها تشبه العيون الطبيمية إلى أبعد حد..

خذ مقصا وقص عينا مرسومة من ورق مقوى.. وبللها بمحلول الغراء.. وتبثها على لوح من زجاج.. كذلك هي.. لاتثق بهذه العين إذا رفرفت أو اختلجت.. فأنت المختلج لاهي.. اختلجت لأنك سئمت من الجمود.. أما العين فما زالت أطرافها حادة بفعل حد المقص.. تقول إنك تراها تبتسم..؟ هذا محتمل.. ولكن اما قالوا لك بن ابتسام الزهر الصناعي.. وابتسام الحظ الذي لا يعرف أحد أين يوجد.. ولا يعرف أحد هل يبتسم كما يبتسم الإنسان.. بحيث يكون له فم مستطيل.. ينشق إلى نصفين.. ويشد من طرفيه لحظة الابتسام.. أو أن ابتسامه منقول عن لوحة لبيكاسو.. تربع وسطها فم مبني داخله بالحجارة القائمة الزوايا.. أو هو من نوع ابتسام القردة.. حين تقلب شفاهها أحيانا للتعبير عن سرورها الغامض..

النظرات ليست حوارا مع أي طرف.. لا شأن لها بالألوان والأشعة وتغير الديكور المقابل لها.. لأنها لا تواجه أي شيء.. لاتنفيه ولا تثبته.. لاتحبه ولا تكرهه.. لاتحتج عليه ولا ترتاح إليه.. انها ليست بريدا.. أو أنها بريد توقف عن العمل.. لا تنحني مع الأشياء.. ولا ترتفع.. ولا تدور..

ولا تهرب.. لأنها مقطوعة الصلة بأي شيء آخر منظور.. فقط هي لافتة لدار رحل سكانها منذ زمن.. منار على شاطيء غير صالح للاستعمال.. يترك السفن للضياع في ظلام الليل.. وعلى البحارة أن يخمنوا أين يوجد الميناء.. مطر متجمد في الفضاء.. انقطع عنه الهواء.. وتوقف قانون الجاذبية.. فلا ارتفاع ولا انخفاض.. وإنما جمود كامل.. نظرات لاتعود بأي خبر.. فقدت الذاكرة.. واستوى عندها قبل وبعد.. وفوق وتحت.. والوجود والعدم.. كل شيء أمامها سديم.. زالت معالمه وارتد إلى الحالة التي كان عليها قبل أن تكون للدنياة هوية خاصة.. ليس عندها مانع من أن تأخذ فرشاة ووعاء للصبغ الأسود، لتسود المباني والناس والأشياء.. كما لامانع عندها من أن تأخذ سيفا بتارا وتمعن في تمزيقها.. لسبب بسيط، وهو انك لاتمزق حينئذ إلا أوهامك وتصوراتك، كأنك دون كيشوت المسكين..

العين مفتوحة بكيفية طبيعية.. دوائرها الداخلية ما زالت بألوانها العادية.. البؤبؤ كما هو.. بلونه الغامق العميق.. الإطار الأبيض ازداد نقاء لدرجة تشعر بالاشفاق.. الرموش في منابتها واقفة كحراس صامدين على باب بيت مسروق.. تبدو كأعشاب يابسة متصلبة .. لو حاولت الانحناء لانكسرت فيما يظن.. الجفون كأذناب الأسماك الميتة.. تبدو كأنها مرسومة.. كزوايا مثلث مرسوم داخل كتاب مدرسي.. تنظر إليها بإمعان، علها تتخلى عن تمسكها بالمقاطعة التامة.. فلا تظفر بشيء..

العين قد تكون جميلة.. استفادت من أرفع مواهب الطبيعة.. مارة منها بلحظة انتشاء ورغبة في الإبداع والخلق.. حيث كان لديها الوقت الكافي لتختار التصميم الطريق غير الشائع.. لكن جمالها قرر التبتل والتأمل الطويل الصامت.. قاطع التبرج وصرف كل المدعويين وإطفأ الأضواء.. فأصبح لا يتعامل إلا مع الأعماق.. ولا يدري أحد باية لغة.. العين مفتوحة على الخارج ولكنها لاتنظر إليه.. النظر إلى الخارج لا علاقة له بالانفتاح أو الانغلاق.. فمن العيون ما ينظر إلى الخارج حتى في حالة الانغلاق.. وكثيرا ما تكون النظرة أكثر دقة في هذه الحالة.. العين دائما مضربة عن التواصل.. تخاصم حتى الوجه الذي هي فيه.. فعندما يكون في مواجهة الباب، تكون هي في مواجهة النافذة.. لم يبق طريقهما واحدا.. هو مستعد للحوار والتفاهم.. اما هي فلا رغبة لها في ذلك.. ولحظة يكون هو حاضرا.. تكون هي غائبة.. وحين يستدفىء هو بالنار.. تكون هي جامدة في الزمهرير.. وقد تساقطت في باطنها الثلوج..

النظرة دائمة هادئة.. ذاهلة.. تقع خارج موجات الضوء.. خارج المنظور.. لاتختلج، لاتمل، لاتغيم، لاتتعب، لاترتد، لاتندم، واقعة خلف زجاج سميك.. يرى لشدة صفائه شفافا ، لدرجة أن الإحساس به أحيانا ينعدم.. ولكنه باستمرار موجود.. يجعل العين مرئية من الطرف المقابل.. لكن أمامها يتحول إلى جدار مصمت.. محض جدار.. القالب كان مرنا

يضيق ويتسع ويتمدد.. فأصيب بداء التصلب.. تذكر جيدا عيون الماء عندما تفتح الثلاجة فتجدها قد تحصنت وراء قشرة صلبة.. القالب لشدة تصلبه يخيل إليك انه يستشمر في الحال.. لأن مادته في أصلها مائعة.. لاتقوى على التماسك الصارم باستمرار.. لا يقوى الماء على التماسك طويلا متى تحول إلى ثلج.. العين المفرغة في قالب متصلب تبعث على الاشفاق.. لأن تصلبها قصير العمر.. كتصلب قشرة البيض.. حين تكون عرضة للمطب.. لاتفه الأسباب.. البيض قد يتجلد ويقاوم بعض الضغوط .. لكنه بعد حين تنشق عنه القشرة فيأخذ في السيلان .. كان محصنا خلف مادة قابلة للانكسار السريع...

النظرة لا تكف لحظة عن الاستغراق الكامل.. كأنها منتظرة مالا وجود له.. أو مالن يأتي أبدا.. ومع ذلك لاتكف عن الانتظار.. وكأنما استأذنها وذهب، على أن يعود بعد قليل.. تاركا اياها تتوقع مجيئه في أية لحظة.. هي تترقب.. تنصت بإمعان .. لو وجدت السبيل لاخرست كل أصوات العالم.. ليكون الهدوء شاملا.. انصاتها مردود إلى الداخل.. حيث توجد بئر عميقة ماؤها بعيد القرار.. وتتردد فيها أصداء مكتومة الأنين..

العين مفتوحة على سعتها.. أو مغلقة تماما.. وحتى حين تلتقي رموشها وتنطبق.. تبقى مفتوحة على الداخل.. الداخل هو ما يشغل بالها.. فحين كفت عن النظر إلى الخارج.. صار الداخل هو عالمها الوحيد..

نظرة ثانية :

مخطوفة اما نحو اليمين. وإنما نحو اليسار.. لو تجسمت لكانت سهما حاد الرأس.. مصرا على إصابة الهدف لحظة انطلاقه لدرجة الهوس.. فيها شيء من طبيعة سام (6).. تدور مع هدفها وحوله إلى أن تصطاده فتصيبه: لاطاقة لها بأن تعود خائبة.. هي لاتنطلق لتخيب.. الخيبة لاتدخل في حسابها.. قوتها كامنة في كونها دائما جانبية.. تضرب فيا الزوايا.. في الأركان.. يمينها ويسارها هما مركز الجاذبية بالنسبة إليها.. تذهب من هذا إلى ذاك كرقاص الساعة.. وكأنها تتردد بينهما معبأة بمفتاح .. إذا واجهتها لاتهتم بك.. تفقد كثيرا من قوتها.. نشاطها دائما في الاتجاهين الواقعين إلى جانبيها.. تبدو وكأنها خائفة مترددة.. وهي تنطلق نحو واحد منهما.. فيها مايشبه الذعر.. وكأنما تود لو قتلت من كان سبب ذعرها.. فهي عصبية قلقة.. تصيب بمثل وخز الإبر.. حقود أحيانا.. أرأيت إلى سهم قد يصيبه ارتعاش أثناء الانطلاق.. وكأن عنده شيئا ينازعه إلى الانحراف عن الهدف.. لكنه يمضي وهو أشد عزما على إصابة الهدف.. ؟كذلك هي.. برقية ليست عندها ثانية تضيعها.. وميض سريع الاضاءة.. سريع الانطفاء.. فما أن تحس بوهجه والتماعته حتى يكون قد أدى مهمته وانتهى الأمر.. المباغتة أسلوبه المفضل.. حين تنتظره وتتوقعه لا يعمل.. فلاش لا يحترق ولو عمل مئات المرات.. يشع بقوة مصباح كشاف.. اشعته وقحة تنطلق وكأنها صادرة عن مفاعل

خاص... يتوفر على طاقة هائلة.. مخيفة أحيانا.. أرأيت إلى عين قطة حاقدة.. حين يقع اعتداء على أولادها.. فتتلون بالشراسة والحدة والغضب بغير حدود..؟ كذلك هي.

وكثيرا ما تتجرد عن الحقد مع احتفاظها ببعض مظاهره.. لأن ذلك هو أسلوبها في النظر.. كالنحلة.. اما أن تلدغ.. واما ألا تلامس أي جسم حي.. أو كذنب العقرب.. طريقته في التعامل هي اللدغ.. سواء التقى بجناح عصفور.. أو بجلد أفعوان.. لو كانت مجرد حافذة لامكن ترضيها والتغلب على حقدها بالمعروف والود.. كما نتغلب على شراسة قطة متوحشة بالملاطفة والمداعبة.. لكنها أحيانا لا تكون كذلك.. فيبقى الأسلوب الطبيعي في النظر.. وهو ما لا يمكن تغييره.. الحقد لا يستمر إلا ريثما يزول أو يخف.. مثله مثل المودة.. لا تحتفظ بمنفوانها إلا ريثما تبدأ في التراجع.. الحاقد والمحب كل منهما محكوم عليه بالتغير.. لا يقوى على الاستمرار دائما إلا مع ضرب من الشذوذ.. وهما يتبادلان المواقع أحيانا بالرغم مما بينهما من تناقض.. بل بسبب ما بينهما من تناقض.. الحاقد يتوفر على برعم المودة.. مودته تنبثق من صميم حقده.. انبثاق أشعة المصباح الجميل من كهرباء صاعقة.. وكثيرا ما يكون الحقد هو الوجه الآخر للمودة.. كما للمرآة وجهان ، وجه مشرق وآخر كئيب.. لكن المشكل العويص هو أن تكون القضية قضية أسلوب.. كأسلوب الكلب في النباح.. وأسلوب البعوض في الدعابة.. وأسلوب الصقور في جولتها

حول بغاث الطير.. إن تلك النظرة باقية كما هي.. ولو رشوتها بحب.. وواصلتها بلطف.. واحطتها بعطف.. لاتتغير إلا إذا تغير تجويفها وتجهيزها الداخلي.. وكذا أسلاكها الضوئية وتصميمها الهندسي..

العين صاحبة هذه النظرة تلتقي بها دائما.. لاتدري من أين تنجم لك.. وتفجأك.. أحيانا في عرض الشارع.. أحيانا في منعطف.. أحيانا في مصعد.. أو في اجتماع عام.. فما تكاد تنتبه إلا وذلك البرق يومض وينطفىء في الحين.. وقد لاتصادفه إلا بعد مدة طويلة.. أو هو الذي يصادفك على الأصح.. لا يمكنك أن تترصد له لتضبطه.. كما يضبط اللص أحيانا لدى ارتكابه للسرقة.. لأنه من الذكاء والقدرة على المراوغة بحيث يبقى حرا طليقا متمكنا من اتخاذ موقف المبادرة.. هكذا هو يعمل دائما.. يخيل إليك أنه يهوى اللعب ويتمشق المراوغة.. أتكون طريقته في التعامل مخالفة للطبيعة..؟ يبدو ذلك صحيحا.. فالطبيعة جعلت العيون في مقدم الرأس.. ولم تجعلها على جانبي الوجه.. لكنها أعطت العيون كثيرا من المرونة للتحرك في جميع الاتجاهات تقريبا.. حين يكون الرأس في وضع ثابت.. وحتى يكون لكل حركة معنى.. ولم يرزق الإنسان عينين ليرى فقط.. فهناك ما فوق الرؤية وما تحتها وما ينبث في جوانبها.. النظرة كالكلمة. لها أصل عام في المدلول اللغوي.. ولها ظلال وإيحاءات فرعية..

بعض الناس عندما يلمحون هذه النظرة يشمئزون.. وقد يكورون قبضات ايديهم.. أو يضغطون على أضراسهم.. أو يلعنون بين شفاههم.. أو على الأقل يحسون بشيء من تضايق.. وقد يوجد من بينهم من يبدي استعداده للعراك بشكل ظاهر.. لأنهم يعتبرونها ضربا من الاستفزاز.. غير مقتنعين بأن هذه النظرة كثيرا ماتكون تلقائية.. مجرد أسلوب.. نراها في عيون الخيول.. وعيون الارانب.. وعيون القطط.. وعيون مخلوقات أخرى.. حق انها نظرة مزعجة.. مثيرة غالبا.. دالة على سوء القصد أحيانا.. خالقة لجو من التوتر والاصطدام المحتمل.. وقد تدل على رغبة في القرار من المواجهة.. وفي بعض الحالات تعطي معنى زائدا على معناها البسيط.. لحظة تجردها من سوء القصد.. وهي في جميع الأطوار لاتبعاً بأي انتقاد أو توبيخ.. دائما هي مخطوفة نحو اليمين أو نحو اليسار.. لاتريد رؤية الهدف.. بقدر ماتريد الامساك به.. ورميه بعدة طعنات متلاحقة بسرعة خارقة.. أو بطعنة واحدة ولكنها عميقة..

وجل النظرات الجانبية حادة.. لأنها مأخوذة من الزاوية.. آتية من غير الاتجاه الطبيعي.. ولذلك فهي شائكة.. مدببة الطرف.. يشعر بها المنظور إليه كما لو كانت سكينا مصوبة بأحكام لتنغرس في العمق.. وترتد في الحين من حيث أتت.. وكأنها مشدودة بحبل مطاط.. يتمدد ليعود بكل قوته إلى وضعه الأول.. بعد أن تكون السكين قد أنجزت مهمتها واختفت.. تاركة ضحيتها للوجع والنزيف..

النظرة المتجهة إلى امام.. المفتوحة على سمتها.. لا تقسو قسوة النظرة الجانبية.. الضوء المضغوط المضطر إلى الانحراف لا بد أن يكون حادا أكثر من الضوء المنتشر هنا وهناك.. وبحرية مطلقة.. الماء المتدفق الممنوع من الاتجاه الطبيعي لابد أن يتوتر.. ويسرع أكثر.. إلى درجة الازعاج أحيانا.. الصفير بالشفتين المنطلق من زاويتي الفم اشدة حدة من الصفير الصادر عن المتلقى الأوسط لهما.. المنعرجات التي تكتنف جانبي طريق سيارة مسرعة أشد خطرا من الطريق الممتد إلى أمام.. انها نفس حدة الزوايا تلقاها هنا وهناك.. المطر المنهمر يصير أشد عنفا إذا اضطرته الريح إلى الانحراف.. تاركا في حالة اضطرارية خطه المستقيم.. الريح نفسها إذا عرجت على منفذ جانبي صارت أشد شراسة وعنفا..

هنا الضرب من النظر دائما سريع مستعجل.. لا وقت لديه للتسكع.. لأنه غير مرتاح.. بل هو متعب.. شاعر بالانحراف.. تواق إلى العودة نحو الوضع الطبيعي.. لكنه لا يستطيع.. لاتوجد النظرة الجانبية الكسول.. المرخاة العنان.. هي دائما متوترة، قلقة، منخطفة.. لها ما يقابل ارتطام الحجر.. وطلقة الرصاصة.. ونفوذ السهم.. واصرار أشعة الشمس.. كثيرا مايكون الطريق الممتد طويلا باعثا على الملل.. على حين أن الانحرافات الجانبية تبعث النشاط والقدرة على مواصلة السير الحثيث..

استرجاع النظرة الجانبية الحادة فور إرسالها ربما كان أكثر إيجاعا.. كسل سكين اثر غرسها في جسد. كاخراج نبل من جرح عميق..

المودة مثقلة بالتوتر والحدة أكثر من الانطلاق.. المنظور إليه لا يجد الوقت الكافي للهروب في اللحظة التالية للانطلاق.. لا يتمكن من تحويل نظره قبل العودة الموجعة.. الحركة من السرعة والغيظ بحيث تفوت عليه كل امكان للافلات من الموقف الدقيق.. السهم الموجه مشدود إلى نقطة الانطلاق.. يضرب في الصميم ليعود في ذات اللحظة.. العملية تتم بسرعة الضوء ـ لا بلاغة هنا ـ لدرجة أن المسافة تصبح ملغاة تماما.. ونظرا لسرعتها الخاطفة. فإنها تبقى سليمة من الانفعال برد فعل الطرف الآخر.. بينما هناك نظرات أخرى تنطلق حاملة معنى.. لتعود حاملة لمعنى آخر.. كان يكون فيها معنى الفضول.. فتعود بمعنى الخجل.. أو يكون فيها معنى التأنيب.. فتعود بمعنى التأييد.. اما تلك. فلا تتمكن ـ نظرا لسرعتها المجنونة ـ من تغيير دلالتها.. لأن التغيير يتطلب قدرا من التباطؤ..

نظرة ثالثة :

هي نصف نظرة دائما.. لاتكون قط نظرة كاملة.. مشروع لا يعرف التمام.. هكذا هي. خذها أو اتركها.. فهي لاتلزمك بشيء .. لاترتبط بك إلا بخيط نحيل سريع العطب.. يمسك وينسحب.. لا يلتف ولو لفة واحدة حول أصبعك.. لا يستدير حول عينيك إلا ليسحب نفسه برشاقة متناهية.. لاطاقة لها بالمواجهة الكاملة.. أو بالتركيز التام.. أو الناقص..

لاتقوى على التركيز ولو بلغ الحد الأدنى.. هي دائما منفلتة.. فراشة دائمة التحويم.. لاتنام على خدود الورد.. تلمسها فقط.. تقبلها قبلة خاطفة وترتفع .. الخيط النحيل يبقى دائما نحيلا.. هزيلا.. لا ينضم إلى خيوط أخرى ليصير متينا يمكن لمسه بإلحاح.. والاعتماد على عدم قابليته للانقطاع.. لا يود أن يصبح معبرا ثابتا.. ولا خيط توصيل يمشي في خط مستقيم.. لاقبل له بأن يكون صلة راسخة.. أحيانا تود الامساك به بناظريك.. فتقيم من حوله الحواجز.. تروم محاصرته ووضعه في مجالك الخاص.. بيد أن النظرة الكامنة وراءه تروغك وتنفلت.. وما تنفك صاعدة هابطة. تمارس امامك لعبتها المفضلة.. وبين حين وآخر تنفتح على عينيك نصفانفتاحة كبارقة الامل.. متحولة في الحين عن مدار عينيك المصوبتين.. هي دائما مجرد أمنية.. تعد بالتحقيق ولا تتحقق.. تدعك تنتظر.

ولا توافي.. لا تونسك ولا تصلك.. هكذا هي دائما.. تهوى الحرية.. وتكلف بالبقاء خارج المربعات والدوائر.. بعيدا عن القوالب والصلات المحددة.. التحديد يضايقها.. يخلق لها عددا من المتاعب.. يرغمها على أن تحط على الأشياء والأشخاص في بلاهة.. أو هكذا يخيل إليها.. تلتقي ببعض العيون المعجبة.. فتتمب هذه في إعادتها من شرودها.. والحد من رغبتها في الابتعاد عن الموجهة.. لكن بدون طائل.. دائما هي هاربة منسحبة.. كأن بها حياء وما هو بالحياء.. كأن فيها ترفعا وما هو

بالترفع.. تأبى أشعتها التجمع في اتجاه واحد.. تفضل الاشعاع الشامل لأوسع نطاق ممكن.. العيون التي تلامسها برهة خاطفة تتعذب.. تختار.. تود لحظة دافئة.. عميقة.. تتخمر فيها المعاني.. تتلون الا يحاءات.. تتناسل الصور.. يتضح المحور ممتازا من الهامش.. يولد الخاطر ويتحول إلى أسطورة في لحظة وجيزة.. تزول الحواجز.. يبين الشك من اليقين.. تجد بعض العواطف وسيلة للتعبير مفقودة في الكلمات.. لكن يعييها الانتظار دون جدوى.. النظرة الهاربة مصباح في مهب العاصفة.. ما يكف عن الرقص.. ومن حوله تتراقص الظلال وبقع الضوء.. لها حساسية مرهفة تجاه العيون المتوددة إليها من طرف خفي أو ظاهر.. العيون المعجبة لاتفاجئها بشيء.. بلمحة خاطفة تحيط بالمعنى الوليد.. والخاطرة العارضة.. والبرعم الواعد بالتفتح.. لا يفوتها حتى الوسواس المستحيي.. والانطباع المقنع.. والتعاطف المكتوم.. والا يماءة الممنوعة من التعبير المباشر.. بيد أنها ازاء العيون غير المهتمة ذات موقف آخر.. ها هنا قد تهدأ وتستقر.. وتكف لحظة عنْ التحليق والتحويم.. حتى إذا تلقت بعد قليل برقية مستعجلة من عينين مبهورتين.. فرت من الواقع إلى المحتمل.. ومن الحاضر إلى المستقبل.. ومن الجملة الموشكة أن تتم.. إلى الشعر المنثور على أجنحة الفراشات.. وتجري تانك العينان وراء هذا الشعر.. تود الامساك به وإعادته إلى نظام البيت.. ولكن دون طائل..

بيد أننا نشكو من أمر لو افتقدناه لمنينا بخسارة كبيرة.. لنفرض أن

هذه النظرة صارت أليفة.. مواتية.. واقفة امام عدسات عيوننا بهدوء شبه كامل.. تسمح لنا بأن نقول لها باحداقنا أشياء كثيرة.. وبأن نقرأ فيها بإمعان.. فماذا يبقى منها حينئذ..؟ أين متعة الجري وراء الفراش المذعور..؟ أين ألوان الشفق الهاربة..؟ أين الحيرة الجميلة المثيرة للوساوس والظنون..؟ قد نستطيع لحظتئذ أن نجد لدى النظرة الهادئة المستسلمة جوابا على كل سؤال.. وأن نستعيد الجواب نفسه عدة مرات.. متلقين تأكيدات مطمئنة.. آخذين المعنى الواحد معادا تقديمه في صور بيانية متنوعة.. قارئين حتى ما بين النظرة والنظرة.. نفك الرموز متباطئين.. ان كانت هناك رموز تتطلب الفك.. لأن لدينا الوقت الكافي لذلك.. لكن العين تتحول حينئذ إلى تجويف بدون معنى.. كقصيدة استخلصنا لبابها واعتصرنا مضامينها حتى صارت بين أصابعنا مجرد هيكل أليس من الجميل أن تبقى تلك النظرة كما هي.. في زمن تعودت فيه العيون على التحديق الطويل..؟ ألا نشعر بحاجة أحيانا إلى أن نقف بين الضياء والتعتيم..؟ وأن نتردد بين الشك واليقين.. ونضيع بين القلق والطمأنينة.. بين الأشياء التي أتت.. والأشياء المنتظر أن تأتي.. ؟ فكل ما أتى انتهينا منه.. دخل في حوزتنا.. انضم إلى ملف الذكريات.. ويبقى الأمل معلقا على الآتي.. على الممتنع.. ولولا هذا الامل لانطفأ الوهج في أحداقنا.. وخمدت النار بين أضلعنا.. وتبخرت الأطياف فى مخيلتنا. رائع جدا أن تبقى تلك النظرة كما هي.. نصف

مفتوحة.. لاتعد بشيء مؤكد.. مجرد خيط رفيع.. قابل للإنقطاع في اية لحظة .. مجرد مستقبل.. لا يكاد الحاضر يمسك بها حتى تنسل من بين أصابعه.. تاركة اياه للذهول.. مجرد شيء عابر.. لا يقف لالتقاط الأنفاس.. لا يتخذ له حيزا.. أو إطارا.. أو جهة معينة.. لا يمكنك وضعه بإحكام تحت أي اسم أو صفة.. القاموس لاعلم له به.. القاموس يسمي الأشياء الثابتة.. المعروفة الهوية.. المحددة الطبائع.. اما عندما يتعلق الأمر ببعض الأشياء التي تراجع نفسها في كل لحظة.. كموجات الهواء.. فالقاموس يتحول إلى صنم للبلاهة..

هي في كل لحظة وفي كل رمشة عين ترميك في متاهة جديدة.. من حيرة التساؤل.. إلى غرابة التعجب.. إلى دوامة انعدام الوزن.. إلى الصمت المطلق السابق على مولد الأشياء.. إلى مواجهة معان لا أسماء لها.. إلى التحليق في أجواء لا أرضية لها.. إلى الانتشاء من غير سبب محدد... كحالة نفسية خاصة غير قابلة للتحليل.. إلى قابلية عجيبة لمعانقة كل ذرة في هذا الكون.. إلى استعداد للجري في الشوارع.. والعبث بالمارة.. بخفة طفل تملكته الرغبة في اللعب بأي شيء.. النظرة توحي بهذه الحالات دون أن تشارك فيها.. ككلمة مرحة تصدر عن فم رزين.. لتدفع بموجات الضحك في صدور الآخرين.. كهمسة أصبع.. تبدع الروائع.. ولا تعلم أنها طرف مباشر.. وتوجد في هذه الدنيا أشياء عديدة موقوفة على الاثارة.. دون أن تأخذ نصيبها من النتائج.. النتائج يتحملها

الطرف الآخر وحده.. كأنه المسؤول الأول عن وقوعها.. مر به سهم طائش ففاز له ومضى.. تاركا اياه ينزف وحده.. وما ذنب منقار العصفور إذا نقر برتقالة وتركها للسيلان..؟ وما ذنب ألوان الشفق إذا ذكرت عاشقا بالحبيب الهاجر..؟ وما جريرة بعض العيون إذا هي راقت وأعجبت واذهلت واتحفت بمجرد تقلبها ذات اليمين أو ذات الشمال..؟

جمال هذه النظرة في طبعها غير المستقر.. في رغبتها عن الرؤية المحددة.. فينبغي تركها مرتاحة لوضعها الطبيعي.. وليس من الضروري أن نمتلك بعض الأشياء أو نضبطها لتهبنا المتعة.. بالنسبة إليها لاتكون ممتعة إلا في حالة بقائها طليقة من القيود.. تأخذ دائما زمام المبادرة.. تمنح بقدر ما تستطيع.. وبالأسلوب الذي تختار.. لا أحد يوقت لها زمن الانفتاح أو الانغلاق.. أو يحدد لها الاتجاه.. أو يديرها إليه.. لتقع في مواجهته..

نظرة رابعة :

تتمسح بما تقع عليه.. تتمدد فوقه مندغمة فيه متشبثة به.. كبعض ديدان الأودية ذات الاستعداد للالتصاق بجسم الإنسان.. متى امسكت به لاتطلقه إلا إذا انتزعت انتزاعا.. تحس لزوجة هذه النظرة على وجهك وهي تنسحب على ملامحك متباطئة فلا تصل إلى حدودها إلا مكرهة.. تسقط على الوجوه مرتطمة بها.. ولا تقوم من سقتطها إلا بعد لأي.. تحسبها جثة فاقدة الحركة.. أو كأنها تنوي الإقامة بالوجوه زمنا طويلا..

تبذل جهدا للتوغل في المحجرين... وتندس في المنخرين.. وتتعمق تحت الجلد.. كي تصل إلى الغرف الداخلية.. إذا التقطت العيون تحولت الرموش المؤطرة لها إلى أرجل عديدة لحشرة تبحث عن مأوى باستمرار.. كلما وجدت مأوى أضاعته وأخذت في البحث عن مأوى جديد.. عمدتها ارجلها الزاحفة تلك.. ترشقها في الهدف.. تعانقه بها عناقا كريها لا أسمج ولا أثقل.. امساك الناس من عيونهم هو شغفها اليومي.. كما يمسك جهاز الراديو من مفاتيحه.. قصد السيطرة على ما يصدر عنه من أصوات وأنغام.. أو كما يمسك مفتاح الإنارة لإضاءة المصباح.. تحاول تلك العيون الانكسار تمهيدا للتخلص.. إلا أن النظرة الملحاح تكون قد أعدت وسائلها لإحكام الحصار.. فأي شعاع شارد من تلك العيون تستطيع إلقاء القبض عليه.. متشبثة به.. ممتدة في ذات الوقت نحو الأشعة الأخرى.. تؤلفها.. وتغزلها في شكل خيط غليظ مفتول حول نفسه بدقة.. لا يعجزها ضم الخيوط بعضها إلى بعض.. خيطا بعد خيط.. حتى ولو كانت بعض الخيوط بالغة الرهافة والرقة.. تتكسر لدى اية حركة.. ولا تقوى على الامتداد إلى مسافة طويلة.. فهي تتمكن من التقاطها من بعض أطرافها المشجعة على العمل.. حتى لتتناول بعضها من زجاجة كأس.. وبعضها من خيال مرآة.. وبعضها من أرجل مائدة.. وبعضها من علبة سجائر.. وكلما حاول خيط منها الافلات دارت من حوله دورة خاطفة.. فأعادته إلى خط الإتجاه..

هي نظرة غازلة.. مجتهدة.. كادحة.. تحول الخيوط المبعثرة إلى نسيج.. نسيجها المفضل لا يكون دائما جاهزا.. فيكون عليها أن تجمع خيوطه وتقوم بنسجه.. وعلى مهارتها تتوقف متانة المنسوج وصموده للاستعمال.. وأحيانا يكون امامها عمل أشق.. وذلك عند كثرة الخيوط وتنوعها واحتلالها لمسافة واسعة.. حيث يكون عليها أن تعمل في أكثر من اتجاه واحد.. فتراها تحاول مع مجموعة من الخيوط.. فإذا أتعبتها. تحولت عنها إلى أخرى لتبدأ المحاولة من جديد.. أحيانا يمكنها تكوين وحدات متنوعة .. يمكن مقارنة بعضها ببعض.. لاختيار الأجود والأمتن.. وقد تكون المقارنة مخيبة للأمل.. متى تساوت جميعها في الهلهلة والقابلية السريعةللانقطاع.. وقد يحصل لها شيء من ارتباك.. كما في حالة ما إذا تداخلت خيوط مختلفة المصادر.. فهذا خيط آت.. وذاك خيط ذاهب.. وهذه خيوط تشابهت ألوانها ووجهاتها.. كلعبة الأشعة إذ تمارسها المصابيح المتقابلة في حفل كبير.. لكن طبيعة التسلق فيها غالبا ما تخرجها من الورطة.. بالرغم من أن تسلق خيوط الأشعة لا يخلو من متاعب.. وبعد نجاحها ووصولها إلى قمة الفوز.. تواجه متاعب جديدة.. ذلك لأن قمتها خطرة.. منذرة بسوء المنقلب.. فدونها المنحدر.. أي التردي والسقوط.. لكن صبر هذه النظرة يدعو الى الدهشة.. لو كانت بينها وبين العيون شعرة ماانقطعت.. وإذا لم تكن هناك شعرة فلا بد من خلقها..ولو من لاشيء..نفس عمليةدودة القز..مع وجود الفارق طبعا..محتمل

ضياع العديد من الشعرات.. يكفي الامساك بواحدة .. فلا بد أن يأتي بعد ذلك دور الاخريات.. لا داعي للقلق.. والشعرات كثيرات غزيرات.. بعضها نما واستطال.. حتى أصبح قادرا على الالتفاف حول نفسه والأشياء عدة مرات.. وبعضها ما زال قصيرا يحتاج إلى بعض الوقت..

نفس النظرة دائما تلقاها كبعض الملصقات الحائطية.. كإعلان عن عرض يستمر عدة أسابيع.. تغتسل الملصقات بأنداء الليل.. وتتجفف تحت أشعة الشمس.. وتميع ألوانها منسكبا بعضها في بعض.. وينتر الأولاد أطرافها.. في ذهابهم والإياب.. وهي مصرة على الإمساك بالحائط.. لاتتركه إلا نتفا وشظايا.. وتنتهي إحدى حفلات العرض بالنجاح أو الفشل.. والملصق الحائطي متمسك بالحائط.. في حالة النجاح تبدو كلماته زاهية كبيرة.. وفي حالة الفشل تبدو قاتمة كسيرة.. أحيانا تتفتت قشرة الحائط من خلف الملصق.. فيضطر إلى التزايل.. وأحيانا تبقى أطراف منه متشبثة به.. تبصق عليها كل لحظة أفواج من الحشرات الضالة.. إلى أن تصير قذرة تعافها العيون السليمة..

السفن المربوطة إلى العروة البلهاء المركوزة في رصيف الميناء تمل مربطها وتحن إلى الرحيل.. العروة ممسكة بالحبال في شراهة وعناد.. لو استمر الحبل مشدودا إليها لشرع في التآكل.. يأكل من نفسه ليتحرر.. كما يقطع السجين أصبعه متى صلح مفتاحا للقفل.. وكما تحز امرأة شعرها متى تحول إلى حبل يخنقها ويمنعها من الحركة.. الأشجار تسقط

أوراقها.. التعا بين تغير جلودها.. الأرض تخلع ثو با وترتدي آخر.. الرؤوس قد تطرح شعورها لتواجه الشمس والعواصف دون وقا ية.. بدون مظلة.. المعاني تسأم من أسمائها.. القصائد تضيق بقوافيها.. الطيور تنقض أعشاشها قصد إقامة أعشاش جد يدة.. والنظرة هي هي.. نفس الزاو ية ونفس البلاهة ونفس السعة والتجو يف.. يمكنك نقلها إلى ورق.. دون أن يزعجك شيء.. ا يت بادوات الرسم.. وتبت الرافعة الخشبية.. وخذلك كأسا أو كؤوسا من القهوة أو الشاي.. ودخن مجموعة من السجائر.. ولا تخف أن تمل تلك النظرة من وضعها المعهود.. انها تملك من سعة الوقت وطول النفس ما يمكنها من أن تظل ساعات واقفة امام رسام كسلت في يده الفرشاة.. وتثاقلت دراعه في العمل.. وتسكعت نظراته حول النموذج..

هذه النظرة تتعاقب عليها الفصول.. لا الشتاء يجعلها تنكمش من لسعة البرد.. ولا الصيف يعلمها كيف تضيق بمعترك النظر المزدحم.. ولا الربيع يوحي إليها بأن تتحول إلى الطبيعة .. ترقب الطيور تصفق بأجنحتها في الجو.. تلتقط الدنانير الذهبية المتساقطة تحت أغصان الشجر.. تطير وراء المباهج الحائرة بين الأرض والسماء.. ولا الخريف يصيبها بنوع من الانقباض.. ويدعوها إلى البحث عن وسيلة لكسر الروتين.. دائما نفس اللزوجة.. ولم الخيوط المبعثرة.. وجمعها من مختلف الأركان والزوا يا.. مع الركض وراءها متى حاولت الهرب.. لقد ضيقت على نفسها في مجال الرؤية.. واقامت الدليل علىأنها يعوزها الذكاء.. قد

تكون ذات وسامة وقسامة.. لكن شيات الجمال بدون ذكاء تتسم بثقل الدم.. وتبعث على الامتعاض..

نظرة خامسة :

لا تكاد الطفولة تفارقها.. طابعها السذاجة والدهشة والانبهار.. هي ليست طفلة.. تجاوزت سن الطفولة منذ زمن.. وتعلمت أن تكون واعية.. وعاقلة.. لكنها عادت فتمردت على أصول التربية.. وتناست كل الدروس.. مرتدة إلى خصائص الطفولة.. بين حين وآخر تتذكر ما أوصيت به مرارا.. فتنطبع بالجدية ومحاولة التعمق في الأشياء.. لكنها بعد حين تعود إلى طفولتها المحببة.. يدهشك انها تصدر عن اطار وقور أحيانا.. يخيل إليك أن يدا سحرية امتدت إليه.. فنزعت عين الشخص الرصين..التي كانت تتوسطه.. لتضع موضعها عين طفل يوحي مظهرها بالرغبة العارمة في العبث.. فبدا الإطار الوقور مضحكا وقد أحاط بعين تشخص روح الطفولة وجنوحها إلى المرح.. الوجه كله ناضج.. برزت كل معطياته.. وجميع مؤهلاته الطبيعية.. لكن العين ترسل نظرة غير منسجمة مع الملامح العامة.. كنكتة مضحكة وسط بحث علمي صارم.. أو كمزحة داخل منظومة فقهية.. أو كأرض صخرية جهمة اتخذ منها الماء ملعبه المفضل.. يخرج من بين الصخور وقد تملكه العبث والجري...
ورشاشه يتطاير حول الحجارة الغليظة.. رجال وقورون ابتلوا بطفل نزق يصيبهم من نزقه اذى كثير.. الطفولة تختار العينين مجالا لظهورها لأنهما

تلقائيتان.. قل أن تغلبا على مشاعرهما الحقيقية.. وليست عليهما القيود الصارمة التي على اللسان.. اما الملامح الأخرى فليست لها وسائل تعبيرية واضحة.. وهي غالبا ما تبقى غفلا من أي تعبير أحيانا يخيل إلينا أن مصادر الضحك والابتسام ليست واحدة في وجوه الناس.. أو هذا هو الأمر الواقع فعلا.. إذ نرى أحيانا عينين ضاحكتين أو باسمتين في وجه لا يشارك في هذه العملية.. بل يتفرج عليها في حياد ظاهر.. ربما كان لا يتناقض معها.. ولكنه لا يشارك فيها بطريقة مباشرة..

العين التي نحن بصدد الحديث عن نظرتها لا تبرز.. طفولتها في الضحك أو الابتسام فقط.. الطفولة والضحك ليسا متلازمين.. وما كل ضحك أو ابتسام من علامات الطفولة.. أحيانا تكون نظرتها واجمة مشدوهة.. ولا داعي لذلك فيما يبدو.. انها مجرد حالة خاصة.. ربما كانت غير قابلة للتفسير.. أو أن تفسيرها في مظهرها العفوي غير الخاضع لاية نية مسبقة.. العينان مفتوحتان على سعتهما.. تنغلقان وتنفتحان بين لحظة وأخرى.. لا تريد أن شيئا ولا تعبران عن شيء.. وليس لديهما أي معنى يمكن التعبير عنه.. فقط تنظران في ذهول شبه كامل.. وكأنهما كانتا هكذا منذ بدإ الخليقة.. تبحلقان كما لو كانت هذه الدنيا قد فرغت من الهموم والمشاكل.. ولم يبق فيها ما يستحق التفكير أو يدعو إليه.. أرأيت إلى ميناء الساعة كيف يدور فيه العقربان لضبط الوقت وهو في غفلة مطلقة عما يجري داخله..؟ كذلك الواحدة من هاتين العينين.. تعكس

الضوء.. تؤدي مهمة الإبصار.. تضبط الرؤية.. لكنها في حالة سلبية شبه تامة.. تأتيك منها موجات النظر حالمة شاردة.. لاتلقي سؤالا.. ولا تنتظر ايضاحا.. ولا تروم أمرا محددا.. انها مجرد ظاهرة لاعلم لها بنفسها.. كالهدوء التام في عيني بومة.. والغبطة المسترخية في عيني بقرة منبطحة بعد شبع وري..

يعطفك على هذه النظرة براءتها وغفلتها عما يجري قريبا منها من شرور وآثام.. وسموها غير المقصود فوق سلاح المراوغة والمخالسة واستخدام كل مواهب النظر في قراءة ما طويت عليه النفوس وانضمت الضمائر.. كما تاخذك الرأفة بخروف حالم النظرات.. يرسلها من خلال عينين تأخذهما اغفاءة بين حين وحين والحال انه يوجد بالقرب منه جزار يشحذ سكينه لأمر شنيع.. لا قبل لهذه النظرة بأن تتظاهر بعدم الفهم ان ادركت.. لاتستطيع كتمان أي أمر.. ليس لها ظاهر وباطن.. لها ظاهر فقط.. لا تتحدث لغة رمزية.. لاخبرة لها بلغة الرموز.. لغتها سهلة.. وفي منتهى الوضوح.. كل كلمة من كلماتها لا تحمل إلا معنى بسيطا واحدا.. فإذا أضيف إليها معنى آخر فمن اختراع الغير.. لامن دلالتها هي.. تقول كل ماعندها دفعة واحدة.. لتتفرغ للذهول الكامل.. لاتحسن الاحتفاظ باحتياطي من المعاني للحظة مناسبة.. كما لاتجيد تقسيم لغتها إلى قسمين : قسم تعبيري.. وقسم إيحائي.. ومجال تحركها إلى صنفين : دائرة الضوء.. وزاوية التعتيم.. ومعانيها إلى ضربين : ضرب قاطع صارم..

وضرب يفتح باب الظنون والتخمينات على مصراعيه.. قصد الاحتفاظ بقدر من الحرية في التراجع.. وقصد اخفاء بعض الأوراق لطرحها عند اللزوم.. نظرة طيبة ولا شك.. لكن ينقصها الحذق..

الإرادة المتحكمة في اللسان تلجمه عندما تشاء.. اللسان موضوع خلف صفين محكمين من الأسنان المتقنة الإغلاق.. ودونهما شفتان تنضمان وتلتصقان حتى لا ينفذ منهما الهواء.. وهو يتوارى خلف هذه الحواجز.. كمعتقل موضوع تحت الإقامة الإجبارية..

أما العينان فلهما شأن آخر.. مكشوفتان مفتوحتان على الشمس والأمطار والهواء.. تتراوحان بين الانفتاح والانغلاق عشران المرات في الدقيقة الواحدة.. والمشاعر تنعكس عليهما مباشرة.. حتى لتصدقا أحيانا ما يكذبه اللسان أو العكس.. أو تتوليا التعبير لحظة يؤثر هو الصمت الكامل.. يمكن التحكم فيهما أحيانا.. ولكن ذلك يحتاج إلى قدر كبير من الذكاء ومن الاستعداد للتمثيل.. ولم تكتب المواهب التمثيلية لجميع الناس.. ومن المعلوم ان من لا يملك موهبة التمثيل على الغير. كثيرا ما يملك أن يمثل على نفسه.. وذلك بمغالطتها في الحقائق والكذب عليها واستغفالها بين حين وآخر..

وهي ليست معك ولا ضدك.. ليس لها يمين ولا يسار.. ولا يعرف لها وسط لها فيه موقف.. لا تدري من أين تمسك بها.. فليس لها طرف يمكن امساكها منه.. لا يمكنك قبولها أو رفضها.. فهي لا تطرح ما

يحتمل القبول أو الرفض.. ليست طرفا مقابلا في أرض مشتركة.. لا تلتقط أي خيط يلقى إليها به.. كل الخيوط الملقى بها إليها تسقط على الأرض.. أو تنسحب مرتدة نحو الأكرة التي انسلت منها.. كل العناوين تضيعها.. كل الأرقام تنساها في الحين.. ضعيفة الذاكرة إلى حد رهيب.. لو أشركتها في أمر بسيط لأوقعتك في ورطة.. لو اعتمدت عليها في إيصال برقية مستعجلة لوصلت البرقية إلى حدودها وما عت كل كلماتها.. لاتشعرك بدفء.. ولا تشجعك إذا احتجت إلى تشجيع.. ولا تنذرك بالخطر لدى احتمال وقوعه.. فقط تتجه إليك.. لا إليك أنت بالذات.. كن أنت أو ليكن غيرك.. هي هكذا دائما.. ثابتة امام أشخاص متغيرين.. تتمنى أحيانا أن تتخذ منك موقفا.. ولو كان معارضا.. فلا تفعل.. يمكنك أن تسافر إلى أقصى بقاع الأرض.. أو أن تقوم برحلة طويلة حول المجموعة الشمسية.. فإذا عدت وجدتها كما هي.. نفس الطفولة والبراءة والراحة التامة من قسوة بعض المعاني وعمق أخرى..

أتسرق الإنسان عيناه..؟ نعم. فكثيرا ما يسقط الإنسان في قبضة نظراته.. حيث تمتصه وتستغرقه وتستهلكه.. بعض الناس يؤخذ من دماغه.. وبعضهم من أذنيه.. وبعضهم من أنفه.. وبعضهم من قلبه.. وبعضهم من معدته.. بينما صنف منهم يؤخذ من نظراته.. والاخذ أنواع.. وأساليبه كثيرة.. يعنينا منها هنا أسلوب واحد.. هو أخذ بلا عطاء.. استلاب دون طرح البديل.. ميزان إحدى كفتيه معطوبة.. لاترتفع ولا تنخفض..

نظرة سادسة :

غزلة. باسمة. لعوب. متعالية في ذات الوقت.. تأتي دائما من فوق.. أميرة في جميع الأحوال.. لاتصعد من حضيض الأرض.. وانما تهبط من شموخ السماء.. اشراقة نجم. نسمة هواء. ندى فجر.. غزلها ليس توددا.. ولا فتحا لطريق التعارف.. ولا دعوة لتبادل البرقيات.. غزلها طبع وقابلية فقط.. كاحمرار أوراق الورد.. وشفوف غرة الصباح.. وشاعرية لحظة الغروب... مجرد طريقة في الانطباع.. وانعكس هذا الانطباع اشعاعا جميلا محببا لطيف الاثر.. في شكل نظرة رفيقة ترقرقت فيها المعاني واحتارت الاطياف وضحكت الخواطر.. كلما لمحتها خيل إليك انها خارجة لتوها من جونكتة بارعة.. أو مسحورة بنبإ سار.. أو ملتقطة لأمل عذب.. أو مبتهجة بمقدم سعيد.. أو مقبلة على موعد جميل.. أو مهتزة لمفاجأة رائعة.. أو عاثرة على سر بهيج.. أو منتشية بثروة طارئة.. قد تتخللها سحابة عابرة.. ما تلبث أن تتزايل بعد حين.. ليعود الصفاء والاشراق والغزل.. وغالبا ما يكون غزلها وحيد الجانب.. ليس له طرف مقابل.. مجرد مبادرة فردية غير مشروطة.. وظيفة طبيعية تؤدي بقطع النظر عما قد يكون لها من صدى.. كحالة الاستئناس بالحب.. حين لا يكون هناك حبيب.. أو حالة الانبهار بطيف مدينة بعيدة.. ولا إقدام على أخذ تذكرة السفر.. أو حالة الاعجاب بألوان السمك وهو يسبح في ماء هاديء.. دون اية رغبة في إحضار أدوات الصيد .. ولكن الوتر

المرهف يرتعش بالنغم لاضعف نقرة.. والحس الرقيق يهتاج لأبسط لمحة.. والقلب العليل يتعرض للعطب لأرق اختلاجة..

وهكذا يظن بعض المهووسين بألوان الشفق أن تلك النظرة تفرش طريقهم بالورد.. وتعد لهم هيئة استقبال.. وتدعوهم إلى التشريف.. فتراهم يهرعون إليها كما يهرع أطفال العالم الثالث. نحو سائحة أوروبية بادية الثراء.. ولو تعقلوا لاكتفوا بالتقاط ما يتساقط من أشعة ملونة.. ومضوا لشأنهم.. فربما لاتعطي تلك النظرة أجمل ما عندها إلا إذا تركت لطبيعتها.. دون أن يضرب من حولها الحصار.. فتكون شهيتها للغزل. كقابلية العصافير للتغريد.. إذ تتهيأ لابداع نشيدها الجميل متى تركت حرة طليقة.. وتصاب بالكآبة والوجوم. متى وقع الالتفاف من حولها واحاطتها بالحواجز.. وحثها على الغناء.. كفاها كرما انها لاتهرب من المواجهة.. لها ما يكفي من الثقة بالنفس.. فلا تنزعج. ولا تستاء. ولا تبحث عن ملجإ في الهوامش.. إذا هي تلقت تحية إعجاب ذكية.. أو إيماءة رأس من طرف حفي.. من اخلاقها انها لا تبتذل نفسها.. ولا تتمسح بأحد.. ولا تبدأ بالمفاتحة.. دائما نفس الكبرياء والترفع والهبوط من الأعالي.. تسمو بالمعجبين وتحلق بهم إلى بعيد.. إلى جزر عامرة بالكنوز.. وشواطيء مأهولة بالحور.. وقصور مشيدة من لؤلؤ ومرجان..

النظرة الدونية المتسلقة تجعل منك سيدا .. والنظرة المتعالية المرجوة تجعل منك رعية.. وفي دولة الجمال خير لك أن تكون في

صفوف الموالين... لا في صفوف الولاة.. وإلا فاتك الاستمتاع بنعمة الولاء..

مما لاشك فيه أنها تستمتع بما تناله من إعجاب.. يلذها أن تجد المعجبين ينحنون لالتقاط الآليء المتساقطة منها بلهفة وشوق.. ما ان تلتقي بعينين معجبتين مهذبتين برهة حتى تتحول عنهما إلى بعيد.. لتعود إليهما في لمحة خاطفة.. لاتمكنك من الاستغراق فيها.. وقراءة كل خطوطها.. وتحديد الألوان الجميلة المتداخلة فيها.. مادمت مجرد عابر سبيل.. يمكن أن تراقبها حين تكون عنك غافلة.. ولكنها حينئذ لاتعطيك ما تعطيك اياه وهي متجهة نحو عينيك.. بينك وبينها أشعة رفيعة تتكفل بوصل موجات الضوء المنبعثة من الطرفين.. رغم أن أسلوبها المفضل هو تجزئة نفسها إلى سلسلة من الومضات.. تبهرك بومضة.. وتولي عنك لتعود فتغاز لك بخبث.. وذكاء.. دون أن توليك عناية خاصة.. تارة تنقلك إلى المحور.. وتارة تضعك في الهامش.. وليس بين المحور والهامش إلا فرق بسيط.. بين اغفاءة عين وانتباهتها تجد نفسك حصلت على ترقية.. أو فقدت عددا من النقط..

لاتنخدع إذا تظاهرت أمامك بالخجل.. فاتقت عينيك بحجاب شفاف مورد.. ولملمت أشعتها خلف الرموش.. وكفت ابتسامتها عن الخلاعة.. ومنعت سحرها من التبرج.. فهي ليست جادة في ذلك.. بل ربما كانت حينئذ في أوج ائتمارها بك.. فهل جاءك ان صنفا من الزهور

يتظاهر بالنوم.. حتى إذا توغل فيه الفراش أطبق عليه..؟ هذا الصنف من النظرات لا يتورع أبدا.. لا يتوب أبدا.. إلا إذا كان التورع والتوبة محسوبين بالثواني والدقائق.. ضلاله أصيل.. وفسوقه عريق.. جميل من غير تجمل.. ظريف من غير تظرف.. يعتمد على الموهبة أكثر من اعتماده على التعلم.. الثقافة عنده مجرد صقل لحسن الاستعداد وتهذيب له.. واستغلال لأفضل امكانياته.. خجلها مجرد لعبة ذكية لكسر الروتين.. والبحث عن الطرافة.. والرغبة في التفنن والإبداع.. أو هو محاولة لربح الوقت.. إجراء شكلي يعود بعده كل شيء إلى وضعه الطبيعي.. هذه النظرة سوف تبقى ما جنة المماني ولو تقدمت بها السن.. وصارت تضعف امام أشعة الضوء.. وتخبو لدى التركيز على الأشياء.. مرات عديدة نصادف عيونا انطفأ فيها الوهج.. وران عليها الذبول.. ومع ذلك ما زالت ترسل نظرات باسمة مريبة.. متخلفة عن عهود الصبا والعمر الغض.. اما جد تلك النظرة فمن نوع غريب حقا.. فقد يدعوها داع إلى أن تتخذ هيئة صارمة.. جادة.. إلا أن جدها لا يكون غالبا إلا تكلفا.. مجرد تمثيل.. كفم مطبق بإحكام شديد.. لكتم الضحك المتفجر في الأعماق.. انه الجد المطبق بسوء نية.. كارتداء ملابس وقورة.. مع اتخاذ ماكياج مستهتر.. أو كتدلي سبحة من أصابع طويلة الأظافر.. مفضضة الأطراف أو مذهبتها.. أو ككلام حكيم رزين.. يصدر عن شفتي مغناج ذات رقة وظرف.. إذا لقيتك بجدها ذاك. حاول الإمساك بالسخرية الهاربة من

الزوايا.. المنسابة من خلال ارتداد البصر.. يمكن ضبطها بين نظرة وأخرى.. بين انفصال الرموش والتقائها.. بين ذبذبات مؤشر العنين.. لحظة تقلبهما هنا وهناك.. حين تكون السماء مشغولة بالحسب.. يتسلل نور الشمس أو ضياء القمر إلى الأطراف.. وإذ يكفهر عرض البحر، تلتمس بعض الأسماك الصغيرة وسيلة لللعب قريبا من الشاطيء.. ولما يسود الجد مجلس الأسرة، يهرع الاولاد إلى منعطفات الدار لاطلاق العنان للضحك.. وحين تجد النظرة الغزلة، ينسحب الغزل إلى الأطراف الخفية.. لكنه لا يغادر العين أبدا.. لأنه جزء من خطوطها.. ومضمون لجويفها.. ومادة لاشعاعها.. يسبح في عمقها كما يسبح السمك الملون في زجاجة مشعة من نقاء..

ومهما يكن في غزلها من خداع، فهو يضفي على الأشياء حلة جميلة.. ويبرزها في ضوء جديد.. ويمسح عنها ماقد يعتريها من كدر.. ويدل على جانبها الرقيق.. ونواحيها المتضمنة للمسرات.. هذا إذا أنت نظرت من خلالها.. كما قد ينظر أحدنا إلى الحياة من خلال قصيد جميل مرح.. أو قطعة موسيقية باسمة المعاني.. وأنت لا يمكنك النظر من خلالها إلا إذا عشت في إيحائها بعض الوقت.. حينئذ سترى أن تلك اللوحة المسندة إلى الحائط، وتلك الكأس المتراوحة بين الأصابع، وذلك الكتاب الحائر بين الفتح والاغلاق، وتلك الأسنان الناصعة النقية النضيدة تنفرج عنها شفتان رقيقتان.. ستراها وغيرها كما لم ترها من قبل..

ليس من الضروري أن يكون غزلها من أجلك.. من أجلك أنت بالذات.. بالرغم من أنها لو خصتك بالتفاتة لكان ذلك أدعى إلى إبداعك من جديد.. فأنت في استطاعتك أن تستمتع باللوحة الرائعة.. والنص الأدبي الرفيع.. واللحن الموسيقي البارع.. ولو لم تكن في خيال مبدعي هذه الأشياء وهم يمرون بعملية الخلق.. نفس الشيء يكون أحيانا بالنسبة إلى هذه النظرة الغزلة.

فاس عبد العلي الوزاني

القاضي عياض
بين مناهل العلم والأدب ومعاناة السياسة والحرب

د. مصطفى الشكعة

(١)

لعل عالما من علماء المغرب لم يتوفر له من الشهرة وثناء المؤرخين عليه مثلما نال القاضي عياض بن موسى اليحصبي. وفي الحقيقة أن عالما من هذا الطراز جدير بالتقدير حقيق بالتكريم. فقد كان مثالا كريما للعالم المتعدد الثقافات المتقن لفنون العلوم بحيث إذا عد في الفقهاء كان في مقدمتهم. وإذا ذكر في المحدثين وعلم الرجال كان على رأسهم. وإذا نسب إلى المؤرخين كان في الذروة منهم. وإذا سطر إسمه بين القضاة كان من سرواتهم. والحكم نفسه يقال عنه في مجالات الكتابة وميادين الشعر ومحافل الخطابة.

فإذا ما عرضنا لعياض الإنسان وجدناه سمح الخلائق. عظيم الوفاء، حاضر البديهة. شديد التواضع. لطيف النكتة. سريع البادرة.

ومن ثم فقد تسابق المؤرخون إلى إسباغ صفات الفضل عليه - وكانت كنيته أبا الفضل - وتقرير سمات المروءة فيه. ولعل اشمل وصف لعياض كلام لولده أبي عبد الله فيه (1)، وأحلى توصيف له كلام صديقه الفتح ابن خاقان في رسم شمائله ومعاليه (2)، وأعمق تحليل لشخصيته ما قاله تلميذه أبو زيد عبد الرحمن الغرناطي المعروف بابن القصير حين رآه قادما إلى غرناطة وقد احتشد الناس للقائه والاحتفال بمقدمه (3).

مدينة سبتة والنشأة الأولى لعياض :

إذا كان المرء ثمرة لبيئته ومرآة لعصره وصدى لزمانه. - وذلك أمر لامراء في صحته - فإن عياضا في نشأته الأولى يعتبر حصادا طيبا لبيئته الصغرى، وأعني بها مدينة سبتة. إذ لو كانت نشأته في صحراء مقفرة أو أدغال موحشة - هو أو غيره - لما نبه له شأن ولا استوى له عقل ولا ذاع له صيت. ومن هنا وجب أن نلقي الضوء على سبتة في عصره سواء في ذلك البيئة الطبيعية أو العلمية أو الأدبية.

---

1) أزهار الرياض 3/7، 82.
2) قلائد العقيان 221.
3) أزهار الرياض 3/7.

اننا نود أن نشير بادىء بدء إلى أن طارق بن زياد حين فتح الأندلس كانت نقطة انطلاقه من سبتة، عبر منها إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس. ومن هناك انطلق إلى طول البلاد وعرضها مع رفاقه من جنود المسلمين. وكان المرور على سبتة في الأزمنة الماضية أمرا ضروريا للعبور إلى الأندلس.

وكانت سبتة من الشهرة بحيث إذا أريد التعريف بمدينة أخرى قيل انها في موضع كذا من سبتة. ولقد فعل ياقوت الرومي ذلك حين ذكر وفاة ابن قرقول في فاس وأراد التعريف بفاس فقال، «فاس مدينة عظيمة بالمغرب بالقرب من سبتة».

وحين يعرف «ياقوت» في معجمه بمدينة سبتة يشيد بعلمائها وبيئها العلمية فيقول، «نسب إليها جماعة من أعيان أهل العلم منهم ابن مرانة السبتي. كان من أعلم الناس بالفرائض والهندسة والفقه. وله تلامذة وتآليف. ومن تلامذته ابن العربي الفرضي الحاسب» ويمضي ياقوت قائلا، «وكان المعتمد بن عباد يقول، اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر، ابن غازي الخطيب. وابن عطاء الكاتب. وابن مرانة الفرضي» (4).

---

4) مادة سبتة في معجم البلدان.

ويقول «القزويني» عند كلامه عن سبتة ناقلا عن محمد بن عبد الرحيم الغرناطي ـ وقد مر ذكر أبيه قبل قليل ـ ، مدينة سبتة مدينة عظيمة كثيرة الأهل، حصينة مبنية بالحجر، وفيها خلق كثير من أهل العلم (5).

وأما الشريف الإدريسي ابن مدينة سبتة وأحد أعلام أبنائها المخلدين ذكرا وصاحب «نزهة المشتاق» فيقول في وصف مدينته ، فاما مدينة سبتة فهي تقابل الجزيرة الخضراء وهي سبعة أجبال صغار متصلة بعضها ببعض، معمورة طولها من المغرب إلى المشرق نحو ميل، ويتصل بها من جهة الغرب وعلى ميلين منها جبل موسى. وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير وهو الذي كان على يديه افتتاح الأندلس في صدر الإسلام، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة، وقصب سكر واترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها. ويسمى هذا المكان الذي جمع هذا كله بليونش. وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد، ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى «جبل المنية» اعلاه بسيط وعلى اعلاه سور بناه محمد بن أبي عامر (المنصور) عندما جاز إليها من الأندلس وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل فمات عند فراغه من بنيان أسوارها. وعجز أهل سبتة عن

---

5) آثار البلاد وأخبار العباد ص 533.

الانتقال إلى هذه المدينة المسماة بالمنية فمكثوا في مدينتهم وبقيت المنية خالية وأسوارها قائمة. وفي وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لاتجف البتة. وبمدينة سبتة مصايد للحوت ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه. ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع».

إننا لانريد أن نكثر من الاستطراد في وصف مدينة سبتة. ولكن ذلك الذي أوردناه في وصفها يمثل بيئتها على أيام القاضي عياض. فالمعتمد بن عباد توفي سنة 488 هـ أي أن عياضا كان آنئذ في الثانية عشرة من عمره. ولا نستبعد أن يكون قد رأى الثلاثة الكبار الذين تمنى المعتمد أن يزين بلاطه في إشبيلية بهم وهم ابن غازي الخطيب. وابن عطاء الكاتب. وابن مرانة الفرضي. وان امنية لملك عظيم فارس عالم شاعر كالمعتمد بن عباد لابد أن تكون رفيعة القدر نبيلة القصد نادرة الوجود. وإذا لم يكن عياض قد رأى هؤلاء الثلاثة الكبار فليس من شك في أنه رأى تلامذتهم وغيرهم من علماء سبتة الذين سوف نذكر أطرافا من أخبارهم فيما يستقبل من صفحات.

مدينة سبتة إذن كانت سمتها الرئيسية حسب إجماع المؤرخين انها مدينة العلم أو انها مليئة بأهل العلم. وهي بالإضافة إلى ذلك مدينة جميلة خضراء ماؤها كثير. غنية بالرياض والازاهير والفاكهة وأنواع طعام البر وصيد البحر. ثم هي مع ذلك كله المعبر الرئيسي الذي منه وإليه

يكون العبور من الأندلس وإليه. والعبور هنا يشمل عبور العلماء، وعبور الجيوش وعبور التجار أو رجال الأعمال بلغة زماننا ومن ثم يكون لمدينة سبتة بالضرورة إسهام في العلم والعمل والسياسة. ومن البديهة بمكان أن تكون مزدانة بالعلماء، مترعة بالادباء من كتاب وشعراء. وأن تكون التيارات السياسية أمرا مفروضا عليها.

ان هذه الملامح جميعا ـ وقد سبق القول أن المرء المستنير غالبا ما يكون ثمرة لبيئته ـ قد توفرت في القاضي عياض الذي أسهم في كل فنون المعرفة الإسلامية في نطاق العلوم الدينية، كما شارك في الحياة الأدبية والفكرية برسائل نثرية ممتعة وقصائد شعرية مبدعة. وكان أمرا طبيعيا أيضا أن يشارك في السياسة مشاركة الزعيم الذي قاد أهل سبتة في ثورة ضد الموحدين في أول أمرهم، ثم مالبثت الثورة أن خبت وسقطت سبتة في يد أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي شأنها في ذلك شأن بقية المدن الكبيرة مثل وهران وتلمسان وفاس وسلا.

ان مدينة سبتة بكثرة علمائها ووفرة فروع الثقافة فيها جديرة بأن تخرج عالما فقيها حافظا مؤرخا شاعرا ناثرا سياسيا مثل عياض.

وإذا ما تتبعنا مشايخ عياض الذين جلس إليهم في سبتة وحدها استطعنا أن نذكر منهم القاضي أبا عبد الله بن عيسى، والخطيب أبا القاسم، والفقيه إسحاق بن الفاسي، وإبراهيم بن جعفر اللواتي، وإبراهيم

بن أحمد القيسي، وأبا بكر محمد بن علي المعافري خال عياض، وولده أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري السبتي. وأبا القاسم عبدالرحمن بن محمد الكومي المعروف بابن العجوز. وأبا محمد حجاج بن قاسم. وأبا عبد الله النفري، وأبا بكر محمد بن عبد الله الفراء الجريري الشاعر. وعلي بن محمد بن درى النحوي. وأبا علي الحسن بن علي بن طريف التاهرتي النحوي وآخرين كثيرين.

على أن الأمر الجدير بالذكر ان كل واحد من هؤلاء الشيوخ كان مبرزا في علم أو أكثر من علوم الدين أو العربية أو الأدب ومن ثم نستطيع أن نقرر أن عياضا قد بلغ في بلده سبتة مرحلة علمية رفيعة قريبة من حدود الاكتمال.

ولكن هل يقف الأمر بعياض عند سماع هذه الكوكبة العظيمة من علماء بلدته ؟ وهل يكتفي بما أخذ عنهم من علم، وما نال على أيديهم من فضل ؟ الجواب على ذلك بالنفي لأن عياضا أخذ يعد العدة لرحلة علمية أخرى في الجانب الشمالي من دولة المرابطين ونعني بذلك الأندلس. الأرض الطيبة التي كانت تتضوع مدنها بأنوار المعرفة وتحفل ساحات معاهدها ومساجدها بجلة علماء الزمان.

ابتعاث عياض إلى الأندلس لطلب العلم :

لقد عمدنا إلى أن نصف ذهاب عياض إلى الأندلس بالابتعاث ولم

نقل انها رحلة أو سفرة لأن عياضا قد ذهب إلى الأندلس بوصية من الدولة وليس على نفقته الخاصة كما كان يفعل طالبو العلم في ذاك الزمان. ونحن لانستبعد أن تكون الدولة قد تحملت نفقات رحلة عياض - وليس في ذلك كبير ضير - مادام الا بتعاث كان بأمر منها.

لقد ا بتعث عياض إلى الأندلس وكان خروجه من سبتة يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة 507 هـ (6) وكان عمره إذ ذاك واحدا وثلاثين عاما. ومعنى ذلك انه لم يكن في غمرة الصبا وباكر الشباب. وانما كان رجلا مليئا بالفتوة محصلا لكثير من أصناف المعرفة من شيوخ بلدته العظيمة سبتة. وليس من شك في أن خبر نبوغه قد ترامى إلى مسامع أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين. بل ربما كان الأمير على معرفة شخصية بعياض لأن الأمير جاز البحر بجيوشه من سبتة إلى الأندلس غازيا سنة 503 هـ ومن التقاليد المسلم بها آنذاك أن يستقبل الأمير حيثما حل. المشايخ والعلماء والنابهين من أبناء البلدة. وكان عياض على رأس شباب سبتة النابهين دون منازع.

هذا وأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين من مواليد سبتة سنة 477 هـ أي أنه في نفس عمر عياض لأن الاختلاف في الميلاد بمقدار سنة لا يجعل ثمت فارقا كبيرا بين الأفراد. والمرء يكون منزعا

---

6) أزهار الرياض 3/ 8.

عادة بالحب لمسقط رأسه دائم الحنين إلى موقع ميلاده. هذه الأسباب جميعا قد أسهمت في أن يكون ابتعاث عياض إلى الأندلس طلبا للعلم وإتماما للتحصيل بأمر من أمير المسلمين. ذلك أن الفتح بن خاقان يورد رسالة كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم بن الجد بأمر من الأمير إلى قاضي الجماعة بقرطبة الفقيه أبي عبد الله بن حمدين الذي كان يوصف بغرة الزمان الزاهرة. وآية الاحسان الباهرة. (7) في أمر أبي الفضل عياض قائلا : (8).

«وفلان أعزه الله بتقواه. وأعانه على ما نواه. ممن له في العلم حظ وافر. ووجه سافر. وعنده دواوين اغفال. لم يفتح لها على الشيوخ اقفال. وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها. ويعاني رمد عيونها. وله إلينا ماتة مرعية. أوجبت الإشادة بذكره. والاعتناء بأمره. وله عندنا مكانة حفية. تقتضي مخاطبتك بخبره. وإنهاضك إلى قضاء وطره. وأنت إن شاء الله تسدد عمله. وتقرب أمله. وتصل أسباب العون له. إن شاء الله».

ان أمير المسلمين يقرر أن أمر عياض يهمه حيث تقول الرسالة على لسانه «وله إلينا ماتة مرعية أوجبت الإشادة بذكره. والاعتناء بأمره.

---

7) الذخيرة قسم أول مجلد ثان ص 333.

8) قلائد العقيان ص ١١١ ط الجوائب.

وله عندنا مكانة حفية تقتضي مخاطبتك بخبره، وإنما ضك إلى قضاء وطره».

نضر الله وجه مثل هذا الأمير الذي يأمر بكتابة هذه الكلمات المشرقات في شأن فرد من شباب طلاب العلم. فقد كانت هذه الكلمات بمثابة المخصبات التي جعلت عياضا في آخر أمره ثمرة جنية لشجرة العلوم الإسلامية.

على أن أمر عناية دولة المرابطين بشأن ابتعاث عياض إلى الأندلس لم تقف عند رسالة الأمير تلك التي مر ذكرها. وإنما ينهض الوزير أبو القاسم بن الجد بذاته فيكتب متطوعا رسالة خاصة إلى صديقه قاضي الجماعة في قرطبة ابن حمدين مقدما إليه أبا الفضل عياض موصيا إياه بالعناية به. خالعا عليه اسبابا من المديح وعبارات من الثناء في أسلوب يفيض بالبيان قائلا ، (9).

«اما وكنف بِرِّك لمن أمَّكَ من أهل الفضل مُمَهَّد. وجفن رعايتك لهم مسهَّد. ومنزل حفايتك بهم متعهَّد. وكلُّ وغْرٍ يلقونه في سبيلك مستسهل. لا يرويهم دونك مَنْهَل. ولا يضل بهم للعلم مجهل. وممن رأى أن يقتحمَ نحوك ظهريَّ لجةٍ ومَحَجَةٍ. ويقرن في أمّ كعبة فضلك بين عُمْرةٍ وحَجَة. ويرحلَ إلى حضرتك المألوفةِ مهاجِراً. ويعتمدها في طلب العلم تاجِراً.

9) خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب والأندلس 3/ 398.

ليجتهدَ في جمعِهِ وكَسْبِهِ اجتهادَ مُغترب. ويملأ من بضائِعِهِ وفوائده وِعاءَ غيرَ سَرِب. ومذهبُهُ الاقتباس. من أنوارك والالتباس. برهة من الدهر بجوارك. والاستئناس. بإيرة بِبشرك. وَمَسرَّةٍ جوارك. فلان وله في الفضل مذاهب. يبهرج عندها الذهب. وعنده من النبل ضرائب. لا يفارق زندها اللهب. وستقر به. فتستغربه. وتخبره. فتكبره. إن شاء الله تعالى».

عياض يطلب العلم في الأندلس :

كان ارتحال عياض لطلب العلم في الأندلس أمرا طبيعيا جدا بغض النظر عن الرسالتين اللتين صدرتا عن أمير المرابطين علي بن يوسف ووزيره أبي القاسم بن الجد. وذلك لعدة أسباب أكثرها نابع من مقتضيات العصر. وأقلها مرتبط بنوازع نفسية كامنة في أعماق عياض.

فاما الأسباب النابعة من مقتضيات العصر فإن أهمها كثرة الشيوخ العظام والعلماء الكبار الذين كانت تزدان بهم مدن الأندلس الكبرى مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وبلنسية والمرية ومالقة وغيرها. وذلك على الرغم من أن التوصيتين اللتين كتبهما الأمير والوزير كانتا موجهتين إلى شخصية واحدة دون غيرها هي شخصية القاضي أبى عبد الله محمد بن علي بن حَمْدين قاضي الجماعة في قرطبة. وليس من شك في أن الرسالتين السالفتي الذكر كانتا تمنيان ألاّ يقف اهتمام قاضي القضاة بعياض في نطاق الاحتفال الشخصي به وحسب. وإنما تمنيان أيضا

بطريق غير مباشر أن يقوم بتقديم عياض إلى المجتمع العلمي في قرطبة المتمثل في مشايخها الكبار من أمثال أبي الحسين. بن سراج وابن عتاب. وابن رشد الجد. وابن الحاج وغيرهم.

ومن تلك الأسباب أيضا أنه لكي تتوفر للدارس أسباب الاكتمال والنضج كان عليه أن يعمد إلى الارتحال. وكان ارتحال الدارس المغربي أمرا جوهريا للسبب الذي مر ذكره قبل قليل. وكان على الدارس الأندلسي أيضا لكي تكتمل له أسباب المعرفة والنضج العلمي أن يتوجه إلى المغرب لكي يستمع إلى شيوخ العلماء في سبتة وفاس على وجه خاص وإلى مراكش بعد تمام إنشائها وكمال عمرانها وسكنى عدد كبير من العلماء فيها على مقربة من أمراء المرابطين الذي كانوا يحبون العلم ويكرمون العلماء إلا في حالات قليلة. بل إن بعض أمراء المرابطين كانوا يرتحلون في طلب العلم. ونبغ منهم بعض الأمراء وعدد من النساء. على أن أمر الارتحال يتخطى ذلك كثيرا. فقد كان جلة العلماء لا يكتفون بالرحلة في المغرب والأندلس وحسب. وإنما كان أكثرهم يرتحل إلى المشرق الإسلامي ويقضي فيه سنوات عديدة. متنقلا بين مدن مصر والأقطار الشامية والعراق والحجاز. بل أن رحلة الحجاز كانت هدفا أساسيا حين يقوم العالم المرتحل باداء فريضة الحج ثم يجمع إلى ذلك التلقي من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة.

سبب ثالث من أسباب ارتحال علماء المغرب والأندلس إلى كلا القطرين هو أن القطرين صارا في عهد المرا بطين قطرا واحدا. يحكمهما أمير واحد وان يكن مقره في مراكش. والقضاة والوزراء والولاة قد أحسن اختيارهم من القطرين على حد سواء. فكثير من الوزراء والعلماء والشعراء في مراكش كانوا أندلسيين. وكثير من القضاة والعمال في الأندلس كانوا مغاربة. وان مثل هذا الاندماج يشجع الناس من عامة وخاصة على الارتحال من هذا البلد إلى ذاك كما أن العكس أيضا صحيح.

هذه بعض الأسباب النابعة من طبيعة العصر التي جعلت عياضا وأمثاله من شباب المغاربة النازعين إلى الاستزادة من العلم يتجهون إلى الأندلس لاستكمال دراستهم. غير أنه يكمن في خاطرنا سبب آخر خاص بعياض نفسه. ذلك أن عياضا أندلسي الأجداد. فهو يحصبي. واليحاصبة قد أثبتوا وجودهم في الأندلس منذ الفتح. وكان أشجع قضاة قرطبة على أيام عبد الرحمن الداخل يحصبي عظيم هو نصر بن طريف اليحصبي. هذا فضلا عن يحاصبة آخرين كثيرين علماء وأمراء وقواد.

اما كون عياض أندلسي الأصل. فإنه فضلا عن السبب الذي ذكرناه فيما سلف من سطور فقد قرر أبو المحاسن بن تغرى بردى وغيره من المؤرخين تلك الحقيقة فقال إن أصله من الأندلس ثم انتقل أجداده إلى

مدينة فاس ثم من فاس إلى سبتة (10) ـ وكذلك كان ابن خلدون وكثيرون غيره ـ والمرء يشعر دائما بالحنين إلى أرض أجداده. وبخاصة إذا كان هؤلاء الأجداد ممن يشرف الحفيد بالانتساب إليهم لاتصافهم بأصالة العلم أو سمات الفضل أو شرف الإمارة. وقد كان أجداد عياض يمتلكون تلك المؤهلات جميعا. واذن فهناك عامل نفسي كامن في أعماق عياض دفع به دفعا إلى الارتحال إلى الأندلس مضافا إلى العوامل الكثيرة التي تمثلنا ببعض منها.

فإذا ما كان لنا أن نعرف مزيدا من سر ذلك النبوغ الذي اتصف به عياض في مختلف مجالات العلوم الدينية والعربية بات من الضروري أن نعرف شيئا عن بعض شيوخه الذين تلقى عنهم في الأندلس. وذلك على الرغم من أن المقرى قد أفرد لهم مساحات كبيرة في كتابه أزهار الرياض.

ان أول من يتجه الفكر إليه في هذا المجال هو قاضي الجماعة ابن حمدين لأنه كان أول من استقبل عياضا بحكم التزكية التي تلقاها من كل من أمير الدولة ووزيرها وقد كانت شهرة ابن حمدين كقاض للقضاة وواحد من كبار أعيان قرطبة ووجه من وجوه أدبائها أكثر من شهرته كفقيه محدث حافظ. وإن كانت هذه المؤهلات أمرا لامراء فيه. فما كان

---

10) النجوم الزاهرة وفيات سنة 544 هـ

لشخص مهما كانت وجاهته أن يتسنم منصب قاضي قضاة قرطبة دون أن يكون من رؤوس الفقهاء وكبار الحفاظ. غير أن شهرته في ميدان بلاغة القول قد احتلت عند المؤرخين مكان الصدارة بحيث يقول عنه ابن بسام (11) «سارت على ألْسِنَةِ الركبانِ من كَلمِهِ رسائلُ واشعار. أجزلُ من ذِكْر أبان (12). واحْسَنُ من الحديث عن جِنَّان (13). وأوضحُ من عذرِ قريشٍ في حُبِّ عثمان» وقد ركز ابن بسام على شخصية ابن حمدين كأديب وأورد له مختارات من رسالة طويلة ردا على رسالة وردت إليه من الوزير أبي مروان عبد الملك بن شماخ. وقد احتلت هذه المختارات وحدها نحو من سبع صفحات (14).

ومن مشايخ عياض في قرطبة أبو محمد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن عتاب القرطبي (433 ـ 520 هـ) الذي كان من سمو المقام في زمانه. وغزارة العلم بين إخوانه بحيث يقول عنه ابن بشكوال إنه آخر الشيوخ الجلة الأكابر بالأندلس في علو الاسناد وسعة الرواية. حافظ للقرآن كثير التلاوة له. عارف برواياته وطرقه. واقف على كثير من تفسيره وغريبه ومعانيه مع حظ وافر من اللغة العربية.

---

11) الذخيرة قسم أول مجلد ثان ص 333.

12) لعله يقصد ابان بن عبد الحميد اللاحقي شاعر البرامكة وناظم كليلة ودمنة.

13) إنها جنان محبوبة أبي نواس.

14) الذخيرة قسم أول مجلد ثان من ص 326 إلى ص 333.

ومن كتبه النفيسة كتاب جمعه في الزهد سماه «شفاء الصدور». ويمضي ابن بشكوال في التعريف بابن عتاب قائلا ، كانت الرحلة إليه في وقته. ومدار أصحاب الحديث عليه لثقته وجلالته (15).

ومن عظام شيوخ عياض بقرطبة قاضي الجماعة أبو عبد الله بن الحاج واسمه كاملا محمد بن أحمد بن خلف بن ابراهيم التجيبي (458 ـ 529 هـ) كان من جلة الفقهاء وكبار العلماء معدودا في المحدثين والأدباء. وكانت الفتيا في وقته تدور عليه لعلمه وثقته وديانته. درس الفقه على أبي جعفر بن رزق. وقيد الغريب واللغة والأدب عن عالم قرطبة الكبير الوزير الفقيه أبي مروان عبد الملك بن سراج. وكان ضابطا لأسماء الرجال. حافظا الأنساب. عالما بالأخبار والسير والأشعار. قيد العلم كله على حد تعبير ابن بشكوال. وقد تقلد ابن الحاج قضاء قرطبة مرتين فلم يُحْفَظْ له جَوْرٌ في قضية. قتل ظلما وهو ساجد في الركعة الأولى من صلاة الجمعة في شهر صفر سنة 529 عن واحد وسبعين عاما وله كتاب نوازل الأحكام (16).

ومن شيوخ القاضي عياض أيضا الوزير الفقيه أبو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الذي يصفه ابن بسام بأنه سراج علم وأدب. وبحر

---

15) الصلة الترجمة رقم 749.

16) تاريخ قضاة الأندلس ص 102 والصلة الترجمة رقم 1278.

لغة لسان العرب وإليه في وقتنا هذا ـ أي زمان صاحب الذخيرة ـ بحضرة قرطبة شد الأقتاب وإنضاء الركاب. في الإقتباس منه والأخذ عنه (17).

وحين يعرض السيوطى لذكر أبي الحسين بن سراج يقول عنه إنه النحوى ابن النحوى. وإنه عالم الأندلس في وقته. وكان من أعلم الناس بالتصريف والإشتقاق، وله حظ وافر من الفرائض. وكان من أكمل أهل عصره مروءة وأكثرهم صيانة. وأوسعهم مالا. وأعظمهم جاها ومهابة. تجتمع إليه الأربعون والخمسون من مهرة النحاة كابن الباذش وابن الأبرش (18).

ومن العلماء الكبار الذين سمع منهم القاضي عياض واغترف من فيض علمهم قاضي الجماعة في قرطبة وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بها الفقيه العظيم أبو الوليد بن رشد الجد.

لقد عاش ابن رشد الجد بين سنتي 450 و520 هـ وكان كما وصفه مترجمو حياته فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره. نافذا في علم الفرائض. وكان من أهل الرياسة مع الدين والفضل والوقار والحلم.

---

17) الذخيرة 319/1/1.

18) بغية الوعاة ص 251.

وكان ابن رشد بحكم مكانته العلمية ـ وكان للعلماء قيمتهم لدى الحكام، لأن الحكام بدورهم كانوا في الأغلب على جانب كبير من العلم والمعرفة ـ قد توجه إلى المغرب في آخر أيام حياته ليوضح لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الإشتباكات التي جرت بين المسلمين والنصارى في الموضع المعروف بالرنيسول فلقى من الأمير كل احترام وترحيب واجلال وكان ذلك في صفر سنة 520 ثم عاد إلى موطنه قرطبة في السنة المذكورة فوصل إليها في آخر جمادي الأولى. وأصابته العلة فتوفى في ذي القعدة من العام نفسه.

ولابن رشد الجد عدد من المؤلفات النفيسة التي منها «المقدمات الممهدات لكتاب المدونة» و«البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل» لمسائل العتبية. «اختصار المبسوطة». «اختصار مشكل الاثار للطحاوى». «الفتاوى» وغيرها (19).

ومن الشيوخ الكبار ذوي القدر الرفيع في الحفظ والإسناد الذين تلقى عياض عنهم في قرطبة الإمام الحافظ المحقق أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعد بن سليمان بن يربوع الأندلسي الأشبيلى محدث قرطبة المشهور بالشنتريني الذي تصفه كتب الرجال بأنه كان حافظا

---

19) بغية الملتمس الترجمة رقم 24. الصلة الترجمة رقم 1270 تاريخ قضاة الأندلس ص 98 وقد ذكر صاحب بغية الملتمس أن وفاته كانت سنة 530.

للحديث وعلله. ضابطا ثقة. صحب الغساني شيخ علماء قرطبة في أواخر القرن الخامس الهجري واختص به. وكان الإمام الكبير أبو علي الصدفي شيخ علماء مشرق الأندلس يصفه بالذكاء والمعرفة ويفضله على غيره من معاصريه. وقد خلف الإمام الشنتريني عددا من المؤلفات والمصنفات منها «الاقليد في معرفة الأسانيد» و«معرفة أسانيد الموطأ» و«البيان عما في كتب الكلا باذى من النقصان» و«رجال مسلم» وتوفى في صفر سنة 522 هـ عن ثمان وسبعين عاما (20).

فإذا ما تركنا الحديث عن إقامة عياض في قرطبة وعن هؤلاء الأئمة الذين أخذ عنهم وتمثلنا ببعضهم. نجد أن عياضا توجه إلى مرسية ووصل إليها في غرة صفر سنة 508 وقيل بل في الثالث منه (21). قاصدا شيخ شيوخ شرق الأندلس أبا علي الصدفى الذي يشتهر أيضا بابن سكرة فوجده مختفيا لأنه نبذ منصب القضاء دون أن يستعفى. وكان يلى قضاء مرسية.

إن أبا علي الصدفى يوصف بالإمام الحافظ البارع. وهو من أهل سرقسطة ولكنه سكن مرسية. وقد تفقه على كبار علماء الأندلس ثم اتجه

---

20) انظر طبقات الحفاظ للسيوطي الترجمة رقم 1038.

21) أزهار الرياض 3/8 عن ابن خاتمة في مزية المرية.

إلى المشرق الإسلامي في أول المحرم سنة 481 هـ بحرا وزار القاهرة والإسكندرية والبصرة وبغداد وواسط ودمشق ومكة والمدينة حيث حج وزار الروضة الشريفة. وتفقه على كبار علماء الأمصار الإسلامية التي مر ذكرها. وقضى في رحلته هذه أو بعثته تلك تسع سنين كاملة لأنه وصل إلى الأندلس سنة 490 هـ واختار مرسية دارا لإقامته ورحل الناس إليه. فقد رحل من المشرق عائدا إلى الأندلس بعلم كثير. وكان عالما بالقراءات وله الباع الطويل في الرجال والعلل والأسماء والجرح والتعديل. وكان حافظا للمتن والإسناد. موصوفا بالصلاح والتواضع (22). وفي الجملة كان أبو علي دنيا من المعرفة. وكان في علمه وفضله يرجح كثيرا من كبار معاصريه من الشيوخ والعلماء. ومما زاده قدرا عند الله والناس أنه توفى شهيدا وهو يخوض معارك الجهاد في وقعة قتندة بثغر الأندلس فقد شهدها غازيا - مثلما كان يفعل كثير من العلماء - وذلك سنة 514 هـ وكان في نحو الستين من عمره.

هذا هو شيخ المشرق أبو على الصدفي الذي توجه عياض في مرسية للقائه فوجده مختفيا. وهنا تحدث المفارقة اللطيفة. فلئن كان عياض قد لقى ابن حمدين في قرطبة بتزكية كتابية من أمير المسلمين

---

22) طبقات الحفاظ للسيوطي الترجمة رقم 1026 والصلة الترجمة رقم 330.

على بن تاشفين ووزيره. فإن شيخ العلماء أبا علي الصدفي هو الذي يسعى إلى أن يلتقى بعياض حين علم أن عياضا مقيم بمرسية نحوا من شهرين راغبا في لقائه. إن أبا علي وهو في مخبئه يشير إلى خاصته أن يطلعوا عياضا على بعض كتبه. فكتب منها القدر الذي استطاعه. حتى إذا أعلن إعفاء أبي علي من القضاء ظهر للناس وخرج من اختفائه فلازمه عياض وسمع عليه الصحيحين. والمؤتلف والمختلف. ومشتبه النسبة لعبد الغنى بن سعيد الازوى القدسي. والشهاب في المواعظ والآداب للقضاعى وموضوعه الحديث. وغير ذلك.

أما كيف حرص أبو علي الصدفي على لقاء عياض فإن عياضا نفسه يقرر أن أبا علي قال له ، «لولا أن الله يسر خروجي بلطفه. لكنت عزمت أن أشمرك بموضع يقع عليه الإختيار من بلاد الأندلس لا يؤبه لكوني فيه فتدخل إليه وأخرج مختفيا إليه بأصولي فتجد ما ترغب لما كان في نفسي - من أسف - من تعطيل رحلتك وإخفاق رغبتك» (23).

إن مثل هذه التحية من كبير علماء شرق الأندلس، وهي تحية ذات مغزى بعد عميق. تعطي الدارس صورة عن قيمة عياض وقدره حين كان لا يزال شابا في مقتبل العمر ولما تمضى به بعد الأعوام.

---

23) أزهار الرياض 3/ 9.8

(2)

عياض المؤلف والمعلم :

اتفق المؤرخون وأصحاب كتب الطبقات الذين أرخوا حياة القاضي عياض على أنه كان شديد الفطنة وافر الذكاء حاد الذهن. جيد التحصيل. متعدد الشيوخ الذين جلس إليهم وروى عنهم وتردد عليهم. سواء في ذلك شيوخ المغرب أو شيوخ الأندلس. ولم يكن هؤلاء الشيوخ أصحاب علوم تروى ودروس يواظب على متابعتها وحضورها وحسب. وإنما كانوا أصحاب مصنفات نفيسة ومؤلفات فريدة استوعبها عياض فهما وحفظا. وما يقال من شيوخ عياض في هذا المقام يقال عن اترابه ومعاصريه من علماء المغرب والأندلس سواء منهم من لقيهم عياض أو من لم يتمكن من لقائهم.

على أن ثقافة القاضي عياض لم تكن وقفا على ما أخذه من شيوخه أو ما قرأه لأقرانه. وإنما امتدت ثقافته عمقا واتسعت عرضا فشملت القديم السابق. والمعاصر اللاحق في المغرب والأندلس والمشرق الإسلامي. وكانت حصيلة ذلك كله كنوزا في مختلف العلوم ووفرة في صنوف الآداب.

فإذا ما عدنا إلى النظر في ثقافة مشايخ عياض وأترابه من العلماء وجدنا الصفة العلمية الموسوعية هي أهم ما يتميزون به. غير أن أكثرهم

كان ذا حقل علمي يتخصص فيه ويحلق في سمائه. ومن ثم تكون نسبته إلى ذلك التخصص أكثر من نسبته إلى تخصص آخر. فمن العلماء من هو أكثر تخصصا في القرآن الكريم وعلومه، ومنهم من كان أكثر تخصصه الحديث الشريف وروايته ورجاله. ومنهم من كان في الفقه والأصول، ومنهم من كان في علوم اللسان من لغة ونحو وصرف، ومنهم من كان أكثر اهتماما بالتاريخ والطبقات، ومنهم من عرف بالإحتفال بالأدب والأخبار والنوادر ومنهم من غلب عليه الشعر أو النثر فعرف بصفة الكاتب أو الشاعر وهكذا.

لقد بات أمرا طبيعا وتلك طبيعة علماء ذلك الزمان في نطاق الشمول في المعرفة مع التخصص في بعضها أن يكون القاضي عياض ناسجا على منوالهم، سائرا في مضمارهم، متبعا لطريقتهم. ولكن شخصية عياض المتميزة، وملكاته المتعددة وعقليته الفذة وحصيلته الوافرة جعلته يصنف في كل ميدان، ويجدد في كل فرع. وإن كانت بعض مؤلفاته أكثر تميزا عن بعضها الآخر من منطلق كون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم له الصدارة من حيث الإهتمام به والإحتفال بخدمته. وفي ذلك يقول عنه ابن خاتمة - في مزية المرية - ، كان لا يبلغ شأوه ولا يدرك مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار. ثم يستطرد ابن خاتمه قائلا ، وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه والتصرف الكامل في فهم

معانيه إلى اضطلاعه بالآداب وتحققه بالنظم والنثر ومهارته في الفقه ومشاركته في اللغة العربية (24).

وفي نطاق التأكيد على أن القاضي عياضا كان يضع علم الحديث في المرتبة الأولى من اهتمامه قول المقرى نقلا من ابن خاتمة : وكان رحمه الله معظما للسنة عالما عاملا... ... وكان رحمه الله معتنيا بضبط الألفاظ النبوية على اختلاف طرقها. وكتابه «المشارق» أزكى شاهد على ذلك. ولقد كان بعض من لقيته من صلحاء عصرنا يقول : لا أحتاج في كتب الحديث إلا للمشارق. فإذا كان عندي فلا أبالي بما فقدت منها. أو كلاما هذا معناه (25). ويقول عنه السيوطي ، كان إمام أهل الحديث في وقته وأعلم الناس بعلومه. ثم يستطرد قائلا : وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم (26).

فاما مؤلفات عياض المتاحة بين مطبوعة ومخطوطة. فأكثرها في الحديث الشريف ثم في التاريخ والطبقات. ثم في الفقه. ثم في القرآن.

وأول هذه الكتب هو كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وهو كتاب فريد في بابه. نفيس في محتواه. جديد في نهجه ساحر في

---

24) أزهار الرياض 3/ 20

25) أزهار الرياض 3/ 21

26) طبقات الحفاظ الترجمة رقم 1050

أسلوبه. أما موضوعه أو بالأحرى موضوعاته فهي السيرة والعقيدة والأصول والتفسير والحديث. وإن كان الحديث الشريف هو الطابع الغالب على الكتاب لأن القاضي عياضا يسجل السيرة من خلال الأحاديث النبوية الصحيحة الإسناد التي سمع أكثرها من شيوخه الذين حدد كل واحد منهم باسمه في مناسبة الحديث الذي رواه مرتبطا بالخبر أو الفصل الوارد في الكتاب. ولقد أحصى بروكلمان نيفا وعشرين شرحا للشفا أحدها باللغة التركيه. كما ذكر كتبا ثلاثة لمنتخبات من أحاديثه لعل أشهرها «مناهل الصفا» للسيوطى (27).

بعد «الشفا» يأتي الكتاب المشهور والأثر النفيس للقاضي عياض وهو «مشارق الأنوار على صحيح الاثار» (•) وموضوعه تفسير غريب الحديث في الصحاح الثلاثة ، موطأ مالك وصحيحى البخاري ومسلم. فضبط أسماء الرجال والألفاظ ونبه على مواضع الأوهام والتصحيفات. وفي كتاب «المشارق» قال الشاعر :

مشارقُ أنوارٍ تبدّتْ بِسَبْتَــةٍ ومنْ عجبٍ كونُ المشارقِ بالغـرْبِ

فأجابه آخر بقولـــه :

وما شرفُ الأوطانِ إلاّ رجالُهـــا وإلاّ فلا فضْلٌ لتُرْبٍ على تُـرْبِ

27) تاريخ أداب اللغة العربية 6/267 ـ 273

•) ورد في أزهار الرياض بعنوان (مشارق الأنوار على مبهم صحائح الآثار)

ولقد ذكرنا قبل قليل قول أحد الصلحاء ، لا أحتاج في كتب الحديث إلا «للمشارق» فإذا كان عندي فلا أبالي بما فقدت منها.

ومما يجدر ذكره أن هناك كتابا آخر يحمل نفس العنوان هو «مشارق الأنوار» في الحديث تأليف أبي الفضائل الصغاني اللغوى المشهور المولود سنة 577 المتوفى سنة 650 هـ (28).

وعلى نسق «مشارق الأنوار» للقاضي عياض ألف أبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني كتاب «مطالع الأنوار على صحاح الاثار» في غريب الحديث وقد اهتم بهذا الكتاب الأخير بعض العلماء. فاختصره الحسامى القريمي سنة 757 هـ واسماه «منتخب مطالع الأنوار» كما ألف ابن خطيب الدهشة المتوفي سنة 834 كتاب «تهذيب المطالع».

ومن «مشارق الأنوار» لعياض «ومطالع الأنوار» لابن ياسر صنف عبد العزيز العصاري كتاب «مشكل الصحيحين من المطالع والمشارق» (29).

ومن كتب الحديث التي اضطلع القاضي عياض بتأليفها كتاب «الإكمال» كمل به كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم» لشيخه المازرى

---

28) بغية الوعاة ص 277

29) تاريخ أداب اللغة العربية 6 ـ 276، 277.

الفقيه المالكي المحدث المتوفي بالمهدية سنة 536 هـ عن ثلاثة وثمانين عاما (30). وقد شرح المازرى حديث مسلم في كتابه شرحا جيدا.

وقد يذكر كتاب الاكمال بعنوان آخر هو «شرح حديث مسلم» وهو العنوان الذي ذكره به السيوطي في ترجمته للقاضي عياض في طبقات الحفاظ.

وقد صنف القاضي عياض كتبا أخرى في الحديث هي «منهاج العوارف إلى روح المعارف» في شرح مشكل الحديث. وكتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» في مصطلح الحديث. وقد يذكر أيضا تحت عنوان «الالماع في ضبط الرواية وتقييد السماع» وكتاب «بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد» وقد أورده السيوطى في طبقات الحفاظ تحت عنوان «شرح حديث أم زرع».

هذا وإن «شرح حديث أم زرع» يضم إلى موضوع الحديث دراسة في الفقه. وقد صنف القاضي عياض في الفقه كتاب «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة» ضبط فيه الألفاظ وجدد المسائل. وعن «التنبيهات» يقول ابن خلكان «جمع فيه فوائد وغرائب». وفي العلوم القرآنية والفقه كتب عياض قصيدة عن قوله تعالى في سورة الطلاق «لينفق ذو سعة من

---

30) وفيات الأعيان 3/483 الترجمة رقم 511

سعته، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها. سيجعل الله بعد عسر يسرا» (31).

وفي العقيدة وأصولها صنف عياض كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» ويعرف أيضا بكتاب «القواعد». وذكره أبو المحاسن تحت عنوان «كتاب العقيدة» (32) وقد عكف عليه بعض العلماء المتأخرين فقدموا له شروحا. وقد انتهى منه القاضي في محرم سنة 532. وفي المواعظ ألف القاضي عياض كتاب «الخطب» ويشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمع.

وفي التاريخ والطبقات صنف القاضي عياض أربعة كتب هي «كتاب جامع التاريخ» وقد انفرد بذكره كل من أبي المحاسن بن تغرى بردي والجلال السيوطي. وقد أورده أبو المحاسن تحت العنوان سالف الذكر وأثنى عليه وقال عنه أنه كتاب جليل. واما السيوطي فقد ذكره في طبقات الحفاظ تحت عنوان «كتاب التاريخ» ولعل هذا الكتاب هو كتاب «تاريخ المرابطين» الذي انتهى فيه إلى سنة 540 هـ حسبما ذكره المقري.

---

31) الاية السابعة

32) النجوم الزاهرة وفيات سنة 544 هـ

والكتاب الثاني هو كتاب «تاريخ سبتة» المسمى «بالفنون الستة» وقد ذكره لسان الدين بن الخطيب في الجزء الثاني من «الإحاطة» عند ذكره كتب تواريخ المدن. وقال أن القاضي عياضا تركه في مسودته (33). أما المقري فقد ذكر أنه من الكتب التي لم يكملها المؤلف (34).

والكتاب الثالث من الشهرة بمكان. بل لعل له من الشهرة ما لكتابي «الشفا» و«المشارق». إنه كتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك» وقد ذكره السيوطي تحت عنوان «طبقات المالكية» (35) وذكره صلاح الدين الصفدي تحت عنوان «طبقات الفقهاء المالكية».

ولقد اختصره بعض العلماء المتأخرين تحت عنوان «المنتقى من المدارك» كما أفاد منه ابن فرحون فائدة كبرى حين صنف كتابه «الديباج المذهب في أعيان المذهب».

والكتاب الرابع لعياض في هذا الميدان هو كتاب «الغنية» ذكر فيه مشايخه وترجم لهم سواء في ذلك المشايخ المغاربة أو المشايخ الأندلسيون.

---

33) الاحاطة 83/2

34) أزهار الرياض 5/5

35) طبقات الحفاظ الترجمة رقم 1050

ومن مؤلفات القاضي عياض أيضا كتاب «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان» في مجلدين.

ومن كتبه التي تركها في المبيضة كتاب «مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور» وكتاب «نظم البرهان» على صحة جزم الأذان.

وفي الأدب والإنشاء ألف القاضي عياض كتاب «غنية الكاتب وبغية الطالب» في نحو أربعة أسفار.

بقي بعد ذلك رسالة ذكرها بروكلمان وقال أنها كتبت عند القبر المقدس (36)، وهي في أغلب ظننا تلك التي أوردها المقري في الجزء الرابع من أزهار الرياض بين مجموعة الرسائل التي سجلها للقاضي عياض.

إن القاضي عياضا وتلك مؤلفاته سمو منزلة، ونفاسة محتوى، وحسن تناول، وسلامة منهج، وبعد صيت، قد شهدت له بالصدارة إذا ما ذكر العلماء في عصره. والأمر الذي لا شك فيه أن القاضي عياضا كان قادرا على مزيد من العطاء في نطاق التصنيف الجاد والإنتاج العلمي المفيد. ولكنه لفرط استقامته والتزامه العدالة في القضاء ابتلى بحكام يؤرقهم هذا النوع من الرجال فنقلوه من بلد سبتة حيث كان الإستقرار

---

36) جاءت هذه الصفات مفرقة على أقلام العلماء الذين ترجموا لعياض / راجع أزهار الرياض 1/19 ـ 21

والإطمئنان إلى غرناطة، وفي فترة استقراره في سبتة صنف كثيرا من الكتب الهامة وفي مقدمتها «الشفا». ولم يكد يستقر به المقام في غرناطة وتستتم حلقة درسه تلك التي كانت أكمل ما تكون الحلقات في غرناطة حتى صرف من وظيفته، ثم رزىء بالفوضى السياسية في العقد الأخير من سنيه فكانَ ذلك كله معوقا له وحائلا بينه وبين مزيد من التأليف.

على أن عياضا لم يكن قاضيا وحسب، ولم يكن مصنفا مجودا وحسب، وإنما كان أستاذا عظيما بلغة عصرنا، وشيخا جليلا بلغة عصره، ومعلما رائدا بلغة عصرنا وعصره.

ليس كل من ألف كتبا وإن بلغت شأوا من الجودة بصالح لأن يكون شيخا أستاذا معلما، فلا بد أن يكون المعلم فضلا عن علمه صاحب مؤهلات أخرى كثيرة أجمع المؤرخون على أنها استتمت عند عياض منها حسن إلقاء المسائل، ودوام الإستعداد، والوقار والسمت الحسن، مع البشاشة وسعة الصدر والدعابة يقولها ويستمع إليها.

كان عياض موسوما بكل تلك الصفات، بل حائزا لجميع هذه المؤهلات وهو إلى ذلك كله حاضر الجواب، حاد الذهن متوقد الذكاء، جامعا للفنون آخذا منها بالحظ الأوفر، مع الخط الجميل وحسن العبارة ولطيف الإشارة.

ولا بد للمعلم أو الشيخ أن يكون قدوة لتلاميذه بل للناس جميعا في محيطه. ولقد وصف عياض بأنه ذو شيمة سنية وأخلاق مرضية مشكور عند جميع الناس (37). وكان كما وصفه تلميذه ابن القصير : برا بلسانه. جوادا ببنانه. كثير التخشع في صلاته مواصلا لصلاته - أي كثير الإحسان - وكان ظاهر الخشوع في التلاوة سريع العبرة مديما للتفكر والعبرة (38). فمن كانت هذه صفاته كان خير قدوة للناس وكان جديرا بأن يكون شيخا وأستاذا ومعلما.

ومن مؤهلات المعلم أن يكون بارا بشيوخه محبا لتلاميذه. وقد كان القاضي عياض حائزا لهاتين الصفتين موسوما بكلتا الخلتين. فاما بره بشيوخه فقد تمثل في مناسبات كثيرة لعل من إهمها أنه خلد ذكراهم بكتاب صنفه عنهم ضم نحو مائة منهم اسماه «الغنية» وقد مر ذكره في كتبه التي صنفها في التاريخ والطبقات ومن أهمها أيضا الترحم عليهم والإعتراف بفضلهم. ان ابن بشكوال يشير إلى ذلك في حديثه عن القاضي عياض قائلا : وقدم - أي عياض - علينا من قرطبة في ربيع الآخر سنة 531 وأخذنا عنه بعض ما عنده. وسمعته يقول : سمعت القاضي أبا علي حسن بن محمد الصدفي يقول : سمعت الإمام أبا محمد

---

37) وصف ابن خاتمة للقاضي عياض أزهار الرياض 8/10

38) أزهار الرياض 1/12

التميمي ببغداد يقول ، مالكم تأخذون العلم عنا وتستفيدون منا ثم لا تترحمون علينا. فرحم الله جميع من أخذنا عنه من شيوخنا وغيرهم (39).

واما بر عياض بتلاميذه فأمر ذلك مشهور معروف. فكل هذه الصفات الحميدة التي أثرت عنه إنما هي من روايات تلاميذه. ولو لم يكن كذلك ما احتفلوا بشأنه ذلك الإحتفال. ولا التفتوا إلى تقييد محاسنه في كل مناسبة ومجال.

ومن صفات العالم المعلم أن يكون منصفا في الحق متواضعا. وان يحسن الإستماع إذا ما صوب له أحد الناس خطأ وقع فيه. والا يركب رأسه وتأخذه العزة بالإثم. حتى ولو جاء هذا التصويب من أحد تلامذته.

أن عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد الأزدي الغرناطي المعروف با بن القصير وكان أحد تلامذة القاضي عياض في مجلس علمه بغرناطة يحكى هذه الحادثة الجليلة التي وقعت له مع شيخه فيقول (40) ، دخلت مجلس القاضي أبي الفضل عياض رحمه الله تعالى. إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة. و به جماعة من الطلبة والأعيان يسمعون تأليفه المسمى بالشفا. فلما وصل القارىء إلى هذه الكلمات ، «ومن قسم به أقسط» قرأه ثلاثيا. وكذلك كان في الأم التي كان يقرأ فيها. فقلت للقاضي وصل الله

---

39) تاريخ قضاة الأندلس ص 101

40) أزهار الرياض 1/13

توفيقه ، هذا لا يجوز في هذا الموضع. فقال ، ما تقول ؟ فقلت ، إنما هو أقسط لأن المراد في هذا الموضع «عدل» فالفعل منه رباعي. كما قال الله تعالى ، وأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ «وأما قسط فإنما هو» جار كما قال تعالى ، «وأَمَّا الْقَاسِطُونَ فكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا» فتعجب وقال لمن حضر ، إن هذا الكتاب قد قرأه علي من العالم ما لا يحصى كثرة ولا أقف على منتهى أعدادهم وما تنبه أحد لهذه اللفظة. ويمضى ابن القصير قائلا ، وفاه بلسان الأنصاف وأورثني ذلك عنده كرامة كبيرة ومبرة. ولم تزل مستمرة. وصنع من المكارم اجزلَ صنيع وأبره.

وبهذه المناسبة نذكر أن ابن القصير هنا. فعل مع شيوخه مثلما فعل عياض مع شيوخه. فصنف كتابا فيمن أدرك من أعيان العصر ونبهائه (41).

بقي بعد ذلك أن المعلم النابه والشيخ الجليل هو الذي ينجب تلامذة نابهين وعلماء مرموقين. أن تلامذة عياض يعدون حسب إحصائه هو بالألوف فقد سلف القول في مجال تصويب ابن القصير لفظة في كتاب «الشفاء» أن عياضا قال لمن حضر في تعجب ، «أن هذا الكتاب قد قرأه علي من العالم ما لا يحصى كثرة ولا أقف على منتهى أعدادهم. هذا فيما يتصل بكتاب الشفا وحده. فماذا كان الحال إذن وهو يقرأ

---

41) المصدر نفسه ص 12

«المشارق» وغيره من إخوته في علوم الحديث. ان كبر المجلس واتساع الحلقة ووفرة المستمعين لا تتوفر إلا عند المعلم الكبير والأستاذ الجليل. وقد كان عياض كذلك. فأما أشهر تلامذته فمنهم ابن القصير فقيها رفيع القدر صاحب رواية ودراية. ومنهم ابن بشكوال المؤرخ صاحب كتاب «الصلة» والقاضي أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي وثلاثتهم من كبار علماء عصرهم.

(3)

القاضي عياض الأديب :

شعر عياض

ان الدارس المتأنى لآثار عياض الأدبية من شعر ونثر - وهي غير قليلة - لا يستطيع أن ينكر موهبته الشعرية وقدرته النثيرية. ومع الموهبة كانت بيئة سبتة الأدبية تدفع به وبموهبته إلى النماء والنضج. فقد كانت سبتة تتضوع بعدد من أبنائها الشعراء المرموقين المعاصرين لعياض مثل على بن يقظان السبتى. وابن القابلة السبتي. ومحمد بن السبتي. وابن شقرون السبتى. وغير بعيد عن سبتة وفي طنجة على وجه التحديد كان يعيش شاعر المغرب المبدع القاضي أبو الحسن بن زنباع.

وأما في الأندلس على الشاطىء الآخر من سبتة والمغرب فكان يعيش انذاك كبار شعراء الأندلس من أمثال ابن خفاجة. وابن حمديس

والمخزومى الغرناطي وأبي بكر يحيى بن بقى. وابن سارة الأشبيلى، وابن باجة الشاعر الفيلسوف، وابن وضاح المرسى وابن الفخار المالقى، وابن الرفاء البلنسى. وابن الزقاق البلنسى. وأبي الصلت أمية بن عبد العزيز. وأبي الحسن جعفر بن ابراهيم بن الحاج اللرقى. وغيرهم من شعراء الذخيرة والخريدة والقلائد والمغرب. هذا وكان العهد غير بعيد بالملك الشاعر المعتمد بن عباد وشعرائه النابهين الكثيرين والمعتصم بن صمادح وشعرائه، وبقية شعراء ملوك الطوائف.

لقد كان القاضي عياض ينهل الشعر مع العلم. وكان يتنفسه في قراءاته، ويعيشه في حياته. فقد كان أكثر مشايخه شعراء مجيدين.

كان محمد بن عبد الله بن الفراء الجريري أحد شيوخه في سبتة من فحول الشعراء ومن شيوخه الأندلسيين الشعراء أبو الحسين بن سراج. كما كان والده أبو مروان بن سراج كذلك، ومنهم كذلك أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية ووالده أبو بكر غالب بن عطية، ومن العلماء الشعراء المجودين أيضا ابن السيد البطليوسي وابن العريف وابن العربي وغيرهم كثير.

كان القاضي عياض إذن يتنفس الشعر وينظمه ويتذوقه وينقده، وهو يعلن عن ذلك في قوله في افتتاح رسالة بعث بها إلى الفتح بن

خاقان صاحب قلائد العقيان وكان بينهما ود وصداقة ومطارحات شعرية ونثرية (42).

قل للأماجد والحديثُ شجــــونُ ... ما ضرَّ أنْ شابَ الوقارَ مُجــونُ
ولئن غدوتُ من العلوم بموضـع ... تُومي إليه أصابعٌ وعيــــونُ
فلديَّ للآدابِ نفسٌ صبّــــةٌ ... فيها إلى ملح الظروف وكـــونُ
كنّا افترقنا عند دعوى خطـــة ... ساءت بها فيما فهمتُ ظنـــونُ
فأتيتُ بالبرهان فيها نيِّــــرا ... وَعَدَتْ عوادٍ بعد ذَا وشئـــونُ
وبعثتُ حينئذ لِيُعْلَمَ أننـــى ... عينُ الزمان وسِرُّهُ المكنـــونُ

وإذا كانت الطبيعة هي المعيار الدقيق لتقييم قُدُرَاتِ الشعراء لما يحتاجه القول فيها من شفافية ورقة وإيقاع وتصوير وتلوين وتكوين. فإن عياضا ـ وهو منتبه إلى هذه الظاهرة ـ لا يكاد يقصر في المشاركة في وصفها مسبغا على شعره فيها سمة متميزة من الرقة وطابعا وضاحا من خفة الروح وسلاسة الصوغ وبراعة التصوير مثال ذلك ما يقوله عياض واصفا غداة باردة في الصيف : (43)

كأن كانونَ أهدى من ملابســه ... لشَهْرِ تَمّوزَ أنواعاً مــن الحُلَـــلِ
أو الغزالةُ من طولِ المدَى خَرِفَتْ ... فما تُفَرِّقُ بيْنَ الجِدْيِ والحَمَـلِ

42) أزهار الرياض 251/4

43) المصدر السابق الصفحة السابقة

ولقد تبارى الشعراء في وصف شقائق النعمان منفردة حينا ومع غيرها من النبات والأزهار حينا آخر إن القاضي عياضا لا يقصر في هذا الميدان، بل يسهم فيه بشعر رقيق ونظم أنيق، فيصف زروعا نبتت بينها شقائق النعمان وقد هبت عليها الرياح فيقول ، (44)

انظرْ إلى الزرعِ وخاماتِـهِ تَحْكِي وقدْ ماسَتْ أمامَ الريـاحْ
كتائباً تجفَـلُ مهزومـةً شقائـقُ النعمـانِ فيهـا جِـرّاحْ

وإذا كان القاضي عياض متحفظا في حياته متحنفا في سلوكه، فإن ذلك لم يحل بينه و بين أن يقول شعرا رقيقا في الغزل، فإن غزلياته على الرغم من القدر القليل الذي أنشأه في هذا الميدان من ميادين الشعر تعتبر من الرقة بمكان، ومن الأناقة بحيث يظن القارىء - إذا لم يكن يعرف أن عياضا هو قائلها - أنها لواحد من الشعراء العشاق، فمن أمثلة شعر عياض في الغزل قوله ، (45)

رَأَتْ قمرَ السماءِ فاذْكرتنـي لياليَ وَصْلها بالرقْمَتَيْـنِ
كِلَانَا نَاظِرٌ قَمَراً ولكـنْ رأيتُ بعينها ورأتْ بعيْنِـي

44) قلائد العقيان ص 223
45) النبوغ المغربي 2/ 53

وإذا كانت الصيغة الشعرية في البيتين السابقين تعمد إلى الظرف والدعابة في نطاق شعر الحب، فإن القاضي عياضا قد سلك سبيل العاشقين في الإفصاح عن عمق اللوعة وحرارة الصبابة في هذه الأبيات الأنيقة العميقة التي يقول فيها ، (46)

يا راحلين وبالفؤاد تحمّلوا	أترى لكم قبلَ المماتِ قفولُ
أمّا الفؤاد فعندكم أنباؤه	ولواعجٌ تنتابهُ وغليلُ
أترى لكم علمٌ بمنتزحِ الكرى	عن جفنٍ صَبٍّ ليلهُ موصولُ
أوْدَى بعزمةِ صبرهِ ولبابِهِ	طرفٌ أحمٌّ ومبسمٌ مصقولُ
ما ضرَّكم وأضنّكم بتحيةٍ	يحيى بها عند الوداع قتيلُ
انَّ البخيل بلحظةٍ أو لفظةٍ	أو عطفةٍ أو وقفةٍ لبخيلُ

ويعمد القاضي عياض أحيانا إلى السير في درب عمر بن أبي ربيعة والنسج على منواله أسلوب أداء ورنة إيقاع ولكن في نطاق من الحشمة ومسحة من الوقار بعيدا عن سفه ابن أبي ربيعة مترفعا عن تهافته.

يقول القاضي عياض في هذا السبيل ، (47)

46) أزهار الرياض 251/4

47) المصدر السابق ص 245

يا خليليَّ فاحملا بعض قولـــي للتي غادرتْ فؤادي عليـــلا
بَلِّغَا عنّيَ الثريا سلامـــا واذْكُراني لها وقُولا جميـــلا
خِلْتُ انيَّ ملكتها وإذا بـــي في يديها تخيُّلاً مستحيـــلا
لستُ أنسَى وكيف أنْسَى أنســى حينَ ألْقَى الدُّجَى عليها السُّدولا
هل إلى نظرةٍ سبيلٌ فإنـــي لست ابغِي إلاَّ إليها سبيـــلا

على أن هذه الأبيات لو أمعنا فيها النظر لوجدنا سمات رمزية متمشية في حواشيها وليس ببعيد أن يكون القاضي عياضا قد جعل الثريا رمزا للعلياء التي يتعشقها ويسمى إلى الفوز بها.

وللقاضي عياض كثير من المقطوعات الغزلية التي عمد فيها إلى الصنعة البديعية الغالية مثل لزوم ما لا يلزم أو ألوان الجناس المركب، ولعله في هذه المقطوعات لم يكن يقصد إلى الغزل النابع من وجدان عاشق بقدر ما كان يستهدف إظهار مقدرته البديعية من حيث التحكم في الألفاظ والتلاعب بالكلمات، أنه ينشىء أبياتا غزلية مع التزامه ما لا يلزم في قوله ، (48)

اذاتَ الخالِ كم ذَا تنتضيهـــا عليَّ سيوفُ عينيْكِ انتِضَـــاءَ
بِمَطْلِكِ لي مواعدَ اقْتَضِيهَـــا من التوريدِ واللَّمَسِ اقتضــاءَ
فَقَضِيِّ وعْدَ مطلِكِ وانجزيـــهِ «خيارُ الناسِ أحْسَنُهُم قضَـــاءَ»

---

48) أزهار الرياض 4/251

وينتقل بنا القاضي عياض الشاعر الصناع من لزوم ما لا يلزم إلى صنعة بديعية أكثر تعقيدا وأعنى بها الجناس المركب في مثل قوله ،

يا مَنْ تحمَّلَ عنيِّ غيرَ مكتـرِثٍ   لكنه للضَّنَى والسَّقْمُ أوْصَى بِـي
تركْتَني مـشهامَ القلبِ ذَا حُـرَقٍ   أخَا هوىً وَتَبَارِيحٍ وأوْصَـــابِ
أراقبُ النجمَ فيِجُنْحِ الدُّجَى سهراً   كأنني راصدٌ للنجم أوْ صَابِـي
وما وجدْتُ لذيذ النوم بعدَكُـمُ   الآَّ جنَى حنظلٍ في الطعم أوْ صَابِ

من الواضح أن هذا اللون من الصناعة البديعية كان قد بدأ يستهوى كثيرا من الشعراء المشارقة فانشأوا في ذلك فنونا كثيرة لعل أشهرها ذلك الفن الذي عرف بالخاليات ثم بدا للشعراء المغاربة والأندلسيين أن يسيروا في نفس الدربَ فانشأوا في ذلك الكثير من المقطوعات التي ظلت تتعقد شيئا فشيئا إلى أن وصل الحال بالشعراء إلى مثل ما أنشأه العماد الاصفهاني الكاتب حين رأى القاضي الفاضل ممتطيا صهوة فرسه وقد اثارت أقدامها الغبار من حوله فقال ،

امَّـا الغبـــارُ فإنــــــه   ممـا أثَارَتْـهُ السَّنَابِــــكْ
والجـوُّ منــهُ مظلـــــمٌ   لكنْ أنارتْهُ السَّنَى بِــكْ
يا دهرُ لِي عبدُ الرحيـــــمِ   فلسْتُ أخْشَى مَسَّ نَابِـكْ

هكذا نرى أن الأمر لم يقف بشمراء تلك الفترة الزمنية بالجناس المركب في آخر الأبيات، وإنما عمدوا إلى الغلو في المقطوعة الواحدة فأضافوا ألوانا أخرى من الجناس والطباق والتورية وما إلى ذلك من أصناف البديع.

وإذا كان القاضي عياض قد قال شعرا في الطبيعة والغزل وجود في كل من هذين الموضوعين من موضوعات الشعر، فإن الحقيقة التي ينبغي الاستمساك بها هي أن أكثر شعر القاضي عياض كان شعرا إخوانيا أخلاقيا، وهو ما يليق بالعلماء أكثر من لياقة الغزل لهم، ومن ثم فإننا نتوقع أن نقع على قصائد ومقطوعات إخوانية للقاضي الجليل على جانب من الجودة والتنوع تبعا للمناسبات التي قيلت فيها.

ومن أبرع القصائد الإخوانية التي قالها عياض جودة سبك ودفق عاطفة تلك التي أنشدها وهو يودع قرطبة في المحرم سنة 508 هـ وكان قد قصد إليها ليتلقى العلم على مشايخها وبقي فيها نحو ثمانية شهور لقي فيها من التكريم ما هو أهل له وتوطدت له صلات وتمعقت صداقات. فقال مودعا المدينة الأندلسية العتيدة وصحبه فيها :

أقولُ وقد جَدَّ ارتحالي وغَـرَّدَتْ ... حُدَاتي وَزُمَّتْ للفراقِ ركائبـي
وقدغمضتْ مِن كثرةِ الدمعِ مقلتـي ... وصارت هواء من فؤادي تَرَائِبِـي
ولم تَبْقَ إلاَّ وقفةٌ يستحِثُّهـا ... وَدَاعِيَ للأَحْبابِ لا للحبائـبِ

رَعَى اللهُ جيرانا بقرطبةَ العُلاَ ... وسَقى رُبَاهَا بالعِهَادِ السَّوَاكِبِ
وحيَّا زماناً بينهمْ قد أَلِفْتُهُ ... طَلِيقَ المُحَيَّا مُسْتَلاَنَ الجوانبِ
أَإِخْوانَنَا باللهِ فيها تذكَّرُوا ... مَعَاهِدَ جارٍ أو مَوَدَّةَ صاحبِ
غدَوْتُ بهمْ مِنْ بَرِّهِمْ واحْتِفَائِهِمْ ... كَأَنِّيَ في أهلي وبين أقاربي

وفي وصف ليلة جمعت من أصحاب القاضي كل ذي مكانة وفضل وجاه يقول عياض هذه الأبيات الاخوانية الرقيقة ، (49)

سَمَحَ الزمانُ بليلةٍ ... غراءَ جامعةِ السرورْ
أَجْنَتْ اكفُّ جُنَاتِها ... قَطْفَ الأماني والحبورْ
ما فُضَّ طينُ ختامها ... فيما تقدم من دهورْ
دارتْ على فَلَكِ السمو ... دِ بمثلِ اشباهِ البدورْ
من كل ما ملأتْ مهَا ... بَتُهُ العيونَ أو الصدورْ
ما إن تَرَى إلاّ أميـ ... ـراً حاز إرْثاً عن اميرْ
تخِذُوا القلوبَ أسِرَّةً ... وثَوَوْا بها عِوَضَ السريرْ
فعليهمُ وقفَ العَلاَ ... ءُ وإنْ تُدُووِلَتْ الأمورْ

وللمنتديات والإخوانيات عند القاضي عياض تقاليد متبعة وأنماط من السلوك لا سبيل إلى الخروج عليها. فمهما تبسط القوم في علاقاتهم

---

49) أزهار الرياض 4/246

الواحد بالآخر. فإن المزاح أمر مستكره ونهج مستقبح، وبخاصة عند العلماء. إن القاضي عياض يصوغ فكرته هذه. بل هذا اللون من السلوك بهذين البيتين اللذين عمد فيهما إلى الصنعة البديعية في نمط الجناس ولزوم ما لا يلزم فقال ، (50)

إذا ما نَشَرْتَ بِسَاطَ انبِسَاطٍ ... فعنهُ فَدَيْتكَ فاطْوِ المُزَاحَا
فإنَّ المزاحَ كما قَدْ حَكَاهُ ... أُولُو العِلْمِ قَبْلِي عن العلمِ زَاحَا

وللقاضي عياض نظريات في الحياة كان يترجم عنها شعرا لطيفا. فقد كان فيما يبدو لا يحب الأسفار، والمتتبع لمسيرة حياته يجد أنه كان قليل الإرتحال بالقياس إلى معاصريه وأترابه من العلماء. ولذلك فقد كان منسجما مع نفسه حين ذم السفر وذكر مضاره في هذه الأبيات ، (51).

تَقَعَّدْ عن الأسفار ان كنتَ طالبا ... نَجَاةً ففي الأسفارِ سبعُ عوائقِ
تَشَوُّقُ إخوانٍ وفَقْدُ احِبَّةٍ ... واعظمها يا صاحِ سُكْنَى الفنادِقِ
وكثرةُ ايحاشٍ وقلّةُ مؤنسٍ ... وتبذيرُ أموالٍ وخِيفةُ سارقِ
فإنْ قِيلَ في الأسفارِ كَسْبُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ واثقِ
فقدْ كان ذَا دهراً تقادَمَ عهدُهُ ... وَأَعْقَبَهُ دهرٌ شديدُ المضايقِ
فهذا مقالي والسلامُ كما بدا ... وجرِّبْ ففي التجريبِ علمُ الحقائقِ

---

50) فريدة القصر 3/504

51) النبوغ المغربي 3/141

ومن الغريب أن تكون هذه فلسفة القاضي عياض في الأسفار ذلك أن الناس مجمعون على فوائدها. ولا تزال الأبيات التي مطلعها «سافر ففي الأسفار خمس فوائد» ماثلة في خواطرنا وكذلك الأبيات التي مطلعها :

سافر تجدْ عوضاً عمنْ تفارقهُ ... وانصَبْ فإنَّ لذيذَ العيشِ في النَّصَبِ

بل انه من المفارقات اللطيفة أن يقول عياض في الأسفار ذلك الرأي الذي قاله بينما يقول معاصر له وإن كان أكبر منه عمرا قولا مغايرا تمام المغايرة. أنه الشيخ يعلى أبو جبل المتوفي بفاس سنة 503. فأما رأيه في السفر فيتمثل في هذه الأبيات :

سافرْ لتكسبَ في الأسفارِ فائدةً ... فَرُبَّ فائدةٍ تُلْقَى مع السفـرِ
ولا تُقِمْ بمكان لا تُصِيبُ بـه ... نُصْحاً ولوكنتَ بين الظِّلِّ والشجرِ
فإنَّ «موسى» كَلِيمُ الله أعْوَزَهُ ... علمٌ تكسَّبَهُ في صحبةِ «الخضرِ»

وللقاضي عياض همزية رقيقة عميقة فريدة في الشكوى انشأها حين ولي القضاء بمدينة «داي» ببلاد «تادلا» من المغرب سنة 541 هـ وكان قد ناهز الخامسة والستين من العمر. وتلك سن يحتاج المرء فيها إلى أن يكون مستقرا في بلده بين أهله وقومه لا متغربا مبتعدا بين قوم لا يعرفهم وليس يعلم طباعهم. وبخاصة إذا كان الإغتراب عن مدينة في موقع سبتة وجمالها. ان القاضي عياضا يضفي مسحة من الحزن على أبياته تتمشى في سطورها وقد أترعت بالأسى وفاضت بالحنين.

والغريب في أمر القاضي عياض في هذه القصيدة أنه ربما لأول مرة في حياته يحن ذلك الحنين الباكي الذي يجعله لا يتردد في أن يتوسل إلى أمير الموحدين ويرجوه في أن يعيده إلى موطنه ويجمع شمله باحبته وأهله حسبما هو واضح في البيت الأخير من تلك القصيدة التي يقول فيها : (53)

أقمريَّةَ الأدواحِ باللهِ طارحي   أخا شَجَنٍ بالنَّوحِ أو بغِنَاءِ
فقدْ أرقَتْني من هَدِيلِكِ رَنَّةٌ   تهيج من شوقي ومن بُرَحَائي
لعلكَ مثلي يا حمامُ فإنني   غريبٌ «بداي» قد بُليتَ بداءِ
فكم من فلاةٍ بين «داي» و«سبتة»   وخرقٍ بعيدِ الخافقين قواءِ
تُصفِّقُ فيه للرياحِ خوافقٌ   كما صَفْصَفَتْني زفرةُ الصعداءِ
يذكرني سحُّ المياهِ بأرضها   دموعاً أريقتْ يوم بِنْتُ ورائي
ويعجبني في سَهْلِها وحُزُونِها   خَمَائِلُ أشجارٍ تَرِفُّ لِرَائي
لعلَّ الذي كان التفرقُ حُكْمَهُ   سيجمعُ منّا الشملَ بعد تَنَائي

ومن المشاعر الطبيعية بالنسبة لعالم جليل مثل عياض هام بالرسول صلى الله عليه وسلم حبا فألف عنه واحدا من خيرة الكتب التي كتبت في هذا المقام الكريم أن يستبد به الشوق لزيارة المدينة المنورة والوقوف خشوعا أمام القبر الشريف. فقد حالت ظروف عياض بينه وبين

53) ازهار الرياض 4/268.267

هذه الأمنية في نطاق العمل فنفذها في نطاق الشوق وقال، وهي خير ما نختم به شعر عياض (54).

يا دارَ خير المرسلين ومن بــه — هَدْيُ الأنام وخُصَّ بالآيــات
عندي لأجلك لوعة وصبابـة — وتشوق متوقـد الجمـرات
وعليَّ عهدٌ إن ملأتُ محاجـرى — من تلكم الجدران والعرصـات
لأعفِّرَنَّ مصونَ شيبي بينهـا — من كثرةِ التقبيل والرشفـات
لولا العوادي والأعادي زُرتُهـا — أبداً ولو سَحْباً على الوجنـاتِ
لكنْ سأهدي من جميل تحيـةٍ — لقطينِ تلك الدارِ والحُجُـراتِ
أذكَى من المسكِ المفتَّقِ نفحـةً — تغشاه بالاصـالِ والبكـرات
وتخصه بزواكـيَ الصلـواتِ — ونَوامِيَ التسليـمِ والبركـاتِ

نثر القاضي عياض :

كان القاضي عياض في نثره لا يقل بلاغة عنه في شعره، وكان يسير في أسلوبه على نهج زمانه من حيث التزام السجع والعمد في كثير من الأحيان إلى الجناس والتصريع والإقتباس إلى غير ذلك من فنون الصناعة اللفظية التي شاعت في الشعر والنثر والحق أن المدرسة النثرية الأندلسية والمغربية كانت صدى دقيقا لمدرسة الكتابة المشرقية التي عرفت بمدرسة ا بن العميد.

---

(54) ازهار الرياض 4/180

فالقاضي عياض يكتب رسائله الإخوانية من خلال هذا النهج وإن كان يختار ألفاظا سهلة، وكلمات ذات رنين مع التزام للصنعة وربما إغراق فيها.

ان عياض يكتب رسالة إلى الفتح بن خاقان يحمله من خلالها تحية للرئيس أبي عبد الرحمن بن طاهر يقول فيها في نطاق من الغلو في الصنعة البديعية :

«عمادي أبا نصر، مثنّى الوزارة ووحيد العصر، هل لك في مِنّةٍ تفوتُ الحصر، تخِفُّ محملاً، وتبلغ أملاً، وتشكر قولاً وعملاً، شكراً تترنمُ به الحُداةُ ثقيلاً ورَمَلاً، إذا بلغْتَ الحضرةَ العليةَ مستلما، ولقيتَ الطاهرَ بن طاهرٍ فخرَ الوزارة مسلِّما، وَحَلَلْتَ من فِنَائِهِ الأرحبِ حَرَماً، ولمسْتَ بمصافحته ركنَ المَجْدِ يندى كَرَماً، فَقِفْ شوقي بعرفاتِ تلك المعارف، وانسُكْ شكري بمشاعرِ تلك العوارفِ، وأطِفْ اكباري بكعبةِ ذاك الجلال سَبْعاً، وبُوْ لودادي في مقرِّ ذلك الكمال رَبْعاً، وأبلغ عني تلك الفضائل سلَاماً، يلتثم بصريح الحُبِّ التثاما، ويحسن عني بظهر الغيب مقاماً، ويسير عني بأرج المجد إنْجادا وإتْهاما».

إننا من خلال نظرة سريعة نلحظ أسلوب صناعة متكاملة، ولكن حسبما أسلفنا القول قبل قليل، طابعها اليسر والإشراق باستثناء بعض الغلو الذي لم نسترح إليه في المديح واستعمال ألفاظ ذات قداسة مثل

الكمبة وعرفات في نطاق التورية، وهو مسبوق في استعمالها من قبل كتاب دونه مكانة علمية.

ومن رسالة أخرى لعياض أرسلها إلى الفتح بن خاقان - وقد حرص الفتح على إيراد عدد من رسائل القاضي إليه حتى يبدو في نظر الأجيال وكأنه ند لكبار الرجال - يقول فيها :

«في علمك سدَّد الله عُلاَ حُكمِك، ما جمعه فلان من جلائل، تشذ عن الحصر، وفضائل، يعترف له بها نبهاء العصر، يقول فيختلس العقول، ويمن، فيذهل الألباب ويحن، إن نظم، فعبِيدٌ أو لَبِيد، أو نثر، فعبد الحميد، أو ابن العميد، أو صال، فأبونعامة، أو انال، فكعب بن مامة، أو فاخر، فشجرة سيادة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا ذاكر، فبحر معارف لا تكدره الدلاء، إلى همة تصفع هامة الثريا، وعزة تمتهن الفضل بن يحيى، ولهجة، تخرس العَجَّاج، وبهجة تزري بنصر بن حَجَّاج، ولو كنت ابن أبي هالة، لما بلغت المنتهى له، على أني لم أنبه لشأنه ذا جهالة، لكنه الكلام بطرد، والبداية حسب ما ترد، اللسان ينطق ملء فيه، والجنان يرشح بما فيه».

إنه على رغم الجهد الكبير الذي بذله عياض لكي ينتهي برسالته تلك إلى هذا الثوب الأنيق من الجمل والألفاظ، فإننا لا نخطىء فيها طريقة أبي بكر الخوارزمي وهو يمزج بين السجعة القصيرة التي تمثلها

لفظة. والسجمة الطويلة المتمثلة في جملة. بل لعلنا لكثرة ما ذكر من أسماء الأعلام نراه متأثرا بابن زيدون في رسالته الهزلية هذا فضلا عن الإيغال في الصنعة اللفظية المتمثلة في التصريع الذي نلمسه من أول جملة في الرسالة فضلا عن الإكثار من التورية والجناس.

ومن رسائل القاضي عياض الإخوانية، التي سار فيها على نفس الدرب ولكن في رشاقة مقبولة وخفة محمودة قوله وقد عمد إلى السجع الملتزم والجناس والتصريع ومراعاة النظير، (55)

«لا بدَّ اعزك الله لكل حين، من بنين يُحلون عاطِلَه. ويُجْلونَ فضائله. ولكل مجال، من رجال، يقومون بأعبائه. ويهيمون في كل وادٍ بأَبْنَائِه. ولئن كانت جَمْرَةُ الأدبِ خامِدَةَ، وجَذْوَتُه هامِدَة، ولسانُهُ حَصِير. وإنسانُهُ حَسِير. فلن يُخَلِّيَهُ اللهُ من هلالٍ يطلُعُ فيشرق بسمائه بدراً. وزلال ينبع، فيفدق بفضائه بحرا، وبشبل يشدو، فيزأر من غابه ليثا. وبطل يبدو، فيمطرُ من ربابه غَيْثَاً».

ومجمل القول في كتابة عياض يكمن في التزام الزينات اللفظية ما كان له إلى ذلك من سبيل، ولم يكن القاضي الأديب ليحيد عن هذه الطريقة لأن طبيعة فن الإنشاء في ذلك الزمان كانت تسير في هذا الدرب امتدادا لأسلوب الكتابة المشرقية في العراق والعراق العجمي

---

55) قلائد العقيان ص 224

والشام ومصر. بل أن عياضا كان يسير في طريق التحدي الإنشائي الذي سار عليه بديع الزمان الهمداني حين كان يكتب هذا الأخير رسالة يبدؤها من آخرها إلى غير ذلك مما حفلت به دوائر النثر العربي منذ حلول القرن الرابع الهجري وما تلا ذلك من سنين. فلم يكن غريبا والحال كذلك أن يمضي عياض في طريق الغلو في الصنعة إلى المدى الذي جعله يكتب تلك الرسالة التي يضمنها سطورا لو حذفت منها ما اخلت بمعناها أو غيرت من سياقها (56).

تلك كانت طبيعة الرسائل التي توصف بالاخوانية أو الرسائل التي كانت توصف بالديوانية أو الرسمية. فأما الكتابة العلمية ونعني بذلك أسلوب الكتابة في التأليف فكان مختلفا عن ذلك اختلافا بينا على الأقل عند القاضي عياض. ولعل أسلوب كتابته في كتاب الشفا لأوضح دليل على ذلك.

إن عياضا في كتابته مؤلفه الجليل «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» مشرق العبارة. سلس الأسلوب. متحرر من الصناعة بكل صورها إلا إذا عرضت سجعة غير مقصودة. ولكنه كان يزاوج أحيانا بين الجمل. كما أنه كان يكثر من الترادف أو ما يشبه الترادف في غير ما عمد إلى الزينة أو قصد إلى الصنعة. وليس من شك في أن البساطة في

---

56) انظر الرسالة في أزهار الرياض 4/8 ـ 11

الأسلوب. واليسر في التناول هما الطابع الغالب على أسلوب عياض في «الشفا». كما ينبغي أن يكونا الطابع الملتزم في أسلوب كل كتاب يؤلف. ذلك أن هناك فرقا واضحا بين طبيعة إنشاء رسالة ووسيلة تأليف كتاب.

ولكي يكون الأمر من الوضوح بمكان فلنأخذ مثالا من كتاب «الشفا». وليكن هذا المثال ما هو كتبه عياض في حسن عشرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأدبه وبسط خلقه. يقول عياض، (57)

واما حُسْنُ عِشْرَتِهِ وأدَبِه وبَسْطُ خُلقِهِ صلى الله عليه وسلم مع أصناف الخلق فبحيثُ انتشرت به الأخبارُ الصحيحة قال عليٌّ رضي الله عنه في وصفه عليه الصلاة والسلام كان أوسع الناسِ صدراً وأصْدَقَ الناسِ لهجةً وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً وأكْرَمَهُمْ عِشْرَةً. حدثنا أبو الحسن على بن مشرف الأنماطي فيما أجازنيه وقرأته على غيره قال حدثنا أبو اسحق الحبال حدثنا أبو محمد بن النحاس حدثنا ابن الأعرابي حدثنا أبو داوود حدثنا هشام بن مروان ومحمد بن المثنى قالا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي سمعت يحيى بن أبي كثير يقول حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن قيس بن سعد قال زارنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وذكر قصة في آخرها ، فلما أراد الإنصرافَ قَرَّبَ له سعدٌ

57) الشفا 69/1 ـ 72 ط مصطفى البابي الحلبي

حماراً وَطّأ عليه بقطيفةٍ فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال سعد ، يا قيسُ اصْحَبْ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارْكَبْ فَأَبَيْتُ فقال ، إمَّا أنْ تركبْ وإما أن تنصرفْ. فانصرفتُ وفي رواية أخرى اركبْ أمامي فصاحبُ الدابة أَوْلَى بِمقدمِها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُؤلفُهُم ولا يُنفرُهُم ويُكرِمُ كريمَ كلِّ قومٍ ويُوليهِ عليهم وَيَحذرُ الناسَ ويحترسُ منهم من غيرِ أنْ يَطويَ عن أحدٍ منهم بِشرَه ولا خلقه. يتعهد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه. لاَ يَحسَبُ جليسُه أن أحداً أكرم عليه منه. مَنْ جَالَسَهُ أو قَارَبَهُ لحاجةٍ صَابَرَهُ حتى يكونَ هو المنصرفَ عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ فصار أبا وصاروا عنده في الحق سواء. بهذا وصفه ابن أبي هالة قال ، وكان دائمَ البِشْرِ سَهْلَ الخلقِ ليِّنَ الجانب ليس بفظ ولا غليظٍ ولا سخَّابٍ ولا فحَّاشٍ ولا عيَّابٍ ولا مدَّاح. يتغافل عمَّا لا يَشْتَهِي ولا يُؤيِسُ منه.

وقال الله تعالى ، «فَبِمَا رَحْمَةٍ من اللهِ لِنْتَ لَهمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» وقال تعالى ، «ادْفَعْ بالتي هِيَ أَحْسَنُ الاية» وكان يجيب من دعاه. ويقبل الهدية ولو كانت كُرَاعاً ويكافىء عليها. قال أنس رضي الله عنه ، خدمتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنين فما قال لي أُفٍّ قطُّ وما قال لشيء صنعتُهُ لِمَ صَنعْتَهُ ولا لشيءٍ تركتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ. وعن عائشة رضي الله عنها ، ما كان

أحدٌ أحسنَ خُلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال لَبَّيْكَ. وقال جرير بن عبد الله، ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم قطُّ منذ أسْلَمْتُ ولا رآني الا تبَسَّمَ وكان يمازحُ أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويُداعِبَ صِبْيَانَهم ويُجلِسُهُم في حِجْرِه ويجيبُ دعوةَ الحرِّ والعبْدِ والأَمَةِ والمسكينِ ويعودُ المرضى في أقْصَى المدينةِ ويَقْبَلُ عذرَ المعتذِرِ. قال أنس ما الْتَقَمَ أحدٌ أذُنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فَيُنحِّي رأسَهُ حتى يكونَ الرجلُ هو الذي يُنَحِّي رأسَهُ وما أخَذَ أحدٌ بيده فيرسلُ يدَهُ حتى يُرْسِلَها الآخِذُ ولم يُرَ مقدِّماً ركبتيه بين يَدَيْ جليسٍ له وكان يبدأ من لَقِيَهُ بالسلام ويبدأ أصحابَهُ بالمُصَافَحَةِ ولم يُرَ قَطُّ مَاداً رِجْلَيْهِ بين أصحابه حتى يُضَيِّقَ بهما على أحد. يُكْرِمُ من يدخلُ عليه وربما بَسَطَ له ثَوْبَه وَيُؤْثِرُه بالوسادة التي تحته. وَيَعْزِمُ عليه في الجلوسِ عليها انْ أبَى ويُكَنِّي أصحابَهُ ويدعوهم بأحَبِّ أسمائهم تَكْرِمَةً لهم. ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوَّزَ فيقطعهُ بنهيٍ أو قيام. - ويُرْوَى بانتهاءٍ أو قيامٍ - ورُوِيَ أنه كان لا يجلسُ إليه أحدٌ وهو يصلِّي إلا خَفَّفَ صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته. وكان أكثرَ الناسِ تبسُّما وأطيبَهُم نفساً ما لم يُنزَلْ عليه قرآنٌ أو يَعِظْ أو يَخْطُبْ. وقال عبد الله بن الحارث، ما رأيتُ أحدا أكثر تبسُّماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن أنس كان خَدَمُ المدينة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذا صلى الغَدَاةَ بآنِيَتِهِمْ فيها الماءُ فما يُؤْتَى بِإنيةٍ إلاّ غَمَسَ يَدَهُ فيها وربما كان ذلك في الغداة البارِدَة يريدون به التَّبَرُّكَ.

هذا وإني لا أجد نفسي مضطرا لذكر كوكبة العلماء الذين عاصروا عياضا في المغرب أو الأندلس فإن المضمار في ذلك يطول مجاله، ومن البداهة بمكان أن المشهورين المعروفين منهم يعدون بالمئات.

(4)

عياض في القضاء والسياسة :

إن تاريخ القضاء في الإسلام حافل بذكر الرجال الذين ولوا هذا المنصب الرفيع الخطير، وخلف كل منهم وراءه أحكاما عادلة تروى، وأنباء مثيرة تكتب. وتاريخ القضاء بالإسلام على الرغم من ذلك مليء بالطرائف مترع باللطائف، فبينما نجد الإمام أبا حنيفة يهرب من تولى القضاء إلى المدى الذي يتسبب في إلحاق الضرر به نجد كبير تلامذته أبا يوسف يلي أمر قضاء العباسيين ويصير قاضي قضاة الرشيد. وبينما نجد عبد الله بن وهب المصري كبير تلامذة مالك يفر من ولاية القضاء ويستخفى ويتهم نفسه بالجنون فيما لو قبل ولايته، نجد عياضا وهو كبير المالكية على زمانه يلي قضاء بلده مرتين وقضاء غرناطة مرة وقضاء البادية مرة ثالثة.

والحقيقة أن كلا من الفريقين - أعني من رفض ولاية القضاء ومن قبلها - على صواب، فلهذا حجته ولذاك أسبابه، ومهما كان الأمر فالقضاء - حسبما يقول الفاروق عمر - فريضة محكمة وسنة متبعة، ومن ثم فهو وظيفة لا مناص من ملئها. غير أن الإسلام وفر أحكاما يتحتم على القاضي أن يلتزم بها معرفة وإجادة، منها علم القاضي بكتاب الله عز وجل على الوجه الذي تصح به معرفة ما تضمنه من الأحكام ناسخا ومنسوخا ومحكما ومتشابها ومجملا ومفسرا وعموما وخصوصا. ومنها أن يكون القاضي عالما بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة من أقواله وأفعاله وطرق مجيئها في التواتر والاحاد والصحة والفساد وما كانت على سبب أو إطلاق. ومنها أن يكون عالما بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه ليتبع الإجماع ويجتهد برأيه في الخلاف. ومنها أن يكون عالما بالقياس الموجد لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها.

تلك أحكام لا بد للقاضي أن يكون مجودا لها. هذا فضلا عن صفات أخرى يجب أن تتوفر فيه كأن يكون رجلا بالغا صحيح التمييز جيد الفطنة بعيدا عن السهو والغفلة، وأن يكون قبل ذلك كله مسلما حرا صادقا أمينا لا تأخذه في الله لومة لائم.

كانت تلك المؤهلات جميعا وأكثر منها متوفرة في عياض. ولقد سلفت روايتنا لوصف ابن خاتمة لعياض حين قال ، وبالجملة كان جمال

العصر ومفخرة الأفق وينبوع المعرفة ومعدن الإفادة وإذا عدت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيهم صدرا (58).

لم يكن عياضا والأمر كذلك مجرد قاض من قضاة المسلمين المشهورين في تاريخ الإسلام وحسب وإنما كان صاحب نظر في القضاء وله دراسات في أحكامه ومسائله. فمن ذلك مبدأ حكم الحاكم بعلمه. أن القاضي عياضا يتناول هذا المسألة بالبحث والدراسة فيقول ، وقد اختلف العلماء في حكم الحاكم بعلمه وما سمعه في مجلس نظره. فمذهب مالك وأكثر أصحابه أن القاضي لا يقضي في شيء من الأشياء بعلمه. إلا فيما أقر به في مجلس قضائه. خاصة في الأموال. وبه قال الأوزاعي وجماعة من أصحاب مالك المدنيين وغيرهم. وحكوه عن مالك. وقال الشافعي في مشهور قوليه. وأبو ثور ومن تبعهما. إنه يقضى بعلمه في كل شيء من الأموال والحدود وغير ذلك مما سمعه أو رآه قبل قضائه وبعده. وبمصره وغيره. وذهب أبو حنيفة الى أنه يقضي بما سمعه في قضائه وفي مصره في الأموال (59).

والقاضي عياض يعرف مواقف الأئمة والفقهاء من القضاء حق المعرفة. من قبله منهم، ومن رفضه. وأسباب قبولهم أو امتناعهم. يسوق

---

58) أزهار الرياض 21/3

59) تاريخ قضاة الأندلس ص 7

عياض الأسباب الحقيقية التي كانت وراء امتناع الإمام أبي حنيفة عن تولي القضاء فيقول في «المدارك» في سياق الحديث عن عبد الله بن فروخ الفارسي فقيه القيروان في وقته ، (60)

إنه كان أكره الناس في القضاء، وكان يقول ـ وقد لقي أبا حنيفة ـ قلت لأبي حنيفة ما منعك أن تلي القضاء ؟ فقال لي ، يا ابن فروخ، القضاة ثلاثة، رجل يحسن العوم فأخذ البحر طولا فما عساه أن يعوم، يوشك أن يكل فيغرق، ورجل لا بأس بعومه عام يسيرا فغرق، ورجل لا يحسن العوم ألقى بنفسه على الماء فغرق لساعته (61).

تلك بعض نظرة أبي حنيفة إلى منصب القضاء كما رواها عياض عن عبد الله بن فروخ الفقيه معاصر أبي حنيفة. هذا فضلا عن جوانب أخرى لأبي حنيفة تمثل وجهة نظره في الإمتناع عن ولاية القضاء.

فإذا ما عدنا إلى الحديث عن عبد الله بن فروخ نفسه وتولى القضاء وجدنا أن القاضي عياضا يذكر موقف ابن فروخ في تلك القضية فيقول أن روح بن حاتم ـ وكان والي الرشيد على القيروان من 171 إلى 174 هـ وهي سنة وفاته ـ أرسل إلى ابن فروخ ليوليه القضاء فامتنع، فأمر به أن يربط ويصعد به على سطح الجامع فقيل له ، تقبل ؟ فقالا لا.

---

60) ولد ابن فروخ سنة 115 هـ وتوفي ـ في مصر سنة 176 هـ في عودته من الحج.

61) تاريخ قضاة الأندلس ص 15 عن ترتيب المدارك.

فأخذ ليطرح. فلما رأى العزم على الإنتقام منه قال ، قبلت. فأجلس في الجامع ومعه حرس. فتقدم إليه خصمان. فنظر إليهما وبكى طويلا. ثم رفع رأسه فقال لهما ، سألتكما بالله إلا أعفيتماني من أنفسكما. ولا تكونا أول مشوش علي. فرحماه وقاما عنه. فأعلم الحرس بذلك الوالي روح بن حاتم فقال ، اذهبوا إليه فقولوا له يشير علينا بمن نولى أو ما قبل. فقال ، إن يكن فعبد الله بن غانم (62) فإني رأيته شابا له صبابة يعنى بمسائل القضاة. فعليك به فإنه يعرف مقدار القضاء. فولى ابن غانم فكان يشاوره في كثير من أموره وأحكامه. فاشفق ابن فروخ من ذلك وقال ، يا أخي لم أقبلها أميرا. أقبلها وزيرا ؟ ! ! وخرج إلى مصر هربا من ذلك وورعا ومات هنالك (63).

لقد كان عياض عالما بأحكام القضاء عارفا بتاريخ القضاة ملما بأسماء من قبلوا ولايته ومن رفضوا مناصبه. ويدخل في ذلك أسباب القبول وأسباب الرفض. وقد ورد في أسباب رفض أبي حنيفة ولاية القضاء للمنصور العباسي أنه لن يستطيع الإستجابة لرغبات حجابه وعماله فيما لو دفعت المواقف بهم أو بأتباعهم إلى ساحة القضاء. وإن كان كثير من القضاة وقفوا في وجه الأمراء والملوك والخلفاء فضلا عن

62) هو عبد الله بن عمر بن غانم من سكان افريقية فقيه ورع ولي قضاء افريقية سنة 171 واستمر قاضيا الى أن مات سنة 190 بالقيروان وكان مولده سنة 128 هـ

63) تاريخ قضاة الأندلس ص 16

أتباعهم، فلقد وقف القاضي نصر بن طريف اليحصبي ـ ربما كان أحد أجداد عياض ـ في وجه عبد الرحمن الداخل وعنفه على تدخله لديه في شأن قضية كان أحد طرفيها ممن لهم بالأمير صلة ووشائج، كما وقف القاضي منذر بن سعيد البلوطي في وجه عبد الرحمن الناصر وقد كان الأمير نفسه أحد طرفي النزاع، بل أن عياضا نفسه فعل ذلك أكثر من مرة حين التزم العدالة في أحكامه التزاما مطلقا وكان ذلك سببا في تنحيته عن منصبه أكثر من مرة ولم يأبه لأمير أو يجامل ذا سلطان على ما سوف نبين فيما بعد.

لقد عاد عياض من رحلته بل بعثته الدراسية في الأندلس في جمادي الآخرة سنة 508 هـ فدخل مدينته الحبيبة إلى نفسه بعد غيبة غايتها ثلاثة عشر شهرا ملأ خلالها عقله علما، واترع لبه اثناءها فضلا، واثرى عطفيه طوالها أدبا، فرحب به أهل سبتة، إذ لم يكن فكرة يوم غادرهم، ولكنه تركهم ولسان حاله وحالهم القول الشريف ، «طالبان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال» وقد آثر عياض أن ينتظم الفريق الأول أعني الطالب للعلم فأجلسه القوم للمناظرة عليه في «المدونة» التي عليها تدور الأحكام في الفقه المالكي، بل هي كتابه الأول فقد كتبها سحنون عن عبد الرحمن بن القاسم المصري أحد تلاميذ الإمام مالك ومن أكثرهم نبوغا وأطولهم جلوسا إليه في ملجس درسه بالمدينة المنورة، وما أن جاز عياض بنجاح الإمتحان حتى أجلس للشورى وكان آنذاك في الثانية

والثلاثين من عمره أو يزيد قليلا. وكانت تلك المرحلة هي إعداده ليتسنم سدة القضاء الشريفة الرفيعة في سبتة.

فلما ان كان عياض في التاسعة والثلاثين وهي سن تمام العقل واكتمال النضج فضلا عن أنه كان قد استبحر علما واستتم نضجا. ولي قضاء سبتة في أواخر أيام شهر صفر سنة 515 هـ وظل متربعا على كرسي العدالة في بلده ستة عشر عاما تنقص شهرا واحدا لأنه نقل إلى غرناطة بكتاب وصل إليه في أول يوم من صفر عام 531 هـ

لقد جرى هذا النقل دونما سبب ظاهر. فمثل هذا النقل يعتبر نوعا من العقاب أو المؤاخذة لأنه انتقاص من سعادة القاضي الجليل فأتم ما يكون المرء سعادة وأكثر ما يكون استقراراً إذا كان قاطنا بلدته ومسقط رأسه. وبخاصة إذا كانت تلك البلدة من الجمال المادي والمعنوي مثلما كانت سبتة. فإذا تحرينا مأخذا على عياض طوال مدة قضائه في سبتة فإن أبصارنا لا تكاد تقع إلا على عالم جليل يوسع للناس في ساحته لكي يغدق عليهم علما. وقاض محمود السيرة عادل الأحكام مقيما للحدود. ومصلح ينشر الفضيلة ويعمر المساجد ويبني الأربطة.

إن ابن بشكوال وهو معاصر لعياض وواحد من ألمع تلاميذه يذكره عالما وقاضيا. وينقل عنه أبو الحسن النباهي وهو من أعيان قضاة الأندلس فيقولان ، إنه من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم.

واستقضى ببلده ـ أي سبتة ـ مدة طويلة فحمدت سيرته فيها ثم تولى عنها إلى قضاء غرناطة فلم يطل أمده بها (64).

ويطنب ابن خاتمة بعض الشيء في وصف عياض، إطناب إبانة وليس أطناب إملال فيقول ، «ثم ولي القضاء ـ في سبتة ـ فسار فيها أحسن سيرة، محمود الطريقة مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله، وبنى في جبل الميناء الرابطة المشهورة، إلى غير ذلك من الآثار المحمودة، والمساعي المرضية فعظم جاهه وبعد صيته» (65).

لعل هاتين الجملتين الأخيرتين من سيرة عياض تمثلان الخيط الرفيع بل السميك الذي يؤدي بنا إلى عزله من منصب كان فيه من العدل والصلاح بحيث عظم جاهه عند الناس وبعد صيته في الأقاليم. إن طائفة من الحكام في كل زمان تخشى الرجال الأقوياء أينما وجدوا، ويعدونهم خطرا على سلطانهم ولو لم يكن في خاطر هؤلاء الرجال ظلال من أطماع أو هواجس من أحلام، ثم أن القاضي إذا ما التزم جادة العدل في أحكامه فلن يفيد منه أعيان الدولة ورجالاتها الذين يعتبرون أنفسهم دائما طبقة متميزة ينبغي أن تكون بمنأي عن المؤاخذة فيما لو

---

64) الصلة الترجمة 974، تاريخ قضاة الأندلس ص 101

65) أزهار الرياض 3/ 10

أخطأت، وجديرة بأن يحكم لها لا عليها، ولم يكن عياض ليفعل ذلك، ومن ثم كان عزله من منصبه، وإرساله إلى بلد غير بلده لكي يتجنب الحاكم خطره، وحتى يعاقبه على عدم الإحتفال به والحكم له إذا ما كان طرفا في قضية، ولعل هذا الموقف هو الذي حدا الفقيه المشاور أبي الحسن بن هارون المالقي إلى أن يقول فيه مادحا ومنصفا ،

ظَلَمُوا عياضاً وهو يَحْلُمُ عَنْهُمْ ... والظلمُ بينَ العالمينَ قديمْ
جَعَلُوا مَكَانَ الراءِ عْيناً في إسمه ... كَيْ يكتُمُوهُ فإنَّهُ معلومُ
لولاهُ ما فاحتْ بطائحُ سبتَة ... والروضُ حولَ فِنَائِها معدومُ

وينتقل عياض إلى غرناطة ممتثلا لأمر الأمير ويأخذ طريقه إليها ويكون صيته قد طرق أسماع أهلها فيهب الغرناطيون لإستقباله كما يستقبل الفاتحون. يقول تلميذه الشيخ العلامة أبو زيد (وفي رواية أبو جعفر) عبد الرحمن الغرناطي المعروف بابن القصير ، (66) لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة، خرج الناس للقائه، وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمير مؤمر مثله، وَحَزَرْتُ أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا نيفا على مائتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثيرة (67).

66) طوف ابن القصير في البلاد وركب من تونس البحر يريد الحج فتصدى الافرنج للمركب فنشب قتال عنيف ابلى فيه الغرناطي بلاء حسنا واستشهد مع جماعة من المسلمين سنة 526 هـ

67) أزهار الرياض 11/3

ما أن يستقر القاضي عياض في غرناطة حتى يسير فيها سيرته في سبتة. دروس للناس وتنوير لهم، وفصل سريع في القضايا، وعدل مطلق في الأحكام دون نظر إلى أطراف النزاع الذين قد كان بعضهم يمت إلى الأمير بصلة أو نسب أو سبب، وهنا يضيق تاشفين (68) به ذرعا. «وغص بمراقبته، وصد أصحابه عن الباطل وخدمته عن الظلم، وتشريدهم عن الأعمال» وما أن يحن عياض إلى أهله في سبتة فيرحل إليهم زائرا، حتى يصدر تاشفين أمره بصرفه عن قضاء غرناطة، وكان ذلك في رمضان سنة 532 هـ ولما يمض ثمانية عشر شهرا على تقلده منصبه الجديد.

لقد وضح جيدا أن ما أوقعه تاشفين بالقاضي الجليل إنما كان بسبب عدله وعدم التمكين لإتباع الأمير وخدامه بالإفساد، وتجنيب الناس ظلمهم.

وتمضي أعوام سبعة وعياض بعيد عن القضاء ولكنه غير بعيد عن لعلم وطلاب العلم، فتتسع حلقته في سبتة ويفد عليه الوافدون ويرتحل إليه القصاد، ثم يرتحل هو بين الحين والآخر داخل المغرب حينا وعابرا إلى الأندلس حينا آخر، وربما عاش بعض الوقت في مالقة (69) واقتنى بعض الأملاك مما يرجح أنه أطال الإقامة بها، وفي تلك السنوات السبع

68) كان تاشفين أنذاك أميرا على غرناطة
69) تاريخ قضاة الأندلس للنباهي ص 101

تتاح الفرصة لعياض فيكتب عددا من كتبه النفيسة الكثيرة التي لم يكن ليستطيع تصنيفها بهذا العدد وذلك الإحكام لولا أن هيأت المقادير له تلك السنوات التي أبعد فيها عن القضاء.

وفي آخر عام 539 ـ وهو العام الذي قتل فيه تاشفين ـ وقبل موت الأمير ينشط على بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين إلى دعوة عياض ليتولى قضاء سبتة من جديد وهو في الثالثة والستين من العمر شيخا جليلا وعالما عظيما وقاضيا حكيما وأبا رحيما فيبتهج الناس بعودته ويعود معهم إلى سابق جميل سيرته. ولكن لا تكاد تمر شهور قليلة حتى تسقط دولة المرابطين وتتولى الأمور دولة جديدة هي دولة الموحدين. وهنا يجد القاضي عياض نفسه مضطرا لأن يخوض الحياة السياسية إن لم نقل المعارك الحربية. وإذا صح القول فإن عياضا خاض معركتي السياسة والحرب كلتيهما.

إذا كان للدول أعمار مثلما للإنسان. فقد بات أمرا طبيعيا أن تمر الدول بالمراحل التي يمر بها الإنسان طفولة. ثم شباب مليء بالفتوة. ثم رجولة واستقرار ثم شيخوخة ثم وفاة. وربما يحدث الاستثناء فتنشأ الدولة فتية لا تكاد تمر بمرحلة الطفولة كما حدث للدولة الإسلامية الأولى حين بدأ الفتح الإسلامي للأمصار. وكما حدث لدول كثيرة منها دولة الموحدين في المغرب التي قضت على دولة المرابطين الملثمين من

بني تاشفين، وكانت أحداث ذلك الزمان والصراع المرير بين الدولتين ، الدولة المرابطية الغاربة، والدولة الموحدية الغالبة، السبب الرئيسي المباشر في خوض القاضي عياض ساحتي السياسة والحرب.

كان محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي الملقب بالمهدي يحمل مبادىء دينية متشددة أراد تطبيقها في كل بلد حل فيه، فحضر مجلسا لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ورأى أمورا أنكرها عليه واعتبرها بدعا يجب القضاء عليها، فخرج على سلطة الدولة المرابطية وناصره أهل بلدته والتف حوله رجال أقوياء من بينهم شاب شديد الإيمان ابن صانع فخار إسمه عبد المؤمن بن علي تولى الأمر بعد موت ابن تومرت سنة 524 هـ ولقب نفسه بأمير المؤمنين وظل يضرب في أكناف المدن المغربية مستوليا عليها مكتسحا القلاع والحصون، فلما استفحل أمره وعجز أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين عن كسر شوكته مات كمدا سنة 537 أي بعد ثلاث سنوات فقط من خروج عبد المؤمن الذي بدأ حملاته منطلقا من «تينملل» في صفر سنة 534 هـ.

تولى أمر المرابطين بعد الأمير علي ولده تاشفين بن علي، وكان شجاعا بطلا - علم الرغم من خصومته مع عياض واقصائه اياه عن سدة القضاء في غرناطة، وكان قبل ذلك قد نقله من سبتة بلدته ومسقط رأسه - وفي أثناء حكم تاشفين، اتجه عبد المؤمن بجيشه الكبير إلى مدن

الغرب وحاول فتح سبتة ولكنها امتنعت عليه تماما وباءت محاولاته بالفشل. ولم يكن وراء امتناع سبتة عن السقوط جيش يقوده تاشفين كما قد يتبادر إلى الأذهان، وإنما كان القاضي عياض نفسه وراء هذا الصمود المظيم الذي ربما تكون سبتة وحدها قد تفردت به دون كثير من بلاد المغرب.

لم يكن القاضي عياض إذن قاضيا مرموقا وحسب أو فقيها عظيما وحسب. وإنما كان أيضا زعيما وأبا وسياسيا وقائدا. وكانت هذه الغزوة الفاشلة من قبل عبد المؤمن بن علي، وكان هذا الصمود الناجح من قبل سبتة وسكانها وعلى رأسهم قاضيهم وزعيمهم يمثل المرحلة الأولى من مراحل علاقة عياض بدولة الموحدين بشكل عام وبأميرهم عبد المؤمن بشكل خاص.

يمضي عبد المؤمن بن علي فاتحا مكتسحا مظفرا ويقف في مواجهته تاشفين الذي كان حتى ذلك الوقت يحمل لقب أمير المسلمين. وهو كما سلف القول كان بطلا شجاعا. غزا الأندلس في عهد أبيه سنة 520 وظل يفتح بلادهم ويحطم حصونهم لمدة اثنى عشرة سنة. فلما عاد إلى مراكش سنة 532 خرج أبوه بنفسه للقائه في موكب عظيم احتفاء به واحتفالا بانتصاراته. ولكن تاشفين في مواجهة عبد المؤمن بن علي كان يختلف عنه حين واجه الفرنجة. ولعل رياح التغيير وأقدار مصائر

الدول قد أسهمتا في الموقف، فقد باغت الموحدون معسكر تاشفين ليلا واضرموا النار حول حصنه فأسرع لكي يواجههم وامتطى صهوة جواده الذي كبا ـ ولم يكن يفعل قبل ذلك ـ فانقلب الفارس والجواد ومات تاشفين قتيلا سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بعد حكم لم يدم أكثر من عامين.

اما وقد قتل أمير المسلمين وفتحت كبار المدن مثل تلمسان وفاس وصار أمر عبد المؤمن من الإستفحال والإتساع بمكان لم يجد أهل سبتة ـ شأنهم في ذلك شأن سائر مدن المغرب ـ مفرا من مبايعة عبد المؤمن، وذهب القاضي عياض للقاء عبد المؤمن واجتمع به في مدينة «سلا» حين كان ذاهبا لفتح مراكش ـ التي سقطت في يده سنة 541 ـ فأحسن أمير الموحدين استقباله واجزل صلته، ونصب عبد المؤمن على سبتة واليا من أبناء بلدته هو يوسف بن مخلوف التنيمللي وساكن الموحدون أهل سبتة وعايشوهم (70). وتمثل تلك الأحداث المرحلة الثانية من مراحل صلة عياض بالموحدين.

كانت مدن المغرب قد تم اخضاعها لسلطان عبد المؤمن، ولكن الأمور لم تكن على جانب من الإستقرار الذي لا يكتمل بنيان الدول الناشئة إلا به، ذلك أنه لم يكد يقوم محمد بن هود بحركته، حتى

---

70) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 114/2

انتشرت الفتن، وانتقض المغرب على حكم عبد المؤمن، وكانت سبتة بزعامة القاضي عياض قد انتفضت بدورها، وقام السبتيون بقتل عامل الموحدين وأصحابه، وقيل أنهم لم يكتفوا بقتلهم وإنما حرقوهم بالنار أيضا، مما يدل على أن كراهية شديدة كانت كامنة في قلوبهم حيال الموحدين ورجالهم.

ولم يترك القاضي عياض الوقت يمضي سدى، بل سارع إلى ركوب البحر عابرا إلى الأندلس ماضيا للقاء يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية في قرطبة وكان معتصما بها، مستمسكا بالدعوة المرابطية، وقام عياض بمبايعته، وطلب إليه أن يعين واليا من قبله على سبتة، فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي، وكان فارسا شجاعا، كما كان معتصما بفاس أيام حصار عبد المؤمن لها، فدخل يحيى سبتة واليا عليها قائما بأمرها كمقاطعة مرابطية، وبذلك خرجت سبتة وأهلها من حظيرة الموحدين وعادت إلى حكم المرابطين في نطاق مقاومة حادة جادة قام بها القاضي عياض، وتلك هي المرحلة الثالثة في علاقة عياض بالموحدين وهي في الواقع علاقة خروج عليهم وعداوة لحكمهم.

جرى ذلك كله لافتقاد الدولة الجديدة كامل الإستقرار الذي أشرنا إليه قبل قليل، وكانت المعارك تجري هنا وهناك، والتي وقعت فيها هزائم نالت من صيت عبد المؤمن وسابق انتصاراته، فخرج من مراكش

ولم يكن قد استقر فيها بالقدر الذي يكفي لنفض غبار معاركه الطويلة سعيا إلى الإستيلاء عليها، وجرت معارك بين عبد المؤمن والخارجين عليه اشترك فيها يحيى بن أبي بكر الصحراوي والى سبتة الجديد فهزموا عبد المؤمن أول الأمر ثم لم تلبث الدائرة أن دارت عليهم فلاذ الصحرواي بالفرار، ثم طلب الأمان - حيث كان هاربا - من عبد المؤمن فأمنه. فوفد عليه وبايعه وحسنت طاعته لديه وكان ذلك سنة 542 هـ.

حينئذ لم يجد أهل سبتة - الذين قد فوجئوا بتوالي الأحداث وسرعتها - بدا من الكتابة إلى عبد المؤمن مبايعين، وذهب شيوخهم وشبابهم إلى مراكش فعفا عبد المؤمن عنهم كما عفا عن القاضي عياض، لكنه أبعده عن سبتة. ففي قول أنه أمره بسكنى مراكش، وفي قول آخر أنه ولاه قضاء «تدلا» حيث لم تمهل المنية القاضي العظيم الذي انهكه الجهاد وكان آنذاك في أواخر العقد السابع من عمره فانتقل إلى الرفيق الأعلى ودفن بمراكش. وكانت تلك هي المرحلة الرابعة والأخيرة في علاقة عياض بالموحدين.

لقد ثارت تساؤلات كثيرة حول مواقف القاضي عياض المتوالية من الموحدين من امتناع عليهم في أول الأمر، ثم مبايعة، ثم نقض للبيعة، ثم أخيرا مبايعته مع أهل بلدته واقصائه عن قضائها وأبعاده إلى «تدلا» ذلك الإبعاد الذي شاء الله الا يذوق عياض مرارته طويلا فرحل عن هذه الدنيا جميعا.

إن موقف القاضي عياض من غزو الموحدين كان موقفا عادلا. يليق صدوره من قاضي عادل مثل عياض. ذلك أنه كان للمرابطين بيعة في عنقه وأعناق أهل سبتة. وقد حدث الغزو الموحدي الأول وكانت دولة المرابطين لا تزال قائمة. وكان أميرها تاشفين بن علي يخوض المعارك ضد عبد المؤمن بن علي وحركته المدعمة بالجيش والسلاح. فكان من الطبيعي والأمر على هذا النحو أن يتصدى عياض وأهل بلدته لهؤلاء الغزاة الخارجين على أمير المسلمين تاشفين بن علي. ومن ثم حربهم وأحباط محاولتهم. وقد تم له ذلك بالفعل وتكسرت الموجة الموحدية الغازية على صخرة صمود سبتة وعلى رأسها قاضيها وفقيهها وزعيمها عياض بن موسى.

أما كيف قاد القاضي عياض الجيش. أو بالأحرى المقاومة التي كانت لا شك حسنة التسليح فأمر ذلك يسير - إذ ليس من المفروض في علماء المسلمين أن يكونوا مجرد فقهاء وائمة من حاملي المسابح. وإنما عليهم أن يتصدوا للأعداء وأن يحملوا السلاح للذود عن حمى بلادهم. وكان لعياض أسوة حسنة في شيخه الكبير أبي علي الصدفي الذي وقع صريعا ومات شهيدا على أسوار بلدته وهو يدفع عنها الغزو الإسباني. بل أن من بين فقهاء المسلمين من قاد الجيوش البرية والبحرية الفاتحة مثلما فعل الفقيه أسد بن الفرات الذي عبر من افريقية على رأس الأسطول

الإسلامي إلى صقلية وقاد الجيش الفاتح المتوغل في أراضي الجزيرة حتى استشهد على أسوار سرقوسه.

يبقى بعد ذلك سؤال ثان عن رحيل عياض إلى «سلا» لمقابلة عبد المؤمن بن/علي وعقد البيعة له. ثم الرجوع عنها هو وأهل سبتة والانضواء تحت راية ممثل الرابطين ابن غانية المقيم بعيدا في قرطبة. أن الأمر الذي لا مراء فيه أن القاضي عياض بحكم دينه وعلمه واجتهاده ومعايشته للأحداث ليس في حاجة إلى من يفسر له أمورا قررها، أو أحكاما أصدرها. فمثله جدير بأن يكون متبوعا ولا حاجة به إلى من يبرر أعماله أو يدافع عن أحكامه. ولكن ما دام مثل هذه التساؤلات قد أثيرت فإن الإجابة عليها - وهو نفس ما ذهب إليه صاحب الاستقصاء - يسيرة مقنعة مريحة. ذلك أن الموحدين قد آمنوا بمن أسموه الإمام وهو ابن تومرت، وجعلوا له صفة العصمة. والقاضي عياض ليس من أهل السنة وحسب، ولكنه فقيه أهل السنة آنذاك على الإطلاق - وهو تبعا لذلك ينكر هذا اللون من الإمامة الذي أقحم على الإسلام والمسلمين إقحاما - ومن ثم ينبغي التخلص منه متى حانت أول فرصة وان يكن قد بايع، فالبيعة آنذاك كانت حفاظا على سلامة بلدته وأهلها. أما وقد لاحت الفرصة بخروج بعض المدن على سلطان الموحدين. وكان للمرابطين في الوقت نفسه بقايا أنصار في المغرب والأندلس. فقد بات محتما على القاضي عياض أن يتحرك انسجاما مع عقيدته. فسارع إلى الخروج على

الموحدين والرحلة إلى ممثل المرابطين في قرطبة واستصحب معه في عودته إلى سبتة واليا مرابطيا عليها هو يحيى بن أبي بكر الصحراوي القائد الفارسي، وإلى هنا فلا تثريب على فعل عياض فإن هدفه كان مجسما في الحفاظ على عقيدة أهل بلده، وتجنيبهم الحكم القائم على بدعة الامامة المعصومة. أما وقد جرت الريح بما لم تشته السفن، وبزغت طوالع سعد الموحدين ولم يكن ثمة سبيل إلى سقوطها. فكان من العقل الإستسلام ثم المبايعة.

بقي بعد ذلك أن نقرر أن عبد المؤمن بن علي كان من عمق التجربة بحيث أبقى عددا من العلماء المغاربة على مقربة من بلاطه في مراكش بعيدين عن بلادهم كنوع من الحرص وخشية أن يعودوا إلى بلادهم فيؤلبوها عليه. فمات أكثرهم في مراكش ومنهم القاضي العظيم عياض بن موسى.

يبقى بعد ذلك أيضا أنَّ تَصَرُّفَ عياض في الدفاع عن سبتة قائدا وجنديا. وانغماسه في خضم السياسة يبدى الخضوع للموحدين ويضمر الولاء للمرابطين كل ذلك كان صدى للبيئة التي عاش فيها عياض. والمرء من سواد الناس تشغله أحداث بيئته. فإذا كان المرء من طائفة العلماء بل رئيسا للعلماء بات من المحتم عليه لا أن يسهم فيها وحسب. وإنما عليه أن يقودها ويتحمل أعباءها ويرضى بنتائجها.

القاهـــرة　　　　　　　　د.مصطفى الشكعـه

كتاب الاحاطة

لابن الخطيب

- 8 -

محمد ابن تاويت

كنا قد أشرنا في تعليقنا على الجزء الأول إلى كون الكتاب اختصارا للاحاطة، وأخيرا تنبه الأستاذ عنان إلى ذلك مفاجأ به. ويبدو أن الاختصار لم يكن بذلك الذي ينال كثيرا من أصله، ولهذا فإننا نجد النقول عنه بالنفح لاتختلف كثيرا عما هو مذكور بهذا المختصر والا فإن هذا يجعلنا نشك في كون المقري ناقلا عن الأصل. إذ ربما كانت نقوله عن هذا المختصر كذلك.

ومهما يكن، فإننا نستمر في عملنا منبهين على ماورد في هذا الجزء الأخير من أخطاء وتصحيف وتحريف ونحو ذلك. فقد ورد بالصفحة 4 من المقدمة ما يلي : «حيث تشغل تراجمه المائة سبع

وعشرون» فلعله يريد «السبع والعشرون والمائة» وفي نهاية الصفحة 11 من الكتاب، جاء ما يلي «أطلع منه نورا أضاءت الآفاق. وأثرى منه» وصوابه «أضاءت له الآفاق، وأثر منه».

وفي الصفحة 13 ورد «وأبناء عمه عمر وعلي «والصواب» وابنا عمه عمر وعلي «وفيها تصحف» ابن محرز بابن محزز. وكذلك ضبط استيفاءهم. في آخر الصفحة بالكسر بدل الفتح.

وفي الصفحة 14 ضبط أول السطر «استيفاء» بالكسر كذلك. وصوابه الرفع على الفاعلية. وفي السطر الثاني ضبط بالكسر الاستقصاء. وصوابه الضم. وفي آخر البيت الثاني، تحرف «حجول» بخجول. ولا معنى للخجل هنا. وفي البيت العاشر تحرف «رباه» بالياء. ولا يستقيم «رياه» معنى ولا وزنا.

وفي الصفحة 15 وردت في البيت الرابع بها كلمة «صفرة» وعلق عليها بأنها في النفح «صعوة» والصواب «صعدة» بالدال لا بالواو ثم جاءت الشطرة «ولولا السرى لم يجتل البدر كاملا» بفتح السين. وبناء فعل «يجتل» للمجهول. والصواب الضم فالبناء للمعلوم

وفي الصفحة 15 أيضا جاء بيت هكذا :

وماجونة هطالة ذات هيدب   مرتها شمال مرجف وقبـــول

وضبط «وماجونة» بضم الجيم وجعل الجميع كلمة واحدة. مع أنه كلمتان، «ما» النافية لجونة. بفتح الجيم. وفي المصراع الثاني ضبط «مرتها» بسكون الراء وضم التاء. والصواب فتح الراء وتسكين التاء. وفيه تحرف «حرجف» بمرجف. كما رأينا. ولا معنى لهذا.

وجاء البيت الخامس عشر بالصفحة هكذا ؛

ولولا روضة بالحسن طيبة الشذا

وهو لا يتزن. وصوابه ؛

ولا روضة بالحزن طيبة الشذا

وعلق المحقق على كلمة «الحسن» الواردة. بأنها في الاسكوريال «الحزن» قال. والتصويب من النفح وهو أنسب وبهذا أثبت «الحسن» الذي أثبته كذلك بالنفح الدكتور إحسان عباس. وكلاهما مخطيء. والصواب هو «الحزن» وواضح أن صنيع الشاعر مأخوذ من قول ابن عبد ربه ؛

وما روضة بالحزن حاك لهاالندى   بروداً من الموشي حمر الشقائق
بأطيب نشرا من خلائقه التي   لها خضعت فيالحسن زهرالخلائق

فقلده إذ قال ؛

ولا روضة بالحزن طيبة الشذا   ينم عليها اذخر وجليل
بأطيب من أخلاقه الغر كلما   تفاقم خطب للزمان يهول

وكان ابن عبد ربه قد نظر إلى قول الأعشى ،

ما روضة من رياض الحزن معشبة   خضراء جاد عليها مسبل هطـل
يوما بأطيب منها نشر رائحـــة   ولا بأحسن منها إذ دنا الأصـل

ولا شك أن قائل هذا الشعر، الذي انتحل للأعشى، نظر إلى الآية الكريمة «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل».

وبذلك يكون البيت منتحلا في نسبته للأعشى، وندرك قيمة الشك أو الإنكار لكثير من أشعار الجاهلية، بما فيها بعض ما ورد بالمعلقات والوضاعون موجودون في كل زمان ومكان (1).

وأخيرا جاء مصراع هكذا «حويت أبا عبد الآه مناقبا» وصوابه «عبد الإله»...

وفي الصفحة 16 شكل «درك» بالسكون، بدل الفتح في المصراع «فناك رجال حاولوا درك العلا» فالوزن لا يستقيم بالسكون كما رأينا.

1) وبالصدفة قرأت (هذا الصباح الذي أكتب فيه كلمتي هذه) صفحة مما نشر لي عن سبتة بمجلة البحث العلمي، فوجدت فيها ذكر رجلين، لانسبة لهما بسبتة، وهما ابن الخطيب، وابن عميرة، تطوع بذكرهما بعض المجلين والله أعلم بحالهم.. وذلك في الصفحة 128 من العدد 26 حيث وضع أحدهما بين هلالين إشارة إلى التطوع ثم قال في ابن الخطيب : «وله تآليف فيه عديدة عفا الله عنه..

وجاء مصراع ثان للبيت الرابع عشر به هكذا:

ذراك برجلي هوجل وهجول

والصواب «برجلى...» وفي آخر المصراع الأول من البيت السابع عشر، سقطت الهاء من ضده.

وفي الصفحة 17 جاء بيت هكذا:

ويالأيام بنيولش لقد عدت عنها صروف العواد

وصوابه:

ويالأيام ببنيولش لقد عدت عنها صروف العواد

وأخيرا جاء مصراع هكذا:

بعز القناعة ذل القنوع

وعلق عليه بأنه في نص آخر:

«بعز القناعة ذل الخشوع»

وكان يجب عليه الاقتصار على هذا إذ لا معنى بذكر غيره.

وفي الصفحة 18 جاء «وقع هنا بياض مقدار وجهة في أصل الشيخ» وهو غامض ولعل «النسخ» تحرفت بالشيخ فيه.

وفي الصفحة 19 ضبط في السطر الثالث «وأنسيته» بالبناء للمعلوم. والصواب بناؤه للمجهول. ثم جاءت أبيات في غاية التصحيف والتحريف واختلال الوزن. منها :

قد تاب القلب فما يدري إن لم تدرك

ولعل صوابه :

قد تيه القلب فما يدرك إن لم تدرك

ومنها :

أو لن يكن حل دمي فلتبطئي أو اترك

ولا يستقيم إلا بنحو :

إن لم يكن حل دمي فلتبطئي أو اتركي

ثم ضبط البيت :

يالفتى ياقبلتي ياحجتي يانسكي

بضم القاف من قبتلي وفتح الحاء من حجتي والنون من نسكي.

والصواب كسر القاف والحاء وضم النون. وبعد هذا ثلاثة أبيات هكذا :

إن عظم الحزن فما أرجل حسن فلك

أو أهديت الحي فلابن عبد الملك

خطيب ومران للذي سلك على سلك

وهي كما نرى لا يرأب صدعها. وابن عبد الملك هنا لعله صاحب الذيل. قاضي مراكش على عهد الشاعر. الذي كان بها يستجدى كفيرها .

وفي الصفحة 20 ورد «حليق الرأس. دمينه» ولعله «دميمه».

وفي الصفحة 21 جاء أولها «كان شاعرا مكثرا. سيال القريحة. منحط الطبقة. متجندا... «فلعل الأخيرة. محرفة عن «متجنيا» وفي الأسطر الستة الأخيرة من الصفحة. ذكر كلام منثور للملزوزي. جعله المحقق شعرا في ستة أبيات. وهذا منتهى ما يتصور من الجهل بالموازين.

وفي الصفحة 22 جاء مصراع هكذا :

«اليوم يوم نزهة وعقار»

وصوابه :

«اليوم يوم نزاهة وعقار»

(بالألف بعد الزاي. وبذلك يتأتى الوزن) ثم جاء آخر هكذا :

«بمدامته تبدو كشعلة نار»

ولا يتأتى وزنه إلا هكذا :

«بمدامة تبدو كشعلة نار»

ثم جاء بيت هكذا :

لكن تركت سروره ومدامه حتى   أكون لديه ذا أفكار

وصواب المصراع الأول انتهاؤه عند «مدامه»

وفي الصفحة 23 جاء أولها بيت هكذا :

كم بات في جنح الظلام معانقي ومجنت في صفروى إلى مجنـــون

فالمصراع الأول بين. وان كان المحقق ضبط الجيم بالفتح بدل الضم. ولكن المصراع الثاني لا يستقيم بكل حال. لامبنى ولا معنى وفي البيت الثالث ضبط «الورق» بكسر الواو. بدل ضمها. ثم جاء أو أبيات من أخرى هكذا :

ياظبية الوعـــاء قد برح الخفا اني صبرت على غرامك ماكفى

وعلى على كلمة «غرام» المضافة للضمير. بأنها في نسخة الرباط من «نظم السلوك» «فراقك».

أما كونها «فراقك» فهو الصواب الواجب إثباته. وأما كونها من «نظم السلوك» فهذا غير صحيح؛ ولا علاقة للأبيات بهذا النظم.

وبعد البيت جاء بيتان هكذا :

كم قد عصيت على هواك عواذلي وأناب بالتبعيد منك وبالجفـا
حلمتني ما لا أطيق من الهوى وسقيتني من غنج لحظك فرقفا

ففي الأول تحرف «أثاب» بأناب. وفي الأخير. تصحفت «قرقفا» بفرقف. والغالب في هذين التصحيفين أنهما من الطباعة. خصوصا الأخير منهما.

وفي البيت بعدهما جاء «النحول» هكذا «آلنحول» وهو كذلك من الطباعة. وفي السابع عشر من الأسطر ضبط «فراقه» بالرفع، بدل الجر.

وفي الصفحة 24 جاء بيت هكذا :

والموج يأتي كالجبال عبابه

وعلق على كلمة «الموج» بأنه في الاسكوريال «الموت» والتصويب من نظم السلوك.

ونعيد القول بأن هذه الأبيات لاعلاقه لها بنظم السلوك التاريخي، الذي هو من بحر الوافر. وهذه الأبيات من الكامل وجاء البيت قبل الأخير من الصفحة هكذا :

«فالجود يصلح ما تعلم في العلا»

وصوابه «ما تثلم»

وفي الصفحة 25 جاء مصراع هكذا :

«في نظم فخرك كيف شا تصرفا»

ولا يستقيم وزنه إلا بإثبات همزة «شاء» ثم جاء أول مرثية :

سهم المنية أين منه فرار   من في البرية من رجاه يجار

وصوابه «من رداه يجار»

ثم جاء بيت هكذا :

منعوا السرى للقباب وأسكنوا   بطن الثرى حكمت بذاك عليهم الأقدار

ولا يستقيم وزنه ومعناه، وصوابه :

منعوا القباب وأسكنوا بطن الثرى   حكمت بذاك عليهم الأقدار

وفي آخر الصفحة جاء مصراع هكذا :

«بعلا سواك فهجرهم انكار»

وصوابه :

بعلا سواك فعرفهم انكار

وفي الصفحة 26 جاء بيت هكذا :

لما وقفت بقبره مترحما   حان العزا وهاجني استعبار

فالصواب في المصراع الثاني «بان» «بدل» «حان» ثم اثبات همزة «العزاء» ليتزن البيت بذلك .

وبعد بيت جاء آخر هكذا :

يازايريه استغفروا لمليككم   ملك الملوك فإنه غفار

(برفع «ملك» والصواب نصبه مفعولا به) وهو على نمط قوله تعالى : «استغفروا ربكم إنه كان غفارا»...

وفي آخر الصفحة جاء بيت ضمن أخرى من الوافر هكذا :

رحيب بنا فضل غير وان   عن الافضال في هذا الأوان

وهو لا يستقيم وزنا ولا معنى. ولا تستطاع إقامته.

وفي الصفحة 27 جاء بيت من نفس القصيدة هكذا :

أبو عبد لي انه المنتمـى حتـى   مساوى الفضل في سرى العنـان

وهنا أعوص من سابقه وأغمض وأفسد. وبعد هذا آخر هكذا :

ذرانـي فـي مجادتـه محبـا   فهش لما به يحوي جنـان

(فلعل «ذراني» محرفا عن «رآني»)

ثم جاء بيت خامس بالصحيفة هكذا :

ـر للـه ما أولـى ليـر   وليس كمن رآني فـازدران

(فالمصراع الأول لا يستقيم مطلقا)

ثم أبيات هكذا :

وكم زهر رآه وسط روض   وكم هاذ يدى بين الدنان
فأيدوا الإله لسوف يأتي   لكم مني سوابق في الرهان
متى خف ازدحام من همومي   ورجيت الامان مع أمـان
فها أنذا ببركم غنا بي ولي   منكم على بمدي تـدان
محبك حيث كنت بلا سلو   وضيفك في البعاد وفي التوان
ثنائي ثابت يبقى بقـاى   ومن بعدى على طول الزمـان
وما تهب الأكف قراك فـان   وما تهب الطروس فغير فـان

فالمصراع الثاني من الأول لا يستقيم له معنى ولا مبنى ولعله «وكم دن يرى بين الدنان» والمصراع الأول من الثاني لا يستقيم وزنه ولعله «فوأيم الإله لسوف يأتي» والمصراع الثاني من الثالث لعله :

«ورجيت الأماني مع أمان»

والمصراع الأول من الرابع غامض بغذا بي، الذي ينتهي به المصراع، وبداية الثاني «ولي» ولعل الكلمة الأخيرة من الخامس، محرفة عن «التدان» ولعل السادس «ثنائي ثابت يبقى بقائي»

وأخيرا فإن المصراع الأول لعله :

«وما تهب الأكف فذاك فإن»

وفي الصفحة 28 جاء ذكر المزياتي، محرفا بالزياني مرتين، ثم ذكر له بيت شعر هكذا :

انظر إلى نارية نورها يصدع بالألاء حجب الغسق

وحق المصراع الأول انتهاؤه بنورها، وصواب ضبط حجب ضم الحاء وتسكين الجيم، لافتحهما معا، كما هما عليه.

وفي الصفحة 29 جاء بيتان هكذا :

لاتيأسن من رجا كهف الملوك أبي سعيد المرتجى للنفع والضرر
فإنما شيء مثل الرعد يتبعه برق ومن بعده ينهل المطر

وصواب المصراع الأول من الأول انتهاؤه بأبي. وصواب البيت الثاني هكذا :

فإنما هو شيء مثل الرعد يتبعـــه   برق ومن بعده ينهـــل بالمطــر

وفي الصفحة 30 جاءت ا بنة بهمز القطع، ونقطت هاء جلسائه. ولاشك أن الأخيرة من عمل الطباعة. أما الأولى فتكررت كثيرا بالأجزاء كلها، مما اضطرنا إلى التنبيه عليه هنا. وكذلك الشأن في الاسم الوارد بالقطع دائما أو غالبا. في الأجزاء كلها أيضا.

(وفي الصفحة 31 ورد فيها «وعندما تعرف يغمور... ذلك كله على بلاده، بما منع من الحركة..» فهنا اختلال بسقط أو غيره، لم نهتد إلى وجه صواب الكلام بسببه. ثم تصحفت كلمة يكنى بالنقط، الذي غالبا ما أهملنا التنبيه عليه لحدوثه من الطباعة.

وفي الصفحة 32 كذلك وقع التصحيف بالنقط في كلمة «حججا» بالسطر الخامس منها، ونحو هذا وضع شولة بين «له» و «مشاركة» في السطر السادس عشر. وكل ذلك من الطباعة. وينبغي إصلاحه على كل حال.

وفي الصفحة 33 جاء بالسطرين الرابع والخامس «ولقد مشى به للمغاربة بحظ في الحرم الشريف، لم يكن لهم في غير مدته» وهو كلام مضطرب في أوله، بسبب التصحيف أو التحريف ونحوه.

وفي الصفحة 34 جاء فيها ذكر للمسائل الصقلية. وهي مسائل معروفة في أدبنا الأندلسي والمغربي. ولا حاجة إلى التعليق عليها. بكونها في الزيتونة العقلية. ولا تكاد تخلو ترجمة لابن سبعين من ذكرها.

وفي الصفحة 35 جاء «حيث شريعتك وحيث حقيقتك» بجر الشريعة والحقيقة. والصواب رفعهما. على الابتدائية أو الخبرية.

وفي الصفحة 36 ورد «وذوقوا مفصل الذات الروحانية ومحملها» والصواب «ومجملها» بالجيم وضم الميم الأولى لافتحها.

وفي الصفحة 37 جاء في السطر الثامن «ولا نسبة بيتي وبيته» بالتاء فيهما وهو تحريف من الطباعة. وفي آخرها بيتان هكذا:

ظللت تسئل عن نجد وأنت بها وعن تهامة هذا فعل متهم

في الحي حتى ولا سوى ليلى وتسألها عنها سؤالك وهم جر للعدم

والصواب في الأول «تسأل» بالبناء للمعلوم. والمصراع الأول من الثاني مضطرب ومكسور. والمصراع الثاني يبتديء بعنها .

وفي الصفحة 38 جاء بالسطر الثامن «ومنازع الخلفاء» بالضم بدل الكسر للخلفاء.

وفي الصفحة 39 جاء في الصفحة التاسعة «قد أذن ذلك» والصواب «آذن» بالمد.

وفي الصفحة 40 جاء في السطر الأول «فلم يحل بطايل» مضموم الحاء. والصواب تسكينها. وفي الثاني «وأصبحت فتنته سمر الركاب» بكسر الراء. والصواب ضمها.

وفي الصفحة 41 جاءضمن أبيات. البيت هكذا :

ولـه يـوم بلـي وقعـة لـــم   تـدع للكفـر رأسـا فـي ثبـــج

وصواب المصراع الأول انتهاؤه بوقعة. ثم جاء البيتان الأخيران منها هكذا :

دفعتهـم حملـة السيـــل إلـــى   كافـح الأمـواج مخـض اللجــج
فتـح الله على الديـن بـــه   وعلـى الإسـلام ياعامـر تتـج

وصواب البيتين هكذا :

دفعتهـم حملـة السيـــل إلـــى   كافـح الأمـواج مخضـر اللجــج
فتـح اللـه علـى الديـن بـــه   وعلى الإسـلام بابا مرتتـــج

وفي الصفحة 42 ورد «كان جدهم» بنصب بدل الرفع. كما ضبط لام «البلوط» بالفتح وصوابه الضم.

وفي الصفحة 43 جاء أول السطر الثاني «ابنه» بالهمز المقطوع. كذلك. وفي آخر الثالث توفي بالثاء. وفي أول الحادي عشر «لسن» مسكن السين.والصواب فتحها. وجاء أول الأبيات بالصفحة فعل «ينيطون» بفتح الياء. والصواب ضمها. وفي الثاني «صلة» بفتح الصاد بدل كسرها.

وفي الصفحة 44 جاء في البيت الأول بالصفحة «وورد التقي شمي» بكسر واو ورد. بدل فتحها. وفي الثاني ضبط «جنى النحل» بكسر الجيم والصواب فتحها. وفي آخر الرابع. ضبط «يقلي» بضم الياء. والصواب فتحها. مضارع قلى. أي أبغض. بالبناء للفاعل. وفي البيت السادس. ضبط «الأولى» بضم الهمزة والصواب فتحها. ثم جاء بيتان من ثلاثة هكذا :

على ذلل مـن نتـاج البـروق   في ظـل مـن نسيـج الشجـر
فحسبـي ممـن نأى ومـن دنـا   فمن غاب كان كمن قد حضـر

وصوا بهما :

على ذلل من نتـاج البـرو   ق في ظلل من نسيج الشجـر
فحسبي ممن نأى من دنـا   فمن غاب كان فدا من حضـر

وفي الصفحة 45 ضبط «ورقها» في السطر السادس. بكسر الواو بدل ضمها. وسبق له هنا كثيرا في الأجزاء السالفة وفي هذا. كما تقدم. ثم ضبط «زهوه» في السابع بتسكين الواو. والصواب ضمها. وفي أول السابع. ورد «وأقبل خدامه» والصواب «وأقبل على خدامه» وجاء في السابع عشر «ولا فوات التخصص. على لوازم التمحيص» والصواب «ولا فوات التخصيص» وفي آخرها «سكة» والصواب شبكة.

وفي الصفحة 46 تحرف أول سطرها «قربة» بقرية. وفي الرابع. ضبط «سيبدو» بتسكين الياء. تصحيفا طباعيا. وفي السادس قطعت أيضا همزة ابن. بدل وصلها.

وفي آخر الصفحة جاء «وملكه من مدينة الاشبونة» والصواب : ومكنه من مدينة الاشبونة.

وفي الصفحة 47 ورد بالصفحة الخامسة «ا بنين» بهمز القطع كذلك.

وضبط «الظفر» في نهاية البيت الثاني من مرثية ا بن عبدون. بفتح الظاء. مع أنه جمع ظفر. فهو بالضم.

وفي آخر الصفحة ضبط «تسر» أول البيت. بضم التاء. بدل فتحها. ثم سقط «كي» من المصراع، تسر بالشيء لكن (كي) تغر به وضبط تغر به. بكسر الراء وفتح الباء. من التغريب لا من التغرير به.

وفي الصفحة 48 ضبط أول بيت منها «وليت» بضم الواو وتشديد اللام. والصواب الفتح ثم التخفيف. وضبط «خدمتها» بضم التاء بدل فتحها. ثم في البيت الثاني تحرفت «غضبا» بالصاد. وفي آخره ضبط «أثر» بفتح الهمزة. بدل ضمها. وفي البيت الرابع ضبط «جرهم» بفتح الراء المشددة. كأنه فعل من جر يجر. مع أنه اسم قبيلة معروفة من قحطان. وفي التاسع. تصحف «غصت» بعضت وبعده تصحف «بعدى» باء الجر داخلة على اسم مفتوح العين مكسور الدال مشدد الياء ـ وهو ابن زيد ـ. ببعدي. ظرفا مضافا إلى ياء النفس. وبعده ضبط «ا برويز» بكسر الراء. ثم تحرفت بعد هذا البيت «بخبيب» بالحاء. بدل الخاء. وتحرفت «فارعة» بالقاف. بدل الفاء. وبعده نقطت هاء «غيله».

وفي البيت السادس عشر. تحرف «خطت» المخفف الطاء. بالمشددة. مع أنها من خطا يخطوه و بعده جاء مصراع هكذا :

«ولم تزوده إلا الضح في الغمر»

بكسر الغين. والصواب «الضيح في الغمر» بالياء بعد الضاد. ثم ضم الغين والميم من «الغمر» وفي آخر البيت الثامن عشر. ضبط «شمر» بتسكين الميم. والصواب كسرها.

وفي الصفحة 49 جاء البيت الثالث بها هكذا :

«وعمت بالردى فودى أبي أنس»

ولا يستقيم. إلا بعممت... وعلق على «الردى» بأنه في الاسكوريال «بالظبي» وهذا هو الصواب الواجب إثباته. وفي آخر البيت التالي «ظفر» ضبطه بفتح الـــظاء والفاء. بدل ضمهما. وفي البيت السابع تحرف «الذبان» بالزيان. وفي البيت التاسع. ضبط «حب» بفتح الباء. بدل ضمها. وفي آخر ضبط القطر بسكون الطاء من قبلها. وبعده ضبط «قضب» بالكسر. بدل ضمه. وبعده ورد «يثج» وعلق عليه بأنه هكذا في القلائد. وفي الاسكوريال والمعجب «بفخ» وهذا هوالذي يجب إثباته. لكون شهرته عامة كاسم مكان. ولا معنى لإثبات غيره هكذا. خصوصا من مؤرخ.

وجاء المصراع الثاني للثالث عشر هكذا :

«لجعفر بابنه بالاعبد الغدر»

وصوابه :

لجعفر بابنه والأعبد الغدر

ثم جاء الأول للتاسع عشر هكذا :

«واعثرت آل عباس لعالهم»

والصواب :

«وأعثرت آل عباد لعا لهم»

أما المصراع الثاني الوارد هكذا : «بذيل زباء من بيض ومن سمر» فيروى على وجه آخر. كما يروى الأول بما تقدم. ولكن الصواب ما أثبتناه. لأن آل العباس لذاك العهد كانت خلافتهم قائمة. واستمرت ما يقارب قرنين بعده.. وان كان الدعاء «بلعا لهم» يفيد رجاء إقالة العثرة منهم. ويمكن هذا دعاء لبني عباد كذلك. خصوصا أن معتمدهم حي يرجى عوده .

وفي الصفحة 50 ضبط «العمر» آخر البيت الأول بتسكين الميم، بدل ضمها. وبعده ضبط «الثغر» بفتح الثاء. بدل ضمها. ثم علق على «تعيي على القدر» بآخر البيت السادس منها. بأن ما في المعجب والقلائد «تعين» مع الذي بالمعجب «تعيا» وبالقلائد كما هو مثبت بالنص «تعيي» أما «تعين» فلا يستقيم بها لا وزن ولا معنى. فلا شك أنها تحريف على كل حال. ربما كان من الطباعة وفي أول البيت التالي ضبط «ويح» مرتين بالضم. والصواب الفتح. منصوبين باضمار فعل عند

الإضافة لاغير. وفي التاسع جاء النسران ونسر بكسر النون. بدل فتحها. وفي آخر الحادي ضبط «البكر» بضم الكاف. بدل فتحها. وفي الثالث عشر. ضبط «أرسوا» بضم السين. والصواب فتحها. وكذلك «أصفوا» في البيت يليه. وفي البيت الأخير ورد «مذ» والصواب «منذ» ليتأتى به الوزن

وفي الصفحة 51 جاء أول بيت بها هكذا ،

كانوا مصابيحها دهرا فمذ خبوا   هذي الخليقة تالله في سدر

فالبيت أولا غير مستقيم الوزن. وعلق على الشطرة الأولى. بأنها في القلائد والمعجب «كانوا مصابيحها فمذخلوا غبرت» وهذا الصواب الواجب إثباته ولا يتأتى وزن بغيره ولا يستقيم معنى تام وعلى فرض صحة خبوا فحقه فتح بائه لاضمها. ثم صواب «تالله» ياالله بلام الاستغاثة. وبذلك يتأتى الوزن .

وفي آخر البيت الثاني تحرف «الحضر» بالخضر. ساكن الضاد. ولا يتأتى وزن به هكذا.

وفي البيت الرابع ورد «ورودها» والصواب «وردها». وبه يتأتى الوزن. لا بغيره. وجاء أول السادس «ويلمه» بسكون الميم. والصواب تشديدها بالكسر. ولا وزن ولا معنى بغير هذا.

وفي البيت الأخير ورد «الباب» وصوابه «الألباب» وبه يستقيم الوزن والمعنى. لا بغيره.

وفي الصفحة 52 جاءت عبارات غامضة يبدو أنه وقع سقط خلالها فانحرف بذلك سياقها.

وفي الصفحة 53 جاء أول السطر الخامس «وأضحك الرسن العبوس» فكلمة الرسن هنا، لاشك في تحريف بها، ولعلها «السن» .

وفي السطر 17 منها ورد «وركب علج من بعد القفول «والصواب وركب عاج من بعد القفول وفي التاسع عشر، جاء «طرف» بكسر الطاء، والصواب فتحها هكذا ، «وطرف تنبه بعدما سجع» ولا شك أن «سجع» صوابها «هجع» بالهاء.

وفي الصفحة 54 جاء في السطر السابع «مسير» بفتح الياء، بدل كسرها.

وفي آخر الحادي عشر، ضبط «فليهن» بضم النون بدل فتحها.

وفي آخر تاليه، ضبط «وليستقبل» بفتح الياء، بدل ضمها.

وفي آخر الرابع عشر «واستأثر إليه أبيه» ولعلها واستأنس إليه.....

وفي أول الثامن عشر «ضبط» حرب ضروس» بضم الضاد بدل فتحها. وفي أول تاليه، ضبط «أنكاد» بكسر الهمزة، وفي الذي يلي هنا، جاء «في ارتياد الخلا، وابتغاء الماء» والصواب في الأخير، «الملا»، وهو مثل مقتبس، كما في المنية لابن غازي :

فسرني سرور مجر في الخلا   ياليت شعري ما مداه في الملا

وفي الصفحة 55 تصحف بالسطر التاسع «فاستقر». وفي الحادي عشر تصحف «وتذامر» وضبط في تاليه «اتباع» بتشديد التاء. والصواب إسكانها. ثم ضبط «اللقاء» بالفتح بدل الضم. وبعده جاء آخره «وأوتي بزعيمهم الزعيم «لعله» الزنيم» على مافيه.

وفي الصفحة 56 سقط في نسب علي بن حمود «حسن» بعد الأول. وفي البيت قبل الأخير. ضبط «تكد» بكسر الكاف.

وفي الصفحة 57 جاء أول بيت من أبيات ابن دراج «تحن بشجو» والمعروف فيه «شجيت لشجو». وفي الثاني تحرف «ابن الشفيع» بأين الشفيع» كما تصحف آخره «ابن الرسول» بأين الرسول. وفي الثالث صواب «أما» في المصراعين معا كسر همزتهما. لأن أصلهما «إن الشرطية. كما في الآية. «فإما ترين من البشر... وفي السطر الثامن من الصفحة صواب «أذن» المد وفي الخامس عشر ضبط «يحس» بفتح الياء بدل ضمها. وسقط أول السابع عشر كلمة «ذلك».

وفي الصفحة 58 جاء في السطر الخامس «الاثنين» بقطع الهمزة. وهذا القطع يكاد يطرد في كل موصول. نبهنا على بعضه وفي الثامن. تحرف «الأذكياء» بالأزكياء. وهذا يقع كثيرا للمصريين . الذين ينطقون الذال زايا. فاختلط عليهم الأمر فيهما. وفي العاشر. تحرف «فأهمل»

بأمهل. وفي الرابع عشر. صواب «اثر» فتح الهمزة لاكسرها. وفتح الثاء. لا تسكينها. وفي تاليه صواب «المظالم» الظالم.

وفي الصفحة 59 ضبطت بالسطر الثاني «طلبيرة» بسكون اللام بدل فتحها. وفي السابع. تصحف «تومرت» .

وفي الصفحة 60 تحرف في السطر الخامس «أنفة». وفي السادس «الرجولية» بالهمزة على الجيم. وفي الرابع عشر «مسنو».

وفي الصفحة 61 وقع في السطر الثاني. فصل بين الفعل وفاعله بشولة وفي السابع ورد «استتش اديمه. والصواب «استشن بالشين. وفي أول العاشر. تحرف «أوائل» بأواول».

وجاء أول بيتين «أفلح» بفتح الهمزة بدل ضمها. وفي آخر مصراع. تحرف «ذوى» بدون. وفي آخر سطر ضبط «يمت» بالفتح.

وفي الصفحة 62 جاء أولها «وجوم» محرفا عن «وحزم». وفي الثاني عشر. تصحف «العشاء» بالغين. وفي آخر الثامن عشر ورد وأخفيت الطرق» والصواب «وأخيفت».

وفي الصفحة 63 جاء أول السطر الرابع عشر «فطرح أحدهم الحين» والصواب «فطرح أحدهم للحين».

وفي الصفحة 64 جاء بالسطر العاشر «تأتي» بفتح الهمزة بدل السكون. وفي الرابع عشر ضبط «الغور» بضم الغين. بدل فتحها وفيما يليه. ضبط «مجربا» بكسر بالراء. بدل فتحها.

وفي الصفحة 65 جاء أول السطر السادس «ثبت» بتشديد التاء، متضمنة التكلم، والصواب خلو الفعل من الضمير.

وفي الصفحة 66 جاء في السطر السابع «وأشرأب» بالهمز أولا، بدل الوصل.

وفي الصفحة 67 جاء بالسطر الخامس عشر «ويشعر» بضم الياء، بدل فتحها، ثم جاء السابع عشر هكذا ، على تيقور وحشية، قدمة السلطان شيخ الغزاة» ولا نفهم معنى «تيقور» ولا شك أنه مصحف يصعب علينا إصلاحه، ونقط همزة «قدمه» تصحيف آخر، ثم ضبط «الغزاة» بفتح الغين، بدل ضمها، غير صواب كذلك.

وفي الصفحة 68 تحرف بالسطر الأول «المجاملة» بالجملة، وضبط «يلف» بفتح الياء، بدل ضمها، ثم كرر السطر الثاني بتمامه.

وفي آخر السطر الخامس (الذي هو الرابع حقيقة) تحرف «وأخلبت» بأخوت، ثم جاء «الوفا» آخر المصراع الأول، والصواب فيه إثبات الهمزة، وفي أول الرابع من الأبيات، ضبط «فأول» بفتح الواو المشددة، والصواب تسكينها، امرا من أولى»، ثم جاء أول المصراع الثاني منه «وجنب» بسكون النون وضم الباء، والصواب، كسر النون المشددة، ثم كسر الباء، لالتقاء الساكنين بما بعده، أمرا من جنب المشدد، وفي أول السابع عشر، ضبط «الصراح» بفتح الصاد بدل ضمها، وفي أول العشرين، ضبط

«بالعطن» مكسور الطاء، بدل فتحها. ويبدو أن «رحلت» الواردة في السطر الرابع عشر، بضم التاء، صوابها الفتح للخطاب، كما يفهم من السياق.

وفي الصفحة 69 جاء بالسطر الثالث «وأخبر طوره» بكسر الباء بدل ضمها. وفي أول السابع «ووصال السراه» والصواب «السرات».

وفي آخر التاسع «وتحفظ» وصوابه «ويحفظ» بالياء، وفي الذي يليه «وبغيض البصر» وصوابه «ويغض البصر». وفي الرابع عشر «أزجي الأيام» بفتح الهمزة الأولى وتسكين الزاي، والصواب ضمها وفتح الزاي، ثم تشديد الجيم. وفي السادس عشر «وأمل» والصواب «وأؤمل» بضم الهمزة الأولى ثم تشديد الميم. وبعده يجب جعل همزة «التماس» للوصل، لا للقطع، كما أثبتت. وفي أول السطر العشرين، ورد «مرضاته» بضم الميم، بدل فتحها.

وفي الصفحة 70 جاء أول سطر «جال فيه لاختيار الامارة» ولعل الصواب «اختيار الامارة» وفي السطر الثالث ضبط «الغزاة» بفتح الغين، بدل ضمها . وكذلك في السطر الرابع، وتقدم مثله.

وفي الصفحة 71 ضبط في المصراع الثاني من البيت الخامس «أول» بالفتح والصواب الضم. وجاء البيت الثامن هكذا :

ومن كملي للوزارة قايما عليها بتصويب عليها وتصعيد

والصواب انتهاء المصراع الأول بقايما. ثم جعل الثاني ، عليها بتصويب لها و بتصميد والبيت الذي يليه جاء هكذا أيضا ،

«ومن كملي للادارة سالكا لها نهج تليين مشوب بتشديد»

فالصواب انتهاء المصرا. بسالكا. ثم تسكين هاء «نهج» بدل فتحها. كما هو مثبت.

وفي الصفحة 72 جاء أول بيت بها «منفذا» بتشديد الفاء. والصواب التخفيف للوزن.

وفي آخر البيت الرابع. ورد «الثوب السود» والصواب «النوب السود» بالنون. وفي العاشر. ورد «تردد» بفتح الدال الأولى المشددة. والصواب كسرها. وفي أول الثاني عشر. ورد «عفا» بتشديد الفاء. والصواب التخفيف؛ ثم اثبات الهمزة بعد الألف. و بعده «حلت» بتشديد اللام. والصواب التخفيف وجاء المصراع الثاني للرابع عشر هكذا ،

« بدار البلى رهين الأساود والدود»

ولا يستقيم إلا هكذا ،

بدار البلى رهن الاساود والدود

وفي أول السادس عشر. ضبط «لأظلمت» بالتاء الساكنة. والصواب كسرها. ثم جاء بيت هكذا،

وقلص من ظل الرجاء فراقه فظل رجائي بعده غير ممدود

ولعله - على صوابه - «وقصر..» وذلك للتناسب مع «ممدود» أخيرا، فالممدود يقابله المقصور، وكذا ما اشتق منهما على الاصطلاح المعروف.

(ومما تجدر الإشارة إليه، أنه أحال على ترجمة أبي الوليد بن حجاج المتقدمة في حرف الالف. ولا وجود لهذه الترجمة في ذلك) وجاء البيت الأخير هكذا :

«فلا يشمتن الأعداء ان حان حينه»

وهو لا يستقيم بنون التوكيد، بل بدونها.

وفي الصفحة 73 جاء أوله «ولا سيما إذا مات ميتة عزة» والصواب «إذ» مات، بلا ألف أخيرا. وفي آخره «بعيدا» والصواب «بعيد» بلا ألف كذلك، والباء للجر، وليس ظرفا، كما توهم، ثم جاء البيت الذي يليه هكذا :

وفيا لمولاه مطيعا لربه وقد بطلت ذعرا رقاب الصناديد

والصواب انهاء المصراع الأول عند «لربه» ثم فتح طاء «بطلت» لاضمها على مافيه. وفي البيت الأخير من القصيدة . ضبط «الرحمى» بفتح الراء والصواب ضمها.

وفي الصفحة 74 جاء آخر بيت أول السطر «ينصف» بفتح الياء بدل ضمها. وفي أول السطر التاسع ورد هكذا : «لا يزال، يعرضها» ولا محل للشولة هنا. وفي الثالث عشر، تصحف «فاذهب» بالنقط.

وفي الصفحة 75 جاء أول السطر الثاني «ولده. الجلا شيخا زمنا» فلم نفهم وضعا للجلا هذه هنا. ولعلها مصحفة أو نحو هذا مما يستعصي علينا دركه. وربما كان «الجلاء» مفعولا لفعل «جنى» قبله بالسطر الأول. وفي أول الثالث ورد «اسميهما» بالقطع... وجاء في الثاني عشر «يسبق في الطيالس ويلفظ الزبير» وهو غامض. إلا أن صواب الطيالس. بالياء قبل السين. ولا شك أن الكلمة الأخيرة كانت منتهية بالسين. لازدواج السجع. وفي السابع عشر. «جاء» وأما ثوبه فحبيس التحت» والصواب «التخت» بالخاء .

وفي الصفحة 76 جاء في السطر الأول «خاطبا في حبل الغادر» والصواب «حاطبا» بالحاء. وفي الخامس «مخابت أماله» والصواب «فخابت أماله» وجاء في البيت الثاني من ثلاثة «نجح» بفتح النون. مصدرا. والصواب ضمها. وفي السطر الحادي والعشرين. ورد : «والنفوس لمتوقع شومه مكرهة» ولعل الصواب «تكرهه» ليتناسب السجع مع «تتبعه» قبل.

وفي الصفحة 77 جاء أول الخامس «احتجنة» بنقط الهاء. وفي آخر السادس تصحف «أسلف له يدا» بالنقط المنفرد. وبعده «وفي ألفاظ السفبلة» ولعلها «السفلة». أو الألفاظ السفيلة». وفي الحادي عشر. ورد «الغزاة» أيضا بفتح الغين بدل ضمها.

وفي الصفحة 78 جاء بالسطرالثالث «واحد الزمان» بضم الدال، بدل الفتح، كما يقضي بذلك الاتباع بعده في «أيدا» لرجل وفي السادس يزين» بضم الياء، والصواب فتحها. وفي آخر الثامن «برضاه» والصواب «برضى» المقصورة. وفي الحادي عشر «على ما وراء» بكسر الهمزة، بدل فتحها.

وفي الصفحة 79 جاء أول سطرها «وسد» بالبناء للمجهول، والصواب للمعلوم. وكذلك «استدعى» في السطر الرابع. وجاء في الخامس عشر «ولما أشفي ونقل إلى مالقة» والصواب «نقل إلى مالقة» بدون واو قبل.

وفي الصفحة 80 جاء أول السطر الثامن «مصادما من تدفق التيار» بمن الجارة، ولم يبن لنا معنى واضح في هذا. وفي العاشر . جاء «وغبار الجهاد طي أثوا به» بالضم لطي، والصواب الفتح على الظرفيه.

وفي الصفحة 81 جاء في المصراع الأول للبيت السابع «هدى» بالفتح، والصواب تسكين الدال وكسر الياء، وجاء البيت التاسع والعاشر هكذا :

قبر به الهاشمي محمد أبهى   الأنام سنا وأوفى من وفا
خير الورى علم التقى شمس الهدى   المنتقى والجتبا والمصطفا

وصواب الأول :

قبر به للهاشمي محمد   أبهى الأنام سنا وأوفى من وفا

وصواب الثاني :

خير الورى على التقي شمس الهدى المنتقى والمجتبي المصطفى

وجاء بيت هكذا :

واذكر هديت أخا البطالة عمره كم نقض العهود وأخلفا

ولا يتم وزن المصراع الثاني إلا بنحو :

كم (مرة) نقض العهود وأخلفا

وفي آخر البيت قبل الاخير، ضبط «تعسفا» بفتح السين، والأولى ضمها، عطفا على «لجاجة»، لا على فعل «ركب» وإن صح ببعد وفي البيت الوارد آخر الصفحة، ينبغي ضبط «فأسلم» بضم الهمزة، مبنيا للمجهول، لا للمعلوم، بمصراعه الأول، أما الثاني الوارد «حق على من خان أو لا يعرفا» فصوابه «أن لا يعرفا» بالبناء للمجهول كذلك، وهو مرتب على الأول.

(يتبع)

تطوان محمد بن تاويت

قطرة ماء..!

علي الصقلي

كم تعالت أكفنا للسماء ،   رب، لاسؤل غير قطرة ماء !
في العروق الظماء تسري دماء   يالتلك العروق دون دماء
في القضيب الكئيب، في الفنن العا   بس، في الجذع، في ثنايا اللحاء
رب لا الطير في الرياض تلهى   مرسلا حوله شجي الغناء
لا ! ولا في الحقول لاح فراش   قزحي الرداء عبر الفضاء
لا ! ولا رصع الغصون من النو   ر جمان يبين سر الرواء

٥ ٥ ٥

رب رحماك للرضيع، لأم   هو في حجرها حليف بكاء
حملت همه. ألاويل أم   تحمل الهم من رضيع شقاء

أهي تغنو ؟ أم هي تلهو بشدي ليس يسخو بتافه من غــذاء !

رب رحماك للبراعم في الأكـ ـمام تنوي، للنحلة العجفــاء

للهزار النحيف، للحمل الخـا ئـر خطـوا، للنملـة العــراء

للخزامى، للياسمين، لزهـر الـ ـآس، للفل في أكف القضــاء

للسواقي، ويح السواقي كان لـم يك بالأمس ماؤها ذا غنـاء !

أين من حولها قوافـل بـط تتهـادى هنـاك فـي كبريـاء ؟

أين في حضنها ضفادع هــزت بأغاريدها طيـوف المــاء ؟

أين من فوقها ضفائر نشـوى مدها الزيزفـون فـي اغـراء ؟

٥ ٥ ٥

رب رحماك ! ليس دونك أولى بنداء ملء اللهى ودعــاء

ضحكت في وجوهنا الشمس آه لو بكت، مرة، عيون السمـاء

رب داء دواؤه كان في الضحـ ـك، وداء دواؤه في البكــاء

وكذا تضحك العيون وتبكـي ... في السما أصل دائها والـدواء

بين هذا وذا بشائر بعـث تتجلى، أو منـذرات فنــاء .

٥ ٥ ٥

رب أبك السماء تضحك أراضيـ ـك، وتحمل للكون خير رجـاء

الرباط علي الصقلي

التطير والفأل في موروثنا العربي

د. ابتسام مرهون الصفار

قد تبدو مثل هذه الدراسة غريبة في عصرنا هذا، على اعتبار انه عصر العلم، عصر يسير نحو التخلي عن المعتقدات المرتبطة بالخرافات والأساطير. فما جدوى هذه الدراسة في مثل هذا الاتجاه ؟ أقول ان دراسة التطير والفأل، وتتبعها من خلال كتب التراث مهمة جدا. وطريفة في نفس الوقت، لأنها تقدم لنا كثيرا من التعليلات في الوقوف عند ظاهرة لغوية أو فنية. كما أنها تبين أن كثيرا من معتقدات العامة في عصرنا هذا - وان جهلت أسبابها ودواعيها - قديمة قدم العصر الجاهلي، متوارثة ضمن ماورث المجتمع من عادات وقيم اجتماعية. فتتبعها من خلال النصوص الشعرية يساعد على تعليل بعض الظواهر الاجتماعية من جهة، وتعيننا

من جهة أخرى على تنوق النصوص العربية القديمة حين تدرس كل لفظة من خلال دلالتها في الفكر العربي على سلوك اجتماعي معين أو معتقد شعبي. وهذا موضوع لانجده متكاملا في كتاب من كتب الأدب العربي، إنما نجده مفرقا بين دواوين الشعر، وإشارات الشعراء، وفي بعض الوقفات اللغوية في كتب اللغة والمعاجم. كما أن اخبار المتطيرين أو المتفائلين نجدها مثبوثة ضمن الادب والطرائف، ولعل الجاحظ أول من وقف مثل هذه الوقفات عند بعض مظاهر التطير والتفاؤل في كتابه الحيوان، مما سنذكره في موضعه. على أننا لانعدم من القدماء من ألف في مثل هذا الموضوع، إلا أنهم قلما وقفوا عندها وقفة أدبية أي من خلال التراث الأدبي عند العرب.

وإذا استعرضنا قائمة المؤلفات في هذا الموضوع من خلال ما أورده ابن النديم في الفهرست وجدناها مذكورة ضمن علم من العلوم المتعلقة بالفراسة والقيافة. حيث وضع ابن النديم كتب الزجر مع كتب الفراسة كما قلنا. منها كتاب منحول الفراسة لأرسطو وكتاب الفراسة لقليمون، وكتاب فراسة الحمام، وكتاب زجر الفرس وكتاب الشامات لمينس الرومي، وكتاب الفأل لأهل فارس، وكتاب خطوط الكف والنظر في اليد للهند، وكتاب الاختلاج على ثلاثة أوجه للفرس. وعد للعرب في هذا كتاب زجر الطير والفأل والعيافة والقيافة والكهانة للمدائني . وكتاب الفأل للفلكي الكندي، وكتاب الاختلاج والزجر، وما يرى الرجل في ثيابه

وجسده، وصفة الخيلان، وغلاج النساء، ومعرفة ما تدل عليه الحيات وكتاب قرعة ابن المرتحل الكبيرة، وكتاب قرعة ابن المرتحل الصغيرة (1).

ولم يصل إلينا كتاب المدائني، (2) ولو وصل لأفادنا في هذا البحث فائدة كبيرة، لما عرف عن هذا الرجل من قدرة على جمع الأخبار والأحاديث ثم ان كتابه أقرب المؤلفات المذكورة في أعلاه إلى موضوع بحثنا. وما عداه مما ذكره ابن النديم خارج عن دائرة بحثنا. لذا نجد أنفسنا مضطرين إلى تتبع ألفاظ التطير والتفاؤل من خلال كتب الادب واللغة والمعاجم باحثين الفكرة وورودها في القرآن الكريم والحديث النبوي لنفصل القول بعد ذلك في ظواهر التطير والفأل في أدبنا العربي.

لقد أورد ابن سيدة عددا من الألفاظ المتعلقة بالتطير والفأل ومن خلال جمعه لها في موضع واحد نحاول تتبع معانيها في كتب المعاجم الأخرى :

---

1) الفهرست ابن النديم : 45.

2) ثم وسماه ياقوت الحموي في معجم الأدباء كتاب المروءة والفأل والزجر. معجم الأدباء ج 5 /30 وانظر كتاب (شيخ الأخباريين أبو الحسن المدائني لبدري محمد فهد ص 50.

الفأل والطيرة :

أصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليل فيتأول ما يدل على برئه. كأن يسمع مناديا ينادي رجلا إسمه سالم وهو عليل فيوهمه سلامته من علته. وكذلك المضل يسمع رجلا يقول ، يا واجد فيجد ضالته. والجمع أفؤل وقيل فؤول (3).

وقد ذكروا مثل هذا التعريف للكلمة عن النبي (ص) بأنه سئل عن الفأل فأجاب الكلمة الصالحة (4).

وذكروا عن الأصمعي أنه قال سألت ابن عون عن الفأل فقال ، هو أن تكون مريضا فتسمع ياسالم أو باغيا فتسمع يا واجد (5).

وعن ابن السكيت ، الفأل أن يكون الرجل مريضا فيسمع آخر يقول ياسالم أو يكون طالبا فيسمع آخر يقول يا واجد (6)

ومن الفأل اشتقت لفظة لعبة. من لعب الصبيان قديما. وما تزال متداولة في بعض أقطار العرب (العراق مثلا). وذلك انهم يخبئون الشيء في التراب ثم يقسمونه ويقولون في ايهما هو ؟ قال طرفة ،

---

3) الصحاح، لسان العرب مادة (فأل).
4) مسند الامام أحمد 2/ 266.
5) عيون الأخبار 1/ 146.
6) الصحاح مادة (فأل).

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد (7)

فكأن اللاعب يتفاءل في أن يكون هو الرابح في معرفة الشيء المخبيء في التراب.

ومنهم من يجعل الفأل فيما يكره ويستحسن. قال ابن دريد، تفاءلت بالشيء تبركت به. أو تشاءمت منه. وأنشدوا للكميت،

ولا أسأل الطير عما تقول ولا تتخالجني الأفؤل

فقد استعمل الافؤل هنا متعلقة بمعاني السوء والشر التي يرفض الشاعر أن يكون معتقدا مصدقا بها.

والطيرة مضادة للفأل وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل مرئي.

قال الجوهري، الطيرة بكسر الطاء، وفتح الياء مثال العنبة. وقد تسكن الياء. وهو مايتشاءم به من الفأل الردي (9).

وهكذا نجد بأن الفأل والطيرة دلتا عند العرب على معنى واحد وهو الشيء المكروه أو المحبب مما يسمع أو يشاهد. ثم خصصوا لكل كلمة معنى واستعمالا خاصا. فأصبحت الطيرة دالة على ما يسوء. والفأل على ما يحسن.

---

7) المخصص 24/4.

8) لسان العرب مادة (فأل).

9) الصحاح (فأل).

العيافة :

والعيافة من ألفاظ التطير، وهي متعلقة بما يتطير منه من الطير فيقال عفت الطير أعيفها عيافة أي زجرتها، وهو أن تعتبر باسمائها ومساقطها وأصواتها. والعائف المتكهن (10) وقيل عفت الطير عيافة أي زجرتها فتشاءمت بها أو تبركت.

وقد تكون العيافة بالظبي إذا سنح، وتكون بالحدس وان لم تر شيئا.

ولعل أصل استعمالها مادي يتعلق ببعض الحيوانات، إذا كرهت شرب الماء. فالعيوف من الإبل الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان. ويقال ان (البقر إذا امتنعت عن شروعها في الماء فإنها لاتضرب، لأنها ذات لبن فيضرب الثور لتفزع ومنه قول الشاعر :

إني وقتلي سليكا ثم أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقر (11))

ثم استعير اللفظ للدلالة على بعض ما يطرأ على الإنسان، فيقال عاف الرجل الطعام أو الشراب يعافه عيافة أي كرهه، فلم يشربه فهو عائف (12). ثم استعملت الكلمة مجازا للدلالة على كراهية ما يراه

---

(10) الصحاح مادة (عيف).

(11) المخصص 4/24.

(12) الصحاح (عيف).

المتطير في بعض المظاهر كخروج حيوان ، أو سنوح طائر فيزجره ليعرف أي جهة يتجه يمينا أو شمالا ثم يفسر ذلك تيمنا فيوافق نيته أو تطيرا فيعاف ما أزمع عليه.

الحز والزجر :

هما لفظان بمعنى العيافة أيضا.

يقال حزونا الطير حزوا وحزيناه حزيا. وزجرناها نزجرها زجرا. وهو عندهم أن ينعق الغراب بمستقبل الرجل، وهو يريد حاجة فيقول هنا خير، فيخرج أو ينعق مستدبره فيقول ، هنا شر، فلا يخرج. فهذا الحزو والزجر. فإن سنح له شيء عن يمينه فيمشي به أو عن يساره فيتشاءم به فهذا الحزو والزجر (14).

وقال الجوهري ، الزجر والعيافة ضرب من التكهن.

والحازي ، الذي ينظر في الأعضاء، وفي خيلان الوجه يتكهن (15). والجوهري هنا يميز بين من يتفرس من خلال النظر إلى أعضاء جسم الإنسان وبين الزجر الذي هو ضرب من ضروب الفأل في زجر الحيوانات للتكهن بما يحدث في المستقبل شرا أو خيرا.

---

13) المخصص 4 /24.

14) ن.م

15) الصحاح (حزو).

الخطرب والخطارب :

الخطرب والخطارب ، التفاؤل بما لم يكن جاء. وقد تخطرب (16) وقد أهمل اللفظتين الجوهري في صحاحه. وقال ابن دريد بالخاء والحاء الضيق في المعاش. ورجل خطرب وخطارب بضمهما أي متقول بما لم يكن جاء. وقول ابن دريد هنا يوضح سبب إدراج الكلمة في فصل التطير الذي عقده ابن سيدة في معجمه المخصص. لأن ضيق الحال في المعاش يخيل لصاحبه جملة أمور فيتطير من بعضها. ويتفاءل من الأخرى.

الكوادس :

هي ما يتطير منه كالعطاس ونحو ذلك. وأنشد أبو عبيد ،

ولو أنني كنت السليم لعدتني ... سريعا ولم تحبسك عني الكوادس

وقال آخر ،

الطير شفع والمطايا تكدس
اني بان تنصرني لأحس (17)

أي أن هذه الإبل تعطس بنصرك اياي. والطير تمر شفعا، لأنه

16) المخصص 4/ 24.

17) الصحاح (كدس).

يتطير بالوتر منها. وأحسس أي أحس فاستعمل الكدس بمعنى العطاس. وسنرى ان لهم فيه مذاهب تتعلق بعدد مرات العطاس.

ثم قيل للظبي إذا نزل في الجبل كادس يتشاءم به كما يتشاءم بالبارح .

السانح والبارح :

هما لفظان يتعلقان بحركة الحيوانات إذا أرادوا التطير أو التفاؤل بها. وقد اختلف فيهما فقال أبو حاتم السجستاني ، العرب تختلف في عيافة ذلك. فمنهم من يتيمن بالسانح ويتشاءم بالبارح ومنهم من يخالف ذلك وأنشد الخليل :

فهن يبرحن له بروحا وتارة ياتينه سنوحا (16)

وسنفصل القول فيهما في الحديث عن اليمين والشمال في القرآن الكريم إن شاء الله.

العاطس :

اما العاطس فهو الظبي الذي يستقبلك من امامك. (19) وقد رأينا أن أصله مقترن بالعطاس الذي يتفاءل به أو يتشاءم منه. ومثله.

---

18) ن.م المخصص 4/ 24.

19) المخصص 4/ 24.

العاثر :

يقال عيثرت الطير إذا جرت لك فزجرتها وأنشد ،

لعمرو أبيك ياصخر بن ليلى   لقد عيثرت طيرك لو تعيف

وواضح أن التسمية جاءت من تقصد إفزاع الطير أو الظبي لتعثر في مشيها أو تفزع في طيرانها فتنحرف يمينا وشمالا.

والخثارم :

الرجل المتطير. قاله أبو عبيد. وأنشد لحثيم بن عدي ،

ولست بهياب إذا شد رحله   يقول عداني اليوم واق وحاتم

ولكنه يمضي على ذاك مقدما   إذا صد عن تلك الهنات الخثارم (21)

والواقي والصرد، والحاتم والغراب مما يتطير بها.

التطير والفأل في القرآن الكريم :

التطير والفأل من المعتقدات العامة التي ساد وجودها في الفكر العربي في الجاهلية، واستمر الكثير منها بعد الإسلام مع دعوة الدين الجديد إلى رفض التطير وكل مايعيق الفكر الحر من الأساطير والخرافات ومن هنا فلن نبدأ حديثنا عن الفأل والطيرة في العصر

---

20) ن.م

21) ن.م وبلوغ الأرب 3/ 320 ونسب الشعر مع بيت أخر للرقاص الكلبي أو لخثيم بن عدي.

الجاهلي. لأن مجرد انكار الرسول (ص) لها يعني وجودها وتأصلها في عصره والعصر الجاهلي بصورة عامة.

لقد وردت في القرآن الكريم بعض الألفاظ المتعلقة بالتطير أو بعض مشتقاتها لا بد أن نقف عندها لنعرف رأي المفسرين فيها. وموقف الإسلام من هذه الظاهرة.

قال الله تعالى في سورة الاسراء 17 / 13 ، (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها).

فلفظ الطائر هنا لا يفهم منه إقرار التطير. وإنما هو إنكار له فإذا كان المشركون يعتقدون بالتطير ويتشاءمون من أمور شتى فإن الله تعالى يبين لهم بأنه ان كان هناك طائر فهو عمل الإنسان. لان العمل وحده هو الذي يحكم مصيره، ويوجه حياته ان كانت شرا أو خيرا.

يقول الزجاجي ، (وسألت عن قوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه. فهو ما يلزمه به من خيره وشره، وكله مكتوب محفوظ عليه إذا لقي الله. وصار إليه كما قال سبحانه نخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (22).

22) مسائل منثورة لأبي القاسم الزجاجي (مخطوط) الورقة 13، معاني القران ـ الفراء 2 /295. اعراب القرآن / ابن النحاس 2 /526.

وقال الطبري مفسرا الآية المذكورة ، يقول تعالى ذكره وكل إنسان ألزمناه ماقضى له انه عامله. وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة يعمله في عنقه لا يفارقه. وإنما قوله ألزمناه طائره مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم به من سوانح الطير. وبوارحها. فاعلمهم جل ثناؤه ان كل إنسان منهم قد ألزمه ربه في عنقه نحسا كان ذلك الذي ألزمه في الطائر وشقاء يورده سعيرا أو كان سعدا يورده جنات عدن (23).

وقال تعالى في سورة يس 36 الآية 13 في الحديث عن محاورة بين أصحاب القرية والنبيين المرسلين إليها (قالوا ربنا يعلم انا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين، قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم، قال طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون).

وفي سورة النمل 27 / 47 / 49 مثل هذه المحاورة في إنكار التطير من قبل الأنبياء حين أرسل النبي صالح إلى قومه (قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون، قالوا أطيرنا بك وبمن معك، قال طائركم عند الله بل أنتم تفتنون). فهؤلاء الكفار ادعوا أنهم تطيروا من النبي صالح. وتوقعوا السيئة فينكر عليهم النبي - بمنطق النبوة - بأن تشاؤمكم معكم، وطائركم معكم أي شؤمكم معكم وهو كفركم بالله.

23) جامع البيان في تفسير القرآن ج 15 /تفسير سورة الأسراء.

اما لماذا استعمل لفظ الطائر للشؤم في القرآن الكريم فلدلالة لغوية وذهنية مرتبطة في أفكار العرب. واذهان من يتشاءمون أو يتفاءلون منهم، مرتبطة ببعض مظاهر حياتهم التي جعلوها مقترنة بالخير أو الشر وقد تنبه القدماء من المفسرين إلى استعمال لفظ الطائر والتطير في الآيات السابقة. ونبهوا إلى كونها مستعملة على المجاز. وقد سماه الطبري مثلا كما مر بنا قبل قليل وسماه الزمخشري في تفسير سورة النمل استعارة حيث قال (وكان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فإن مر سانحا تيمن، وان مر بارحا تشاءم فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته أو من عمل العبيد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة ومنه قالوا ، طائر الله لا طائرك أي قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر لاطائرك الذي تتشاءم به وتتيمن) (24).

وهناك ألفاظ أخرى لها علاقة بموضوع التطير ووردت في القرآن الكريم إلا أن علاقتها بلفظ التطير مجازية لا لفظية. فقد وصف المتقون المؤمنون بأنهم أصحاب اليمين. ووصف المجرمون المعاقبون يوم القيامة بأنهم أصحاب الشمال. والتسميتان لهما علاقة وارتباط وثيق بفكرة التطير.

24) الكشاف ج 3/ 292.

فالمؤمن يستلم نتيجة القضاء يوم القيامة بكتاب يأخذه بيده اليمنى أما الكافر فإنه يستلم كتابه بيده اليسرى. قال الله تعالى ، (فاما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه اني ظننت أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية.. واما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه، ياليتها كانت القاضية) 25.

فالآيات الكريمة لم تستعمل لفظ المؤمنين المثابين إنما أعطت إحدى دلالات الإيمان والثواب، وهي أن يستلم المؤمن صحيفة أعماله أو نتيجة ما قام به من عمل خير في الحياة الدنيا يستلمه بيده اليمنى وذلك كاف لاعطائه بشارة الثواب فيفرح المؤمن ويستبشر ويقول ، هاؤم اقرأوا كتابيه.. في حين نجد المعاقبين من أهل النار يعرفون نتيجة الحكم عليهم بمجرد أن يستلموا صحيفة أعمالهم بيدهم اليسرى فيتمنون لو أنهم لم يبعثوا مرة ثانية.

ومثل هذه الآيات آيات أخرى وصف بها الله سبحانه وتعالى أهل الجنة بأنهم أصحاب اليمين، وأهل النار بأصحاب الشمال (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود، وطلع منضود،

---

25) سورة الحاقة 69/13 ـ 32.

وظل ممدود... وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لابارد ولا كريم) (26).

وقد علل بعض المفسرين سبب تسمية المؤمنين بأصحاب اليمين. والكافرين بأصحاب الشمال بأن الطائفة الأولى تستلم كتابها بيمينها والثانية بشمالها (27) أو انهم يؤخذ بهم ذات اليمين وهي الجنة . والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار (28). وهناك تعليل ثالث بأن أصحاب اليمين هم أصحاب اليمن والبركة والثواب من الله تعالى. وإن أصحاب المشأمة معناه أصحاب الشر والعقاب الأبدي (29).

هذه التعليلات وأخرى شبيهات بها غير كافية في دراسة لفظ اليمين والشمال، لأنها تعيدنا إلى تساؤلنا الأول لماذا أطلق اليمين على الخير والشمال على الشر ؟!، ولم رمز للمؤمنين بأهل اليمين وللكافرين بأهل الشمال، انه استعمال مجازي يجرنا إلى الحديث عن كيفية زجر العرب الطير، وما اشتقوا من ذلك من ألفاظ مثل السانح والبارح مما سنبحثه في موضوع مظاهر التطير والتفاؤل ان شاء الله.

---

26) سورة الواقعة 56/27 ـ 44.

27) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، 338.

28) جامع البيان 27 : 170. التبيان في تفسير القرآن 9 : 489.

29) التبيان في تفسير القرآن 9/489.

في الحديث النبوي :

مر بنا رأي ذكره علماء اللغة وهو ان العرب كان مذهبها في الفأل والطيرة واحد. وسنرى الآن من خلال النصوص ان الرسول (ص) قد أقر الفأل وشجع التفاؤل. وأبطل الطيرة. ونهى عنها. وحاول معالجة نفوس المسلمين بوصايا تبعدهم عن التطير. وذلك أمر طبيعي ينسجم مع دعوة الإسلام للعمل والجد، لأن التطير يعيق عمل الإنسان. إذا ما قرنه بظاهرة يتشاءم منها. فتحول بينه وبين مواصلة عمله. أو مانوى عليه وهذا ضرر كبير للافراد تكون تبعته على المجتمع فيما بعد. في حين أن اقرار الفأل يعني مواصلة الإنسان لعمله. وإقرار كل ما من شأنه أن يشجعه ويبعث فيه روح الجد والعمل وهو التفاؤل.

إنكار الرسول (ص) للطيرة :

روى الإمام أحمد بن حنبل عن النبي (ص) انه أنكر الطيرة حين سئل عنها فقال ثلاث مرات ، لاطائر لاطائر لاطائر (30).

وقد ذكروا أنه صلى الله عليه وسلم قال ، لاعدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (31).

---

30) مسند الإمام أحمد 2/387 وعن قطن بن قبيصة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، العيافة والطرق والطيرة من الجبت. انظر المصنف للحافظ الصنعاني 10/403.

31) مسند الإمام أحمد 2/387، 289، شرح صحيح البخاري 6/65 أدب الدنيا والدين 246. المصنف للصنعاني 10/403.

وقد أورد بعضهم تتمة للحديث الشريف ، لاعدوى ولا هامة ولا طيرة وأحب الفأل الصالح. وقد فسر الرسول الكريم الفأل الصالح بأنه الكلمة الصالحة والحسنة الطيبة (32).

وهناك حديث آخر اختلف في تأويله لما يحمله ظاهر معناه من تناقض بين نفي التطير وابطاله وبين اقراره. ولو ببعض المظاهر. والحديث على اختلاف رواياته هو ،

إنما الشؤم كائن في ثلاثة في الفرس والمرأة والدابة (32) وروي أن يكن في الشؤم شيء حق ففي الفرس والمرأة والدابة (33). ورواه بعضهم مقترنا بالحديث الأول وكأن إقرار الشؤم هو استثناء من نفيه على العموم فروى على الشكل التالي ،

لاهامة ولا عدوى ولا طيرة وان تكن في الطيرة من شيء ففي الدار والفرس والمرأة (34).

وقد فسر بعض العلماء الحديث على الظاهر فقال الخطابي وكثيرون ، هو في معنى الاستثناء من الطيرة أي الطيرة منهي عنها الا في هذه الثلاثة .

---

32) ارشاد الساري 73/5. صحيح مسلم 65/6.

33) ن م.

34) ارشاد الساري 73/5.

وذهب آخرون ومنهم القاضي عياض بأن الطيرة منهي عنها حتى في هذه الأشياء الثلاثة والمعنى عندهم ، ان الشؤم لو كان له وجود في شيء لكان في هذه الأشياء، فإنها أقبل الأشياء له، لكن لاوجود له فيها فلا وجود له أصلا (35).

والرأي الثالث في تفسير هذا الحديث بأن الرسول (ص) أبطل الطيرة عامة وإنما خص هذه الثلاثة لاعترافا بها بل لما قد يوجد فيها من دواعي الشر والأذى، فشؤم الدار طبيعتها وسوء جيرانها وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها ونحوهما، وشؤم الفرس ان لا يغزى عليها فالشؤم فيها عدم موافقتها له شرعا أو طبعا (36).

اما الرأي الرابع فإنه اعتمد على نفي صحة رواية الحديث، وذلك انهم رووا أن السيدة عائشة أنكرت على أبي هريرة تحديثه بذلك، واحتجت بقولها ، لم يحفظ ـ أي أبو هريرة ـ انه دخل وهو يقول ، قاتل الله اليهود يقولون الشؤم في ثلاثة، فسمع آخر الحديث، ولم يسمع أوله، وقيل انها غضبت غضبا شديدا وقالت ما قاله، وانما قال ، إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك، فأخبرت انه عليه الصلاة والسلام انما قال ذلك حكاية عن أهل الجاهلية فقط (37). وأضاف ابن قتيبة بأن

---

35) ارشاد الساري 5/76.

36) ارشاد الساري 5/73.

37) ن. م 5/74.

السيدة عائشة حين رفضت صحة رواية الحديث قرأت قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها) وقد رد القسطلاني في شرحه لهذا الحديث. حين ذكر رواياته المختلفة رد اعتراض السيدة عائشة على هذا الحديث بأنه لم يكن أبو هريرة وحده الراوي له. فقد روي عن صحابة آخرين. ولذلك (فلا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة) إضافة إلى أن الذي روي حديث عائشة هو مكحول وحديثه مقطوع لأنه لم يسمع عن عائشة (38).

ويبدو الرأي الثاني أقرب الآراء إلى الصواب. ولموافقته الاحاديث النبوية الأخرى التي ابطلت التطير. ونهت عنه. ولكنها عالجته معالجة نفسية دقيقة.

توجيهات الرسول (ص) للتخلص من الطيرة :

وروى للرسول (ص) قول آخر وهو :

الطيرة شرك وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل فالرسول (ص) لم يذكر المستثنى. إنما حذفه اختصارا. واعتمادا على فهم السامع أي الا قد يعتريه التطير. ويسبق إلى مثله (39).

---

38) ن.م.

39) النهاية 1/235.

وقد شرح ابن الاثير الحديث بقوله ، جعل التطير شركا بالله من اعتقاد جلب النفع، ودفع الضر، وليس الكفر، لأنه لو كان كفرا لما ذهب بالتوكل، والرسول (ص) لم يرد بأن الايمان بالتطير هو شرك فعلا، وإنما أراد بأن على الإنسان أن يعمل، وأن يتوكل في عمله على الله لا على هذه المنهيات التي يتخيلها تارة، مضرة، وأخرى نافعة، فيتفاءل منها، ويتشاءم فكأن المتطير يفر مما قدر له، وكتب عليه، فهو بهذا يشرك بحكم الله وقدرته (40.

«يتبع»

فاس

د. ابتسام مرهون الصفار

---

40) ن. م وانظر لسان العرب مادة (طير)، وانظر بلوغ الأرب 3/321.

محضر محاكمة امرأة مغربية
من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية (1559)

ترجمة وتعليق
أحمد بوشرب

تقديم الوثيقة :

تتعلق هذه الوثيقة التي عثرت عليها بدار الوثائق الوطنية البرتغالية Arquivo Nacional da Torre do Tombo والتي ترجمتها عن اللغة البرتغالية القديمة بمحضر من محاضر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية. وهي مرتبة ضمن محاضر محكمة تفتيش يابرة (Evora) تحت الرقم التالي ، Inquisicão de E'vora, M.° 74 N° 6868. وتسجل هذه الوثيقة مراحل اعتقال ومحاكمة امرأة مغربية عجوز من دكالة عاشت بالبرتغال ما يفوق اثنين وعشرين سنة. وكانت التهمة الموجهة إليها هي الرجوع إلى الدين الإسلامي والقيام بشعائر وطقوس إسلامية. وتم اعتقال (أنة دو ميلو) التي

لم تذكر اسمها الاصلي رغم أنه طلب منها ذلك في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سنة 1559. وشرع في محاكمتها في اليوم الثاني والعشرين من نفس الشهر. وتم النطق بالحكم بالسجن في 24 أبريل من سنة 1560. أي بعد سنة من المحاكمة والاعتقال.

ويحتوي الأرشيف البرتغالي على عدد كبير من المحاضر المتعلقة بمحاكمات عدد مهم من المغاربة الذين ارغمتهم المجاعات والفتن التي تلت احتلال البرتغاليين لعدد من الموانىء المغربية على الالتحاق بالبرتغال والإقامة به، اما عن طواعية، بعد أن أوهموا أنه بإمكانهم ضمان قوتهم هناك، أو بعد أن تم أسرهم أو اختطافهم أو بيعهم خلال المجاعات. وخصوصا خلال مجاعة 1520 الكبرى. ومعلوم أن الجوع ارغم المغربي خلال تلك المجاعة على بيع أبنائه قبل بيع نفسه. ولقد كان العرض كبيرا إلى حد أنه لم يعد أي شيء أرخص من الإنسان...(1) وإذا كانت المصادر البرتغالية قد تركت لنا صورة عن عمليات البيع قد تدعو إلى الشك، (2) فإن تصريحات هؤلاء المغاربة أمام محاكم التفتيش تؤكد وصول جلهم إلى البرتغال ما بين 1520 ـ 1521.

1) Paris, 1636 T 1 p. 94.
2) B. Rodrigues : Annais de Arzila Lisboa 1915 T. 1 p. 327.
D. de Gôis. Les portugais au Maroc. trad. R. Ricard p. 228.

ومن محاضر محكمة تفتيش يابرة وصلنا 79 محضرا يتعلق باعتقال ومحاكمة مغاربة كانوا مقيمين بالبرتغال بدعوى اعتناقهم لدينهم الأصلي، والاستمرار في العيش حسب العادات والتقاليد المغربية. ورغم أن محاضر محكمة لشبونة لم تحص بعد، فإن تحرياتي الأولى أعطت عددا يفوق بكثير عدد محاضر محكمة يابرة. ومن بين محاضر محكمة لشبونة عدد من محاضر محاكمة بعض المجاهدين البحريين المغاربة الذين تم إلقاء القبض عليهم خلال غاراتهم على السفن والسواحل البرتغالية.

وترتبط محاكمة هؤلاء المغاربة بإنشاء محاكم التفتيش الدينية بالبرتغال قصد محاربة البدع والردة والمعتقدات التي تتنافى وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية. وكان قرار احداث تلك المحاكم مرتبطا بتزايد التعصب الديني وتبنيه من طرف الحكام لتسخيره لأغراض سياسية (3). فمن المعلوم أن البرتغال عرف خلال حروب الاسترداد وبعدها تعايش الديانات الثلاث، وتبنى ملوك البرتغال باستمرار سياسة متسامحة إلى حد ما، وعملوا على استمرار إقامة اليهود والمسلمين ببلادهم نظرا للدور الاقتصادي المهم الذي كانوا يلعبونه. وبذلك تم الاعتراف لغير النصارى بحرية التدين وان فرضت عليهم بعض الشروط القاسية كالإقامة في

3) Lucio de Azevedo – Os cristãos novos p. 63

أحياء خاصة. والحيلولة دون اتصالهم بالنصارى واداء ضرائب متنوعة وثقيلة (4)، وكان من المسلمين من أصبح من أقرب المقربين لملوك البرتغال (5).

وكان هذا التسامح مناقضا لسياسة ملكي إسپانيا، «فردنان وأزبيلا» التي امتازت بالتعصب الديني ومطاردة المسلمين واليهود، وإنشاء محاكم التفتيش الدينية منذ سنة 1478 وإحراق مئات المسلمين واليهود (6).

وتخلى حكام لشبونة عن سياسة الملوك السابقين منذ بداية القرن السادس عشر، وذلك قصد تحقيق أهداف شخصية. فلقد أدى طمع الملك (امنويل، 1495 ـ 1521) في اسپانيا وامبراطوريتها الشاسعة من خلال مصاهرة «الملكين الكاثوليكيين» أن رضخ لضغوط إسپانيا وفرض سنة 1496 على اليهود والمسلمين اما التنصر أو مغادرة البلاد.

وخوفا من انتقام إسلامي . كانت معاملته وشروطه المفروضة على المسلمين أخف بكثير مما فرضه على اليهود من شروط قصد تنصيرهم

---

4) كانوا يؤدون فضلا عما يؤديه النصارى ضرائب مختلفة من بينها الشرعية. وهكذا أحصى مؤرخ برتغالي ما يفوق 15 ضريبة :

Etnografia pontuguesa – J. Leite Vasconcellos

5) راجع مثلا من بين كتب «التشريفات الملكية» :

Chancelaria real de D. Duarte – Livro da Guadiana. fl 194 V°
Alfonso V. Livro 95.
de João II.Livro 8 fl 165 V° etc.

6) A. Herculano – Historia da origem e Estabelecimento da Inquisição Em. Portugal – I pp. 65,67,68,76,77.

والاحتفاظ بهم بالبرتغال. وهكذا تمكن جل مسلمي البرتغال من الالتحاق ببلاد الإسلام (7).

ولهذا كان عدد من حوكم بالبرتغال بسبب تمسكه بالدين اليهودي أكثر بكثير ممن حوكم لكونه مسلما. كما أنه لا يوجد ولو محضر واحد يتعلق بمسلم من مسلمي البرتغال. فكل المحاضر تتعلق بمسلمين تم جلبهم إلى البرتغال كعبيد. اما من المغرب. أو من غرب إفريقيا. (منطقة موريطانيا الحالية) أو من تركيا والهند.

وبتخلي (امنويل) عن سياسة التسامح الديني السابق الذكر. بدأ يعمل على الحصول من البابوية على اذن بإنشاء محاكم تفتيش دينية.

ولكن البابوية التي لم تكن تنظر بعين الرضى لما يجري بإسبانيا. رفضت حتى الرد على خطاب الملك.

ولم يعد (أمنويل) ثانية إلى الموضوع.

وكان ابنه وخلفه (جوا الثالث 1521 ـ 1557) متزمتا وشديد العداء لليهود (8).

ولهذا ألح في الطلب على البابوية. ولم يتردد أمام الكذب والرشوة للوصول إلى هدفه.

---

7) D. de Gois – op. cité. p. 5.
A. Hercunalo – op. cité p. 96,117.

8) A. Herculano – op. cité p.p. 166,171.

ورغم انه حصل على قرار بابوي مؤرخ في 17 دجنبر 1531 يسمح له بإنشاء محاكم تفتيش دينية لمعاقبة اليهود المتنصرين الذين تأكدت ردتهم إلى دينهم الأصلي. والمسيحيين المعتنقين الديانة اليهودية أو الثائرين ضد الكنيسة الكاثوليكية. فإنه لم يحصل على موافقة البابا على إنشاء محاكم على الشكل الذي يريده ودون اشراف البابوية المباشر عليها الا سنة 1536 بعد صدور القرار المؤرخ في 25 ماي.

وهكذا شرعت محكمة تفتيش يابرة في أعمالها منذ سنة 1536 في حين شرعت محكمة لشبونة في السنة التالية. وتقرر في بداية الأمر إنشاء محاكم في عدد مهم من مدن البلاد. ولكنه لم يحتفظ في نهاية الأمر إلا بثلاثة فقط ، محكمة يابرة. ومحكمة لشبونة. وأخيرا محكمة (كوينبرا Coimbra) التي لم تعمر طويلا. واستمر العمل بمحاكم التفتيش إلى سنة 1821.

وكان يشرف على محاكم التفتيش الدينية البرتغالية في بداية الأمر أسقف سبتة الذي سرعان ما استقال بسبب غلو القضاة وبشاعة الطرق المستعملة من طرف المحكمة وقساوة الاحكام الصادرة عنها (9).

واستغل الملك هذه الاستقالة لتعيين أخيه (دون هنري) في منصب المفتش الأول. وذلك رغم أنه لم يكن يتوفر على السن الضرورية.

(9 - Ibid p.p. 184-186.

وكان المفتش الأول يعين قضاة للنيابة عنه في رئاسة الجلسات. وللدفاع عن مصلحة محكمة التفتيش وضمان معاقبة المحاليين عليها. كان يعين «محام مراقب» كانت مهمته شبيهة بمهمة وكيل النيابة.

وكان من حق المتهم الالتجاء إلى محام لاثبات براءته. ولكن هذا الالتجاء إلى المحامي لا يكون عمليا إلا في حالة ما إذا اعتبرت المحكمة اعترافات المتهم غير كافية. وسمحت «للمحامي المراقب» بالمرافعة. وكانت المحكمة هي التي تعين المحامي. الذي كان دوره يقتصر أحيانا على حث المتهم على الاعتراف.

ولمعاقبة من كانت تصرفاته أو معتقداته مخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية، اعتمدت محاكم التفتيش اعتمادا كبيرا على التبليغات.

ولتسهيلها حددت اعتمادا على «ملصقات الايمان» (Edital da Fé) التي كانت تلصق مرة في السنة عند مدخل المعابد والاديرة. حددت الخطايا الواجب التبليغ بها. وألزم الكل بالتبليغ وهدد من امتنع عن ذلك بطرده من الجماعة (excommunication)، وبالتالي تكفيره. وكانت لائحة الخطايا طويلة، وجلها قابل لأن يرتكب حتى من لدن أكثر الناس تمسكا بتعاليم الكنيسة. كارتداء أقمصة نظيفة يوم الجمعة أو السبت، وكالقيام بعمل ما يوم الأحد، وكتنظيف البيت يوم الجمعة وكره لحم الخنزير أو تناول بعض الأطعمة كالكسكس و «الفتات» وكاستعمال مائدة قصيرة الأرجل... الخ !

واستطاعت الكنيسة تحويل كل البرتغاليين الى متجسسين على بعضهم البعض ، «من الآن فصاعدا، استحوذت على الأمة موجة من التجسس... أصبح الذين يغطيهم نفس السقف، والذين يتقاسمون نفس العمل، والذين تجمعهم نفس المائدة يبلغون ببعضهم البعض...» (10) وتدخلت الكراهية الشخصية والميز العنصري والديني لتلقي بمئات الابرياء داخل زنزانات محاكم التفتيش. ووصل تخدير الكنيسة للرأي العام الى حد أن الابن أصبح يبلغ بأبيه.

وبعد اعتقال من بلغ بهم، كانت المحكمة تعتمد على عدد من الوسائل لارغامهم، ليس فقط على الاعتراف «بخطاياهم» و«جرائمهم»، ولكن كذلك للتبليغ بذويهم واصدقائهم، وذلك بزرع جواسيس بين المعتقلين، واكراه السجناء على التجسس، وخصوصا بتمديد مدة الاعتقال خلال المحاكمة في ظروف جد صعبة. الشيء الذي يرغم المتهم على طلب المثول أمام المحكمة «لإرضاء ضميره» حسب ما تدعيه المحاضر.

وكلما استنفدت المحكمة هذه الوسائل التجأت الى التعذيب الذي كان مقننا ويخضع لعدة درجات حسب صمود وتحمل المتهم. ومات لهذا عدد من المتهمين، اما داخل زنزانات السجن، او بين أيدي المعذبين.

---

10) Lucio de Azevedo – op. cit p. 90. ووصف المؤرخ البرتغالي O. Martins هذه الأوضاع الجديدة التي فقد فيها الإنسان انسانيته «بالطاعون» راجع – Historia de Portugal. p. 329.

وتقدم دراسة واستغلال مادة محاضر محاكم التفتيش خدمة كبيرة لمؤرخ الغزو البرتغالي، وخصوصا لمؤرخ نتائجه الفكرية والدينية على المغرب. وهذه المحاضر التي لم يتم بعد استغلالها بالبرتغال بالمقارنة مع الاهتمام الخاص الذي أولي لمحاكمات اليهود. تكمل المعلومات التي زودتنا بها المصادر البرتغالية الأخرى، وتسد بعض الثغرات التي تركتها. والمحاضر المتعلقة مباشرة بالمغرب تتكون من ثلاثة أنواع متميزة :

1 ـ المحاضر المتعلقة بقيام المغاربة بطقوس وشعائر اسلامية.

بالاضافة الى اهتمام هذه المحاضر بأوضاع هؤلاء المغاربة المادية (مهنهم، ظروف عيشهم) والقانونية (كان منهم العبد والحر، ونصف الحر، ومن هو في وضعية ثلاثة أرباع الحر..!)، تسلط هذه المحاضر الأضواء عن نسبة تدين هؤلاء، ومدى تمسكهم بالدين الاسلامي وأحكامهم على المسيحية، وتخبرنا عن عقليتهم (فكر غيبي، ايمان بالسحر...) وعن كيفية تنظيم افراحهم (الزواج العقيقة، الاعياد...) وأحزانهم (الولائم التي تلي موت أحدهم مثلا).

وهذا النوع من المحاضر المتعلقة بالمغرب هو أكثر الأنواع الثلاثة عددا.

2 ـ محاضر تتعلق بالتهريب بسواحل المغرب.

تتعلق هذه المحاضر بتجار برتغاليين استمروا في التعامل التجاري

مع المغاربة رغم التحريم الذي اعلن عنه الملك اثر اضطراره الى التخلي عن عدد من الموانىء المغربية بعد سنة 1541. كما كان هؤلاء التجار يحصلون على اموال طائلة من نقل مغاربة مقيمين بالبرتغال الى الموانىء المغربية. وإذا كانت هذه المحاضر دون كثرة النوع الأول (11) فان مساهمتها في التعريف بالنشاط التجاري البرتغالي أساسية إذ أنها تخص تجارة أفراد أو شركات لم تخبرنا الوثائق الرسمية الا عن الشيء القليل من أنشطتها.

كما أن اعترافات المهربين المعتقلين تسلط الأضواء على أنواع السلع التي كانوا يروجونها، وأثمانها، وتطور الطلب عليها، وتشير الى السلع التي كانوا يقتنونها بالموانىء المغربية. وإذا اضيفت الى هذه المحاضر ما يعرف بـ «الايصالات» أو «وثائق ابراء الذمة» (12) وكذا الوثائق الرسمية المتبادلة ما بين الملك ووكلائه التجاريين، أصبح بالامكان تحديد المكانة الاقتصادية التي كان المغرب يحتلها داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية. وتحديد مدى استفادة كل من البرتغال والمغرب من تلك المبادلات التي تمت في وقت كانت الغلبة فيه للبلد الأول.

11) استطعت الحصول على نسخ لـ 23 محضرا مما يوفر أكثر من 700 ورقة من هذه الوثائق النفيسة.

12) للتعرف على هذه الوثائق ولأخذ فكرة عن أهميتها راجع دراستنا : أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي... مصدر سابق ص ص ، VI.VII.VIII. وملحق الدراسة الذي يحتوي على ترجمة 23 ايصالا.

3 ـ محاضر تتعلق بالجهاد البحري المغربي خلال القرن السادس عشر.

تسلط هذه المحاضر أضواء جديدة على موقف المغاربة من الغزو الايبيري لسواحل بلادهم. فبخلاف ما أدعاه بعض المؤرخين الاجانب، لم يؤد احتلال موانيء شمال المغرب إلى توقيف العمليات البحرية التي كانت تستهدف سفن وسواحل البرتغال. فقد تم القاء القبض على عدد من المغاربة من بينهم اعراب من ناحية القصر الكبير كانوا يتعاطون لهذا النوع من الجهاد.

وتخضع كل محاضر محاكم التفتيش الدينية لتصميم شبه موحد. فهي تبدأ بالأمر الصادر عن المفتش الديني باعتقال المتهم، يليه محضر الاعتقال والايداع بالسجن الخاص بالمحكمة. وتأتي بعد ذلك محاضر الجلسات بالتتالي مع تواريخ تنظيمها واعترافات المتهم. ويلحق بتلك الاعترافات تدخل «المحامي المراقب» وتقويمه لتلك الاعترافات. فإذا اعتبرها كافية أصبح بامكان القاضي أو القضاة النطق بالحكم، وإذا اعتبرها غير كافية قام بمرافعته التي يليها رد المتهم أو محاميه. وبعد تدخل الطرفين يتم النطق بالحكم. وبعد ذلك يأتي محضر التخلي العلني للمتهم عن خطاياه في حفل ديني كبير. وتختم المحاضر بحصر مصاريف المحاكمة الواجب اداؤها من طرف المتهم، يليه تاريخ تسريح المتهم وخلع «لباس التوبة» عليه.

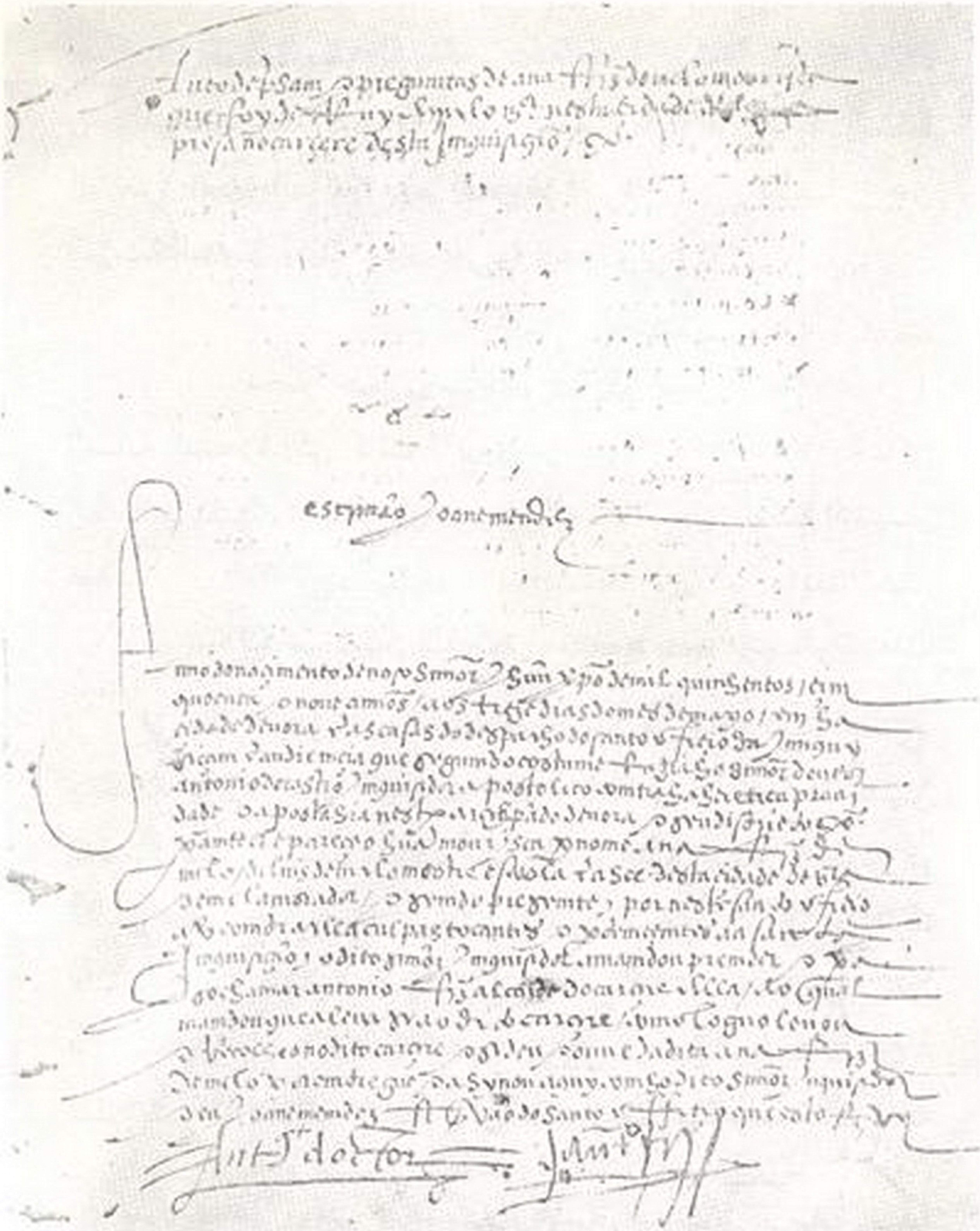

الورقة الأولى من المحضر وهي تتعلق بالأمر الصادر عن المفتش الديني باعتقال المتهمة

الترجمـــة :

اتهامات واعترافات (آنـة دو ميلـو Ana de Melo)، المسلمة المتنصرة الحرة الساكنة بهذه المدينة. (Evora) الحبيسة بسجن المؤسسة المقدسة، وذلك بسبب جريمة البدعة والردة (13).

1559

و 1 محضر حبس واستنطاق (آنة دو ميلو Ana de Melo) المسلمة المتنصرة التي كانت لـ (روي دو ميلو Rui de Melo) الساكن بهذه المدينة يابرة، والتي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه.

الكاتب (جوان منديـش Joane Mendes)

في سنة الف وخمسمائة وتسعة وخمسين من ميلاد سيدنا المسيح، وبمدينة يابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش المقدسة، ضمن الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو Antonio de Castro)، المفتش الديني البابوي ضد البدع والردة بأسقفية يابرة هذه ومقاطعتها... الخ، مثلت أمامه مسلمة متنصرة تسمى (أنه دو ميلو Ana de Melo) عبدة (لويش دو ميلو Luis de Melo) معلم بمدرسة كتدرائية مدينة يابرة هذه، ومقيم بها. ولما مثلت أمامه

---

13) عنوان المحضر. وبأعلى الورقة، بالزاوية اليسرى كتب : (أنة دو ميلو)، المسلمة المتنصرة، وبالزاوية اليمنى كتب : القسم الثاني.

لكونها اقترفت آثاما من اختصاصات محاكم التفتيش المقدسة. فان السيد المفتش المذكور أمر بحبسها. ولهذا استدعى (أنطونيو فرننديش (Antonio Fernandes قائد السجن. وأمره بقيادتها الى زنزانتها. الشيء الذي نفذه فورا وأمضى هنا الى جانب السيد المفتش. وحررت هذا. أنا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

ـ أنطونيوش دكتور (إمضاء)

و. 1 . ب. وفور ذلك، وفي نفس اليوم والشهر والسنة، وبأمر من السيد المفتش المذكور. التحقت أنا. (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة بالسجن. حيث توجد رهن الاعتقال (أنة فرننديش (Ana Fernandes المسلمة المتنصرة. وذلك بمحضر (أنطونيو فرننديش (Antonio Fernandes قائد السجن المذكور. وطلبت من (مرغريدا لورنسو (Margarida Lourenço الحبيسة كذلك بالسجن المذكور. أن تقسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها. والتي بسبب ذلك كلفتها بالذهاب لتفتيش (أنة فرننديش دوميلو). المسلمة المتنصرة السابقة الذكر. ومعاينة ما إذا كانت تحمل أموالا أو سكينا أو شيئا آخر. ووعدت (مرغريدا) اعتبارا للقسم السابق الذكر بتنفيذ ذلك. والتحقت فورا بالمكان الذى كانت توجد به (أنة فرننديش) المسلمة المتنصرة المذكورة. وفتشتها وأخبرتني أنها رأت وفتشت (أنة فرننديش) المذكورة ولم تعثر على شيء عدا سبعة أو ثمانية

«سبتي» (14)، وأطلعتني على هنا بمحضر قائد السجن. حرره (جوان منديش).

- جـــوان منديـــــــش (إمضاء)

الجلســة الأولـــى

في اليوم الثاني والعشرين من شهر ماى، من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين بيابرة. بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش. وخلال الجلسة التي يرأسها كالعادة الدكتور (أنطونيو دو كاشترو) المفتش الديني بأسقفية يابرة هذه، ومقاطعتها... الخ. أمر باحضار (أنة فرننديش)، المسلمة المتنصرة الحبيسة بسجن هذه المؤسسة المقدسة. ولما مثلت أمامه أمرها بالقسم بالأناجيل المقدسة التي لمستها بيدها ووعدت بقول الحق. وبعد ذلك سألها السيد المفتش عن اسمها وسنها وأصلها ومحل سكناها. وعما إذا كانت عبدة أم حرة ؟ قالت ، انها تسمى (أنة فرننديش دوميلو)، وإن سنها كما يتجلى من مظهرها هو ستون سنة تقريبا. وذكرت أن أصلها من ناحية آسفي، من مكان يعرف

14) مبالـغ ماليـة. ويرجح أن يكون البرتغال قد عرف عملة كانت تنسب الى مدينة سبتة المغربية التي احتلها البرتغاليون منذ صيف 1415. ويلاحظ أن هذا المحضر هو الوحيد الذي وردت به مثل هذه الاشارة اذ ذكرت كل المحاضر التي أطلعت عليها العملة البرتغالية المعروفة ، الريال الفضي، الكرزادو الذهبي.

بالمدينة. (15) وأنها عاشت بلشبونة ما يفوق العشرين سنة، وأنها تعيش بهذه المدينة، يابرة منذ سنتين. وذكرت أنها حرة، وأنها كانت متزوجة وأصبحت أرملة، وأن زوجها كان يسمى (ديغو فرنديش (Diego Fernandes الذي كان مسلما متنصرا وافته المنية، ومنه رزقت بنتا تسمى (ازبيل رودريغش Isabel Radrigues). وهي متزوجة مع شاب أبيض (16) يدعي أنه من أصل نصراني مهنته حلاق، ويسكن بـ (Covillan).

وسئلت عما إذا كان لها أخ أو أخت (بالبرتغال). أجابت أن لها أختا بلشبونة تسمى (مريا رودريغش) متزوجة مع (جوان دو باجة João de Beja). عبد الملكة سيدتنا، وهو مسلم متنصر يعتني

15) هي «المدينة الغربية» أو «مدينة دكالة التي كانت حتى بداية القرن السادس عشر من أكبر مدن دكالة، والتي تسرب اليها الخراب بسبب الحروب التي أشعلها البرتغاليون بالمنطقة بعد احتلالهم لاسفي (1508) وأزمور (1513)، وبسبب المجاعة الكبرى التي عرفتها المنطقة سنة 1520 ووباء الطاعون الذي تلاها سنة 1521.

راجع :
- Leon l'Africain = Description de l'Afrique – édit Epaulard T 1 p. 122.
- De Marurol = de l'Afrique – I pp. 111-112.
- E Doutté = En Tribu – pp. 195-197.

- أحمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة اخلاء أسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481 - أكتوبر 1541)، رسالة جامعية بخزانة كلية الآداب، الرباط (ص ص. 49، 164، 381...)

16) يلمس من هذه الجملة شك الكاتب في كون من قبل الزواج ببنت امرأة متنصرة من أصل نصراني حقيقة. ويتجلى من خلال هذه المحاضر معاناة المغاربة كذلك من الميز العنصري.

بتحركات وتنقلات سموها. وذكرت أنه ليس لها غيرها. وأن أختها المذكورة بدون ذرية.

سئلت عما إذا سبق أن سجنت أو عوقبت هي أو أحد أقاربها على يد المؤسسة المقدسة. قالت ان أختها السالفة الذكر (مريا رودريغش) (و.2) حبست من طرف المؤسسة المقدسة لمحكمة تفتيش لشبونة. وأنه أطلق سراحها على أن تبقى مرتدية لباس التوبة (17) وذلك حسب تقديرها قبل ثلاث سنوات تقريبا. وأن زوجها تم كذلك تسليمه للقضاء المدني (18). وكان يسمى (كرشتفاو فرننديش (Cristovào Fernandes وأنها (آنة دوميلو) لم يسبق لها قبل اليوم أن سجنت من قبل المؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش. وأنها لا تعرف أي قريب سبق حبسه باستثناء أحد أقارب أبيها الذي سجن من طرف المؤسسة المقدسة. وأطلق سراحه بلشبونة خلال السنة الماضية. والذي كان يسمى (جوا سلغادو (Joào Salgadō سئلت عما إذا كانت مسيحية معمدة. وعن اسم الذي أشرف على ذلك. وعن أسماء آباء المعمودية. وعما إذا كانت قد أكدت تنصيرها. وعلى يد من. وفي أي مكان ومن هم الشهداء على ذلك. وما هو إسمها الأصلي ؟

17) لباس خاص بالذين حوكموا من طرف محاكم التفتيش يميزهم عن باقي السكان لقصد أحكام مراقبتهم.

18) أي أنه اعدم. وهي صيغة تسمح للكنيسة التي هي مبدئيا ضد القتل بالحكم بالاعدام اعتمادا على المحاكم المدنية. وكان هذا الحكم يعني الاحراق.

قالت نعم انها نصرانية توصلت بالمعمودية والاسم المسيحي بدير سان بينتو (S. Bento) الذي يوجد خارج هذه المدينة. وذلك نظرا لكونها كانت آنذاك بذاك الموضع صحبة الراهبات . وأنها لا تعرف اسم الراهب الذي اشرف على ذلك نظرا لطول المدة. وكانت أم التعميد مولدة اسمها فرنسيشكا تريغا (Francisco Tourega) التي توجد على قيد الحياة. (وقالت) انها تجهل اسم الاسقف الذي أشرف على تأكيد تنصيرها ببيت روي دوميلو (Rui de Melo) وكانت الشاهدة على ذلك فرتسيشكا دا سيلڤا (F. da Silva) . المسلمة المنتصرة التي توجد في ملكية (روي دوميلو). وكان الشاهد على ذلك رجل يشرف على كنيسة نسيت اسمه (19).

سئلت عما إذا كانت تعترف بذنوبها وتتناول القربان وقت الصوم الكبير من كل سنة. وعما إذا كانت تسمع القداس (و.3) ووالوعظ أيام الأحد والأعياد.

قالت ، انها تعترف في كل سنة بخطاياها خلال الصوم الكبير وتتناول القربان وتسمع القداس والوعظ في الاحاد والأيام المقدسة.

وبما أنها تقول انها نصرانية فقد طلب منها بالطبع أن تقوم برشم الصليب وأن تحمد الإله وأن تقول الصلوات المسيحية.

---

19) يلاحظ أنها نسيت ذكر اسمها الاسلامي. وجاء في محاضر أخرى بعض الأسماء كعائشة، عزيزة، فاطمة، وسعيد وعبد الله، ومبارك، واحمد ومحمد...

قامت (آنة دوميلو) السالفة الذكر برشم الصليب، ولكنها عجزت أن تقول الصلوات وأن تقوم برشم الصليب كما يجب. (20) ورددت صلاة (O. Pater Noster) (21) و (آن مريا) (22) و (Credo) (23) ووصايا دين الله كما يجب. اما صلاة (Salve Regina) (24) فانها تجهلها.

سئلت عما إذا كانت تعلم أو تتكهن سبب اعتقالها بسجن محكمة التفتيش هذه .

قالت يبدو لها أنها متعلقة بسبب أنه لما توفي زوجها حضرت إلى جانب عدد من المسلمين المتنصرين والمسيحيين عشاء أعده أخ زوجها. ولكنها خلال ذلك العشاء لم تقم بأي شيء مما يقوم به المسلمون.. قيل لها انها رهن الاعتقال بهذه المؤسسة المقدسة بسبب اقترافها جرائم تستحق عليها ذلك. ومع ذلك، توسل إليها (المفتش) بمولانا السيد المسيح، وبأمه المقدسة، ان تعترف اعترافا شاملا بكل خطاياها. وبكل ما تعرفه عن نفسها وعن غيرها، لأنه بفعلها هذا، ستستفيد من الرحمة والشفقة التي تخص بها الأم المقدسة الكنيسة . المعترفين والتائبين الحقيقيين. وعلى العكس من ذلك، فإنها إذا ما استمرت على عنادها وسلبيتها، فانها ستعامل

---

20) باسم الله (أعلى)، والابن (أسفل)، والروح القدس (يسار)، إله واحد (يمين)، أمين (تحت)،
21) لعلها صلاة : «ابانا الذى في السماوات...».
22) لعلها صلاة : «المجد لاسمك ايتها القديسة العذراء مريم...».
23) لعلها صلاة : «بالحقيقة نؤمن، إله واحد...».
24) ....«خلاص النفس.......».

بالصرامة التي ينص عليها القانون (و. 3. ب). وعبرت (آنة دوميلو) المذكورة عن رغبتها في التفكير في أمورها. ووعدت بقول كل ما ستتذكره. الشيء الذي حبذه السيد المفتش. وأمر بارجاعها إلى زنزانتها.

وطلبت مني. أنا الكاتب الشرعي. الإمضاء هنا عوضا عنها لكونها لاتستطيع ذلك.

وأمضيت إلى جانب السيد المفتش المذكور.

حرره (جوان منديش) الكاتب بالمؤسسة المقدسة مع الخط المتعلق بـ (α) والتشطيب المتعلق بـ (فرننديش) الذي لم يكن من أجل التزوير.

- أنطونيوش دكتور.

- جوان منديش.

وبعد هنا. وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين. بيابرة.. بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش. وخلال الجلسات التي يرأسها السيد الدكتور (أنطونيو دوكاشترو) المفتيش... الخ. أمر بإحضار (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة التي تخصها هذه المحاضر. وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك. ولما مثلت أمامه أمرها بأداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق.

وبعد ذلك قالت انها لما كانت بلشبونة خلال المدة التي ذكرت

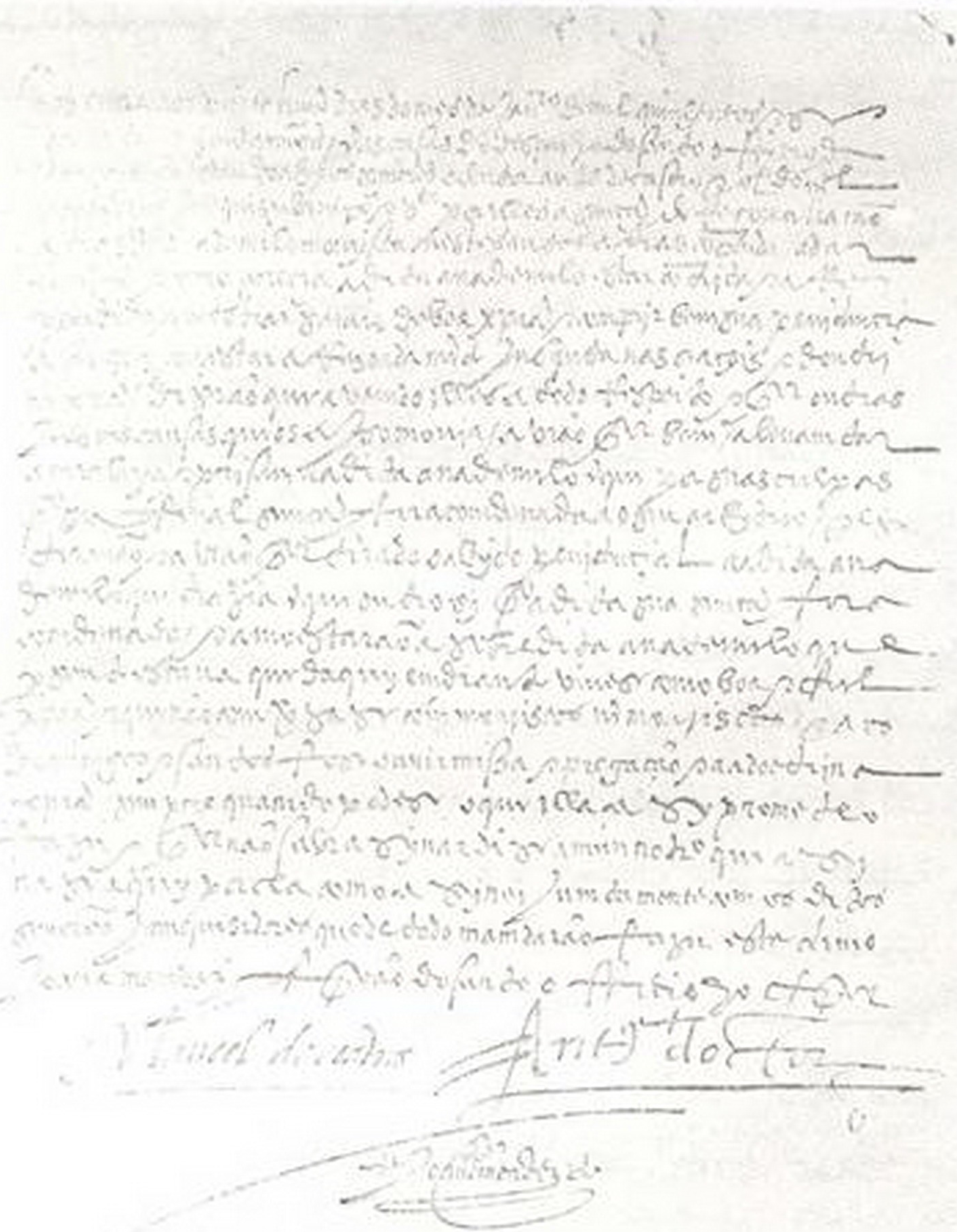

الورقة الأخيرة، وتتعلق بتسريح المتهمة بعد حبسها مدة تفوق السنة

انها كانت تسكن هناك. قالت لها أختها (مريا رودريغش) التي أشارت إليها سابقا أن زوجها كرشتفاو فرنندیش (Cristovào Fernandes) يريد أن يصحبها معه من لشبونة إلى بلاد المسلمين (25)، وأنها لاترغب في ذلك، وأن زوجها السابق الذكر اعتقل من طرف محكمة التفتيش بلشبونة . وتم تسليمه للمحاكم المدنية (و. 4). كما اعتقلوا أختها (مريا رودريغش) وأطلق سراحها بعد ذلك شريطة أن ترتدي لباس التوبة بعد أن ردت إلى الكنيسة الكاثوليكية. ولم تقل غير هذا، نظرا لكونها لم تتذكر غيره، وقالت انها مسيحية صادقة.

وعند هذا الحد أمرت بالعودة إلى زنزانتها. وطلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أمضي نيابة عنها، الشيء الذي قمت به نظرا لكونها لاتستطيع ذلك. وأمضيت إلى جانب السيد المفتش المذكور.

وحرره (جوان منديش) مع التشطيب المتعلق بـ (منديش).

- أطونيوش دكتور.
- جوان منديش

وبعد هذا، وفي اليوم السادس والعشرين من ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور

25) اي المغرب.

(أنطونيو دوكاشترو)، المفتش... الخ. أمر بإحضار (آنة دوميلو) المذكورة، والمسلمة المتنصرة التي تتعلق بها هذه المحاضر، وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك. ولما مثلت أمامه أمرت بأداء القسم بالاناجيل التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وفور ذلك قالت بأنه منذ ثلاث سنوات، أقول ست سنوات، لما كانت هي (آنة دوميلو) بلشبونة، توفي زوجها (د ييغو فرننديش)، المسلم المتنصر. فبكته هي (آنة دوميلو) وناحت عليه كمسلمة، وعلى طريقة المسلمين، مبعثرة شعرها وخادشة خديها ومتوسلة في شأن روح وجسد زوجها المذكور إلى محمد والى سيدي أبي العباس السبتي (26) وإلى مولاي علي (27) الذين يعتبرهم المسلمون أولياء لكي (و. 4. ب). يكونوا مع روحه وجسده، وأن ذلك فعلته كمسلمة وبنية من هو مسلم، معتقدة أن ذلك سيفيده، وأنه من الأحسن أن تفعل وأن تقول كذلك لفائدة روح زوجها المذكور. (وذكرت) انه بعد موت (د ييغو فرننديش) المذكور بحوالي ثلاثة أسابيع، تصدق أخ زوجها المذكور، الذي كان يسمى ميغل دوسنتوش (Miguel de Santos) والذي وافته المنية، تصدق بمدينة لشبونة، المذكورة بعشاء لفائدة زوج أخيه (د ييغو فرننديش) على طريقة المسلمين. وتم ذلك العشاء بدار

26) في النص الاصلي Cid belabez ceti . وهو غني عن التعريف.

27) في النص الاصلي Molei Halee . وهو من سبعة رجال مراكش. وجاء في محضر أخر أنه فارس محمد، ولعل الاشارة هنا تقصد عليا بن أبي طالب.

مسلم متنصر من لشبونة، حر ومتزوج كان يسكن بباب البحر، وغادر لشبونة لمكان تجهله. واستدعيت (آنة دوميلو) لذلك المشاء من طرف أخ زوجها وذلك لطبخه على طريقة المسلمين: ووجدت بتلك الدار خروفا مذبوحا، ولكنها لا تعرف من ذبحه. ولا ما إذا تم ذبحه على طريقة المسلمين. ومن لحمه حضرت (آنة دوميلو) نفسها كما أكلوه. وعند الشروع في الأكل قالت (آنة دوميلو) وباقي المسلمين المتنصرين الذين ستذكرهم أسفله : باسم الله. أي ما معناه (28) وذكرت أنها تجهل ما إذا قال باقي المسلمين المتنصرين : «باسم الله» لأنها لم تأكل معهم على نفس المائدة لكونها كانت منهمكة في تحضير الأكل. ولكنها قالت «باسم الله» حينما شرعت في الأكل. وكان المسلمون المتنصرون الذين علمت بهم (و. 5). وعاينت أنهم تعشوا هناك هم الآتية أسماؤهم :

(مغيل دو سنتوش) المذكور الذي توفي. وهو أخ زوجها السالف الذكر، و (أنطونيو فرنند يش) و (مريا فرنند يش)، زوجته. وهما مسلمان متنصران حران. وهما اللذان تم العشاء في بيتهما. وكما سبق أن ذكرت لاتعرف أين ذهبا سوى أنها سمعت أنهما التحقا بقشتالة. وتعشى كذلك هناك ابن لـ (أنطونيو فرنند يش) و (مريا فرنند يش) يسمى (لويش Luis)، والذي قد يكون سنه تسع أو عشر سنوات تقريبا. ورأت

28) أورد الكاتب ترجمة الجملة الى اللغة البرتغالية.

كذلك في ذلك اليوم (غيومار رودريغش فر غوزا Fragosa) المسلمة المتنصرة المعتقلة بهذا السجن، رأتها تدخل ولكنها لا تعرف ما إذا كانت قد أكلت أم لا. كما دخل كذلك مسلمون متنصرون آخرون من لشبونة لاتعرفهم، ولا تتذكرهم. وطلب منها أخ زوجها المذكور تحضير ما سبق ذكره كمسلمة، وبنية من هم مسلم. ولا تتذكر الآن غير هذا. ولكنها ستذكر كل ما ستتذكره. وبما أنها لا تستطيع أن تمضي، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي . أن أقوم بذلك هنا نيابة عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المفتش المذكور، الذي طلبت منه أن يشفق عليها. ـ وحررت هذا. أنا جوان منديش، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

ـ أنطونيوش دكتور.

ـ جوان منديش.

وبعد هذا، في اليوم التاسع والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دوكاشترو) المفتش (و. 5. ب). الخ، أمر بإحضار (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة السابقة الذكر، والتي تتعلق بها المحاضر السالفة. وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك. ولما مثلت أمامه أمرت بأداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وفور ذلك، ذكرت أنها نفسها لما كانت بلشبونة منذ مايقرب من

سبع سنوات حسب تقديرها. وكان ذلك قبل وفاة (ديغو فرننديش) المسلم المتنصر، زوج المعترفة. توفي كذلك هنا بلشبونة مسلم متنصر لاتعرف اسمه لكونهم كانوا لا ينادونه إلا «بالقائد». والذي كان في ملكية فرناو ألفريش دو برتغال (Fernão Alvares de Portugal). وكان زوج مسلمة متنصرة وحرة كانت من قبل عبدة آل (كمويش Camões) وتسمى لويزا دوكمويش (Luisa Camões) والتي كانت آنذاك بلشبونة. وبسبب موت زوجها التحقت بهذه المدينة، يابرة، حيث تسكن أسرة (كمويش) عند مدخل شارع الأمراء. وعندما توفي بلشبونة المسلم المتنصر المذكور المكنى بالقائد، زوج (لويزا دوكمويش) المذكورة، التقتا بالقنطرة (29) حيث ذهبتا للنهر من أجل الغسيل. وهناك قامتا بـ «الدماع» (Adimaã). الذي هو النواح الذي يقوم به المسلمون كلما توفي أحدهم.

وقامت المعترفة و (لويزاكمويش) بالنواح على المسلم المتنصر، «القائد»، زوج (لويزا دوكمويش) المتوفى، مبعثرتين شعرهما، وخادشتين خديهما كما يفعل المسلمون. وقامت المعترفة بذلك بنية المسلمة. ويبدو لها أن (لويزا دوكمويش) المذكورة فعلت ذلك بنفس النية نظرا لكونها ناحت وخدشت خديها كما يفعل المسلمون، وكما فعلت المعترفة. وصادف ذلك النواح والخدش حضور ومشاركة (مريا فرننديش)، (ازبيل

(29) حي مشهور بلشبونة، قرب مصب نهر التيجو (Tejo)

سوارش) و (فرانسيشكا دا سليفا) المسلمات المتنصرات اللواتي التحقن بقشتالة، واللواتي تجهل مكان وجودهن، واللواتي حضرن كذلك العشاء الذي تكلمت عنه المعترفة سابقا، والذي أعده (ميغل سانتوش)، المسلم المتنصر، ترحما على (د ييغو فرنند يش)، أخيه وزوج المعترفة. ونظرا لموت زوجها السابق الذكر، استدعت كذلك (لويزاد دو كمويش) المذكورة المعترفة لحضور عشاء كانت تنوي اعداده (لويزا دو كمويش) المذكورة ترحما على زوجها، وذلك على الطريقة التي يعده بها المسلمون. ولكن المعترفة وعدتها بالحضور إذا ما أمكنها ذلك. ولم تستطع الذهاب إلى ذلك العشاء (في الوقت المحدد) بسبب زوجها (د ييغو فرنند يش) المذكور. ووصلت متأخرة فألفتهم قد انتهوا من الأكل. ووجدت (لويزا دوكمويش) المذكورة صحبة المسلمات المتنصرات المذكورات أعلاه، واللواتي التحقن بقشتالة، وأخريات لاتتذكرهن.

وأضافت أن (لويزا دو كمويش) المذكورة، حينما التقت بها المعترفة بالنهر رأتها وسمعتها تستغيث بسيدي أبي العباس السبتي لكي يساعدها فيما تتمناه معتبرة إياه وليا. وكانت تتوسل كذلك إلى محمد، وتقول أن دين المسلمين أفضل من دين النصارى، الشيء الذي قالته كذلك (آنة دو ميلو) نفسها وهي تتوسل إلى محمد (و. 6. ب)، وإلى سيدي أبي العباس السبتي لكي يساعدها في ماصعب عليها معتبرة اياه وليا. ورجت عن كل هذا المغفرة والشفقة، مؤكدة أنها ستصلح نفسها. وذكرت

أنها الآن لاتتذكر شيئا غير هذا، وأنها ستقول كل ما ستتذكره. وكالعادة لم تقل أي شيء. وذكرت أنها لاتريد شرا لأي واحد من الأشخاص الذين بلغت بهم.

وبما أنها لا تستطيع الإمضاء، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أوقع هنا عوضا عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المفتش المذكور.

وحرر هذا جوان منديش، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

- أنطونيوش دكتور.

- جوان منديش.

قبل المحامي المراقب (30) بالمؤسسة المقدسة باسم العدالة اعترافات المتهمة، على الأقل فيما يجعل منها متهمة.

- جرونموش دو بيدروزو Jerónimos de Pedroso

يابرة، في اليوم الخامس من يونيو من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة المفتش الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)... الخ، أمر بإحضار (آنة دو ميلو) المذكورة نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك. ولما مثلت أمامه(و. 7).أمرت بأداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وبذلك ذكرت أنها تتذكر أشياء أخرى، وأنه بعد مدة طويلة من مغادرة الملك رحمه الله لمدينة

(30) مهمة هذا القاضي شبيهة بمهمة وكيل النيابة.

يابرة بعد إقامته الأخيرة بها، استدعت (أزبيل كريا Isabel Correa زوجة (جرنمو كريا Jeronima Correa التي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه، استدعت في أحد الأيام المعترفة لكي ترافقها إلى تريجلا Torreguela) بمقاطعة هذه المدينة من أجل الفسحة وتناول الطعام هناك. وذهبت المتهمة للقائها بـ (تريغلا) حيث وجدت إلى جانب (ازبيل كريا)ج. منديش. Joana Mendes المسلمة المتنصرة التي كانت في ملكية (منديل منديش) والتي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه، وكذا (مرغريدا داسلفا) Margorida da Silva المسلمة المتنصرة، زوجة (فرنسيشكو دياس Francisco Dias التي كانت بدورها بسجن محكمة التفتيش هذه، (ومريا منديش) المسلمة المتنصرة الأرملة الحبيسة بنفس السجن، و (غرسيا فرننديش Garcia Fernandes) المسلمة المتنصرة المعتقلة كذلك بنفس السجن، و (أويل فرننديش) المسلمة المتنصرة كذلك، زوجة (جوا فرننديش João Fernandes المعتقل بنفس السجن. جلست كل هذه المسلمات المتنصرات على الأرض، الشيء الذي قامت به (أزبيل كريا) المذكورة والمعترفة وأكلن جميعا. وعند الشروع في الأكل قلن جميعا ، «باسم الله»، أي ما معناه (31)، وبعد الأكل عادت كل واحدة إلى بيتها . وقالت المعترفة الكلمة المذكورة (كنا) «باسم الله» بنية من

(31) أورد الكاتب الترجمة البرتغالية.

هو مسلم. وتعتقد أن الأخريات كان عليهن أن يقلن كذلك بنفس تلك النية. وهي الآن لا تتذكر غير هذا. ولكنها ستذكر كل ما ستتذكره (و. 7. ب). وكعادتها ذكرت أنها لاتريد أي ضرر لأية واحدة من المسلمات المتنصرات المذكورات أعلاه. ورجت العفو، وطلبت مني. أنا الكاتب الشرعي. أن أمضي هنا نيابة عنها لأنها لاتستطيع التوقيع. وأمضيت إلى جانب السيد المفتش.

حرره (جوان منديش).

- أنطونيوش دكتور.

- جوان منديش.

وبعد هذا. وفي اليوم التاسع من شهر يونيو من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين. بيابرة. وبقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسية لمحكمة التفتيش. وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دوكاشترو) المفتش... الخ أمر بإحضار (أنة دوميلو). المسلمة المتنصرة المذكورة التي تتعلق بها هذه المحاضر السابقة. وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر انها ترجو ذلك.

ولما حضرت لكي ترضي ضميرها كما ادعت ذلك. أمرها بأداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وفور ذلك ذكرت (أنة دوميلو) المسلمة المتنصرة المذكورة أنها بالإضافة إلى ما صرحت به تتذكر أنها منذ توصلها بالماء المقدس للمعمودية.

وإلى حين اعتقالها من طرف المؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، كانت دوما مسلمة، وآمنت باستمرار بدين محمد، تستغيث به وبسيدي أبي العباس السبتي، وتتوسل إليهما، وكذا إلى مولاي علي اللذين يعتبرهما المسلمون أولياء محمد. وكانت تقول وقت أكلها ونومها وقيامها : «باسم الله» كما يفعل المسلمون، رافعة يديها المفتوحتين نحو السماء، وذلك على طريقة المسلمين. وكلما تجشأت قالت كذلك : «الحمد لله، محمد رسول الله». (32) أي معناه : «أتوسل إلى الله، أو أطلب من الله أن يعينني، ومحمد هو خادمه» (33).

وكانت تقول كذلك : «الله أكبر» (34) كلما اصطدمت بشيء أو حدث لها شيء آخر، أي ما معناه : الله أكبر، الله يرعاني ويساعدني. ومن جهة أخرى، صامت المعترفة لعدة مرات صيام رمضان الذي هو صيام المسلمين. وكانت لا تأكل طول (و. 8). اليوم ولو لقمة واحدة ما عدا خلال الليل، بعد بروز النجوم. وآنذاك كانت تأكل حتى تشبع كما يفعل المسلمون. ورغم أنها صامت عدة مرات صيام رمضان المذكور، فانها لم تكمل أبدا الثلاثين يوما المتتالية التي تكون صيام رمضان الإسلامي.

32) Alandrulaa, Mafoma Laçorolaa

33) تكثر بالمحاضر الترجمات الخاطئة للعبارات العربية التي نطق بها المتهمون امام المحكمة.

34) Aloa quibir

وكانت تصوم فقط خمسة عشر يوما تقريبا. وذكرت (آنة دوميلو) أنها كانت كذلك ترغب في الامتناع عن العمل خلال أيام الجمعة. وذلك كما يفعل المسلمون. ولكنها كانت تشتغل خلال ذلك اليوم لكونها كانت تعيش مع أشخاص آخرين (35).

وهكذا كانت تشتغل من يوم الاثنين إلى يوم السبت. وبعد أن أصبحت حرة بقيت تعمل يوم الجمعة كذلك حتى تضمن خبزها. ولكنها كانت تتمنى أن تمتنع عن ذلك كما سبق ذكره. (وذلك) بنية من هو

سئلت عما إذا كانت تمتنع عن العمل خلال عيد من أعياد المسلمين. أي «العيد الصغير» (36) «وعيد الكبش» (37) و (38) وغيرهما من الأعياد والحفلات الإسلامية. وطلب منها أن تقول الحق. قالت (آنة دوميلو) المذكورة أنها لاتمتنع عن العمل في أي عيد من أعياد المسلمين لكونها لا تعرف تواريخ الاحتفال بها. وانها لم تقم بطقس ديني غير ما ذكرت لكونها تجهلها بسبب انتمائها للاعراب الذين يعيشون بالبوادي

---

35) أي انها كانت عبدة وتعيش ببيت سيدها.

36) Pascoa dalguice guea . وهو عيد الفطر.

37) Pascoa do carneiro. . وهو عيد الأضحى.

38) a do corpo. مشطب عليها.

(39) وأضافت أنها تتذكر كذلك أن (مسيا دوميلو (Mocia de Melo المسلم المتنصر الذي كان عبدا لـ (سيماو دوميلو (Simão de Melo ورفيقته (مريا منديش). المسلمة المتنصرة كذلك، واللذين يعيشان بلشبونة، بشارع الأكياس، وكذا (بيرودا الميدا (Pedro d'Almeda . المسلم المتنصر الحر الذي كان من قبل عبدا لـ (دون بيدرو دا ألميدا) وروجته (جوانة فرننديش)، هي الأخرى مسلمة متنصرة تذري القمح بسوق الحبوب بلشبونة. واللذين يعيشان معا بشارع الأكياس المذكور بنفس دور (دون بيدرو)، وكذا (جوا غنسلفيس Joãs Gonçalvez). المسلم المتنصر الذي كان عبد (دوق أفيرو) وزوجته (مدنيلا رودريغش (Madanella Rodrigues) المسلمة المتنصرة الحرة الساكنين بجانب دير (سنتا كترينا (Santa catarina بلشبونة. من الجهة الداخلية لشارع اكتوبر (40) على مقربة كذلك من دور (دون بيدرو) المذكور، و (مرغريدا)، المسلمة المتنصرة الحرة التي كانت في ملكية (بيدرو دا فونسيكا (Pedro da Fonseca والتي كانت متزوجة مع مسلم متنصر كان عبد دوق (براغنصا)، (41) والتي هي الآن

---

39) حاول عدد من المحاكمين الدكاليين التهرب من التهم المنسوبة اليهم بتقديم هذه الحجة مؤكدين على الفرق ما بين الحضريين والاعراب في القيام بالفرائض. وذكرت امرأة انها لا تصلي لكون النساء لا يقمن بذلك.

40) كلمة غير واضحة بالوثيقة، لذا فقراءتها غير مؤكدة.

41) نسبة الى مدينة (برغانصة Bragança) بالشمال البرتغالي. من امجد الاسر البرتغالية والواها في ظل حكم اسرة (أفيش Avis) التي وصلت الى السلطة بعد ثورة 1383 الشعبية. ولقد تم احتلال مدينة أزمور على يد (دوق برغانصة).

أرملة وتعيش بدار متصلة بكنيسة (سان ازان San Isan) بـ «ألفامة» (42) بلشبونة. استدعت المعترفة كل هؤلاء المسلمين والمسلمات المتنصرين لحضور العشاء الذي تكلمت عنه سابقا، والذي أعدته المعترفة بلشبونة.

وتمشى كل هؤلاء المسلمين والمسلمات المتنصرين. وفي بداية الأكل قال الجميع : «باسم الله». وعند نهايته توسلت المعترفة وكل السابقي الذكر (و. 8 ب). إلى محمد وإلى سيدي أبي العباس السبتي. وكذا إلى مولاي علي من أجل رحمة روح زوجها المذكور. وتأسفوا عليه هناك جميعا وبكوه على طريقة المسلمين. وصرحت أن أخ زوجها (ميغل دو سنتوش)، المسلم المتنصر أمر بإعداد العشاء المذكور ترحما على زوج المعترفة نفسها الذي هو أخوه. وهو الذي نادى المعترفة لكي تذهب لطبخ العشاء. ولقد ذكرت أنها ذهبت فعلا.

وبذلك تمشى الأشخاص الذين أعطت المعترفة أسماءهم بتفصيل في هذا الاعتراف، وهم الذين استدعتهم للعشاء المذكور كما صرحت بذلك أعلاه. وذكرت أيضا أنه بعد موت (دييغو فرننديش)، زوجها هي (أنة دوميلو)، بما يقرب من خمس سنوات، سألتها وعرضت عليها (مريا دا سيلڤا)، المسلمة المتنصرة الحرة والمتزوجة مع (ديغو دا أبرانش

---

42) يعتبر اليوم من أشهر أحياء لشبونة. ويمتاز بأزقته الضيقة والملتوية. وكان حيا خاصا بيهود العاصمة. والكلمة عربية الأصل عرفت تحويرا في النطق والاملاء ولعلها كانت «الحماقة».

(Diego d'Abranches . المسلم المتنصر الذي كان عبد الأمير (دون لويش (Don Luis رحمه الله، والذي يذري القمح بسوق لشبونة، واللذين كانا يسكنان باسطبل نفس الأمير، سألتها واقترحت عليها الذهاب معها ومع زوجها إلى بلاد المسلمين لكي تعودا هناك مسلمتين، ولكن المعترفة أجابتها انها لاتريد ذلك.

كما صرحت أن (مريا دوسلفا) المذكورة قالت لها ذلك منذ خمس سنوات تقريبا، وأن زوجها (د ييغو فرنند يش) توفي منذ مايقرب من سبع سنوات، وأنه كذلك منذ ثلاث سنوات قالت لها (كترينا دوسا (43) (Catarina de Sa) المسلمة المتنصرة الحرة والمتزوجة التي لاتعرف اسم زوجها المسلم المتنصر الذي يعيش بلشبونة، بالمدارس العامة، قالت لها أنها تنتظر الوقت الذي يسمح لها بالذهاب إلى بلاد الإسلام، والذي تعثر فيه على من يقبل مرافقتها وزوجها إلى هناك لتعود هي وزوجها إلى الاسلام، ولم تقل شيئا، ورجت المغفرة والعفو عن خطاياها، وقالت انها لاتريد أي ضرر لأي واحد من الأشخاص الذين بلغت بهم، وطلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أوقع هنا نيابة عنها لكونها لاتستطيع ذلك، وأمضيت إلى جانب السيد المفتش.

(43) ورد بعدد من محاضر محكمة لشبونة أن هذه السيدة كانت من أكثر المغاربة المقيمين بالعاصمة البرتغالية اصرارا على العودة إلى بلادها، وقامت بعدة اتصالات وادت عدة مرات مبالغ لبعض البحارة البرتغاليين المتخصصين في نقل المغاربة - سريا - الى موانيء المغرب

وحرره (جوان منديش) مع التشطيب الذي يتعلق بـ (؟)

والتعديل المتعلق بـ ((Com)).

ـ أنطونيوش دكتور.

قبل المحامي المراقب نيابة عن العدالة اعترافات المتهمة. على الأقل في ما يجعل منها متهمة.

ـ جرونيموش دو بدروزا Jeronimos de Pedrosa

(و. 9.) وبعد هذا. وفي اليوم التاسع عشر من شهر يونيو من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين بيابرة. بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش. وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المفتش... الخ مثل أمامه المجاز (جرونيمو دو بيدروزا) المحامي المراقب بالمؤسسة المقدسة وذكر أنه تأمل النازلة. وألفى العدالة تقبل اعترافات المتهمة. وطلب من سماحته أن تأمر بإلحاق الخطايا المنسوبة لـ (آنة دوميلو) المذكورة بمحضرها. وأن توجه إليه للاطلاع عليها ليتمكن من المرافعة النهائية. الشيء الذي أمر السيد المفتش المذكور بالقيام به وبتسليمه إلى المحامي المراقب المذكور لكي يرافع في نهايه الأمر. وذلك نزولا عند رغبته. وتنفيذا لذلك أضفت، أنا الكاتب، لهذا المحضر الخطايا المذكورة التي تأتي أسفله بالتالي.

وحرره جوان منديش.

(10.9) الخطايا المنسوبة لـ (آنة فرننديش دوميلو)، المسلمة المتنصرة.

في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين. بيابرة. بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش حيث كان موجودا السيد الدكتور (أنطونيو دوكاشترو) المفتش... الخ مثل أمامه المجاز (جرمينودو بيدروزا) من المستشارين القضائيين لمولانا الأمير الكردنال. (44). والمحامي المراقب بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش. وطلب من السيد المذكور أن يأمر بإلقاء القبض على مسلمة متنصرة تسمى (آنة فرننديش) كانت عبدة (روي دوميلو) الساكن بهذه المدينة. يابرة. نظرا لكثرة ما تنسبه المؤسسة المقدسة لها من ذنوب تستوجب اعتقالها. ويتمنى احالتها على المحكمة. ولهذا يرجو ويلتمس من سيادته تنفيذا شاملا للعدالة. وذكر السيد المفتش المذكور أنه وافق على ما رجاه والتمسه لكونه لا يخالف القانون. وأمر بإطلاعه على الخطايا المنسوبة لـ (آنة فرننديش) المسلمة المتنصرة المذكورة.

وبعد الإطلاع عليها. ونظرا لكونها بدت له كافية. فإنه أمر بنسخها لكي تبرر أعتقال (آنة فرننديش) المذكورة. وتنفيذا لذلك نسخت أنا. (جوان منديش). الكاتب بالمؤسسة المقدسة هنا خطايا (آنة منديش). المسلمة المتنصرة المذكورة. تلك الخطايا التي ستأتي أسفله بالتتالي.

وحرره (جوان منديش). الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

---

44) دون هنري (1522 ـ 1580). ابن الملك (امنويل). وهو لذلك أخ الملك (جوا الثالث). تم تعيينه في 22 يونيه 1539 مشرفا على كل محاكم التفتيش الدينية البرتغالية. وهو الذي خلف (دون سبستيان بعد موته بالمغرب (1578 ـ 1580).

شهادة (مريا نونش)، المسلمة المتنصرة الحرة الساكنة بهذه المدينة، يابرة، المعتقلة بسجن محمكة التفتيش هذه، ضد (آنة فرننديش دوميلو) المسلمة المتنصرة المعتقلة كذلك بالسجن المذكور، هذه الشاهدة التي توجد ضمن اعترافات (مريا نونش) المذكورة، وهي بالورقتين، 3 و 4.

وبعد هذا . وفي اليوم الثلاثين من شهر مارس من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وبعد حضور السيد الدكتور (انطونيو دو كاشترو)، المفتش... الخ، مثل أمامه (أنطونيو فرننديش)، قائد السجن، وأخبر السيد المفتش ان (مريا نونش)، المسلمة المتنصرة المعتقلة بهذا السجن ترجو المثول أمامه، وفور ذلك أمر السيد المفتش المذكور بإحضارها، ولما حضرت سألها عما إذا كانت قد طلبت ذلك، فأجابت انها فعلت ذلك لرغبتها في إرضاء ضميرها من أشياء تذكرتها. وفور ذلك أمرها السيد المفتش بأداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. قالت انه قبل أربع عشرة سنة أو خمس عشرة، ومن ذلك الوقت إلى الآن، أقول من ذلك الوقت إلى الأربع أو الخمس سنوات الأخيرة كانت (مريا نونش)، وفلان (كذا)، وبعض المسلمات المتنصرات،

45) يلاحظ ان المحضر يعود الان الى الوراء، الى ما قبل اعتقال المتهمة، ذلك ان المحكمة بعد توصلها باعترافات المتهمين تفتح ملفات خاصة بكل من تم التبليغ به، واذا ما لاحظت المحكمة ان الخطايا كافية لاعتقال المتهمة يحرر الامر بالاعتقال.

وكذا مسلمة متنصرة أخرى تسمى (أنة دوميلو) (و. 10. ب). التي كانت عبدة (روي دوميلو) رحمه الله. وكذا أخرى تسمى فلانة. تسكن بالمكان الفلاني. وأيضا فلان وفلانة المسلمة المتنصرة. عبدة فلان. وذكرت أن (أنة دوميلو) المذكورة تسكن مع فلانة المسلمة المتنصرة المذكورة. وانها كانت لها معهن جميعا. ومع كل واحدة منهن محادثات وصداقة. فكلما مرت بالشارع والتقت مع كل واحدة منهن تحدثن في ملة محمد. وتوسلن إلى سيدي أبي العباس السبتي. أحد أولياء المسلمين. وتوسلن إلى محمد. وأن المسلمات المتنصرات المذكورات كن يعتبرن أبا العباس السبتي وليا وكذا محمد. وان (مريا نونش) كانت تتوسل إلى محمد وسيدي أبي العباس السبتي بنية من هو مسلم. وأنها تعتبر انهما قادران على مساعدتها في كل أمورها. وأدعت أن الخطيئة أضلتها. وانها قامت بهذا عدة مرات من الوقت الذي ذكرته إلى الآن. وأنها كذلك كانت كلما أكلت أو انتهت من ذلك تقوم بطقوس إسلامية. قائلة «باسم الله» «والحمد لله» (46) كما يفعل المسلمون. وقالت أيضا ذلك بعض المسلمات المتنصرات من الوقت المذكور إلى الآن. وكانت هاته المسلمات المتنصرات. وكذا فلانة و (مريا نونش). كن يذهبن في بعض المرات إلى بيت (البارون) حيث تقيم فلانة وفلانة صحبة زوجيهما فلان وفلان. وهناك كانوا يتوسلون جميعا إلى محمد وإلى سيدي أبي العباس السبتي. وكانوا يتوسلون كلما أرادوا

(46 Andrulaa, byzmilaa

الجلوس أو الوقوف كما سبق ذكره. وكانت (مريا نونش) بدورها تفعل كذلك بنية من هو مسلم دون أن يمنعها عن ذلك كونها توصلت بماء المعمودية المقدس.

سئلت عما إذا قاموا بأشياء أخرى من ملة محمد، وعما إذا قالوا انها حسنة وأفضل من دين النصارى لأنه توجد معلومات تثبت أنها قالت وفعلت أمورا أخرى بالإضافة إلى ماذكرت ضد ديننا المسيحي المقدس. وطلب منها قول الحق لأن قوله الآن سيفيدها أكثر مما لو قالته بعد ذلك. ورغم ذلك، توسل إليها بسيدنا المسيح وبأمه المقدسة جدا أن تقول الحقيقة كلها لأنه بقولها ستمنح لها الرحمة التي تضمنهـا الكنيـسة الكاثوليكية للمعترفين الحقيقيين. وبالسكوت عنها. وبإخفائها. ستعرض للصرامة التي ينص عليها القانون.

(و. 11). وبعد ذلك مباشرة ذكرت (مريا نونش) المذكورة انه أيضا بدار البارون المذكورة قام بالشعائر الدينية (الإسلامية) كل الذين سبق ذكرهم. وقالوا ان ملة محمد أفضل من دين النصارى. ولم تعارض ذلك القول بل على العكس كان يعجبها أن تسمع ذلك. ولكنها الآن تتأسف كثيرا لكونها فعلت وقالت ما سبق ذكره. ولكونها آمنت بملة محمد. ورجت المغفرة عن كل هذا لأنها نادمة عليه.

وصرحت ان (آنة دوميلو) المذكورة. وفلانة. المسلمة المتنصرة السوداء، وفلانة. أسيرة فلانة وفلانة. أسيرة فلان. هاته النساء الخمس

المذكورات أعلاه لم يكن يرافقنها إلى النهر من أجل الغسيل. ولا إلى دار البارون التي أشارت إليها. ومع ذلك. إذا ما لقيتهن صدفة بالشارع أو في أي مكان آخر. كانت تراهن وتسمعهن يتوسلن إلى محمد وإلى سيدي أبي العباس السبتي. ويستغثن بهما. ولم تسمع قط غير هذا لأنها ليست ذات صلة وطيدة بهن أو بغيرهن من اللواتي ذكرتهن أعلاه. وعن كل هذا رجت المغفرة. وبما أن الجلسة دامت مدة طويلة. فإن السيد المفتش أمرها بالعودة إلى زنزانتها. وأمرها بالتفكير جيدا في أمورها. وبالتعجيل في التخفيف عن ضميرها لأنه بذلك قد لا يطيل محاكمتها. وكالعادة لم تجب. وبما أنها لاتعرف كيف توقع،فقد طلبت مني. انا الكاتب الشرعي، ان أوقع نيابة عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المفتش.

وحرره بنتو نونش (Bento Nunes) . كاتب أسرار العدالة.

الشهادة التالية توجد ضمن اعترافات (غيومار رودريغش فراغـــوزا (Guiomar (Rodrigues Fragosa . المسلمة المتنصرة المعتقلة بسجن محكمة التفتيش هذه بالأوراق (47).

وبعد هذا. وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين . بيابرة. بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة بمحكمة التفتيش. وبمحضر السيد الدكتور (انطونيو دو كاشترو)، المفتش البابوي باسقفية يابرة هذه ومقاطعتها.... الخ. وخلال الجلسات التي

47) لم يذكر الكاتب أرقام الأوراق التي يحيل عليها.

يرأسها كالعادة. حضر (أنطونيو فرنند يش) قائد سجن المؤسسة المقدسة وأخبر السيد المفتش أن غيومار رودريغش فراغوزا. المسلمة المتنصرة المعتقلة بالسجن المذكور ترجو المثول أمامه. وفور ذلك أمرها السيد المفتش المذكور بالمجيء.

(و. 11. ب). ولما حضرت أمرها بأداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق بشأن كل ما ستسأل عنه أو تعلمه.

وبعد ذلك مباشرة ذكرت أنها تذكرت أيضا أن (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة الحرة التي كانت في ملكية (روي دوميلو) المعتقلة بسجن المؤسسة المقدسة هنا. قالت لها أنه بعد موت زوجها هي (آنة دوميلو). استدعاها أحد اخوة زوجها هي (آنة دوميلو). واستدعى آخرين. وبالكسكس أعدا طعاما كما يعده المسلمون حينما يتوفى أحدهم.

وذكرت أنه يبدو لها أن (آنة دوميلو) المذكورة قالت انهم أكلوا آنذاك ذلك الطعام الذي أعداه كما يأكل المسلمون. وقالت لها كذلك (آنة دوميلو) المذكورة أنها جاءت من لشبونة إلى هنا (48) خوفا من أن يبلغ بها لدى محمكة التفتيش وأن تعتقل بسبب الطعام المذكور الذي تناولوه. وأن هذا هو ما تذكرته الآن. وان تذكرت غيره فإنها ستأتي لذكره. وبهذا تم الأمر بإرجعها إلى زنزانتها. وبما أنها لاتعرف كيف توقع، فقد طلبت

48) أي مدينة يابرة.

مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أمضي نيابة عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المفتش.

كتبه (بنتو منديش)، كاتب المؤسسة المقدسة الشرعي.

تم نسخ الشهادات أعلاه عن أصولها الخاصة بعناية وأمانة على يدي، أنا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة، ووقعت هنا بعلامتي الخاصة المنبسطة.

وحرر بيابرة، في اليوم السابع والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين. مع التشطيب المتعلق بـ (Hox)، والذي لم يكن من أجل التزوير.

- جوان منديش.

هذه الخطايا تفرض اعتقال (آنة فرنينديش دوميلو).

- أنطونيوش دكتور.

(و. 12).الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المفتش ضد البدع الممقوتة وضد الردة باسقفية يابرة هذه ومقاطعتها... الخ، آمركم (غنصلو فلوسو (Gonçalo Valloso . الحاجب بالمؤسسة المقدسة أن تلقوا القبض على (آنة فرنينديش دو ميلو) المسلمة المتنصرة، أسيرة (لويش دوميلو) المعلم بمدرسة توجد بكتدرائية مدينة يابرة هذه، والتي تقطن بنفس المدينة، وذلك بسبب خطايا تهمها هي من اختصاص المؤسسة المقدسة لمحكمة

التفتيش. وبعد اعتقالها خذوها إلى سجن محكمة التفتيش هذه. وسلموها (لأنطنيو فرننديش)، قائد السجن المذكور.

يابرة. في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين.

وحرر على يد (جوان منديش)، الكاتب.

- أنطونيوش دكتور.

(و. 12. ب). وبعد إلحاق هذه الخطايا (بالمحاضر) كما سبق أن ذكرت، أطلعت عليها، أنا الكاتب، المجاز المذكور (جرنيمو بيدروزا)، المحامي المراقب بالمؤسسة المقدسة تنفيذا لأوامر السيد المفتش المذكور.

كتبه جوان منديش.

للمحامي المراقب بالمؤسسة المقدسة، وذلك للتمكن من المرافعة النهائية.

ومباشرة بعد ذلك، وفي نفس اليوم والشهر والسنة والمذكورين أعلاه. بمحضر السيد المفتش المذكور، مثل المجاز المذكور (جرمينو بيدروزا) المحامي المراقب بالمؤسسة المقدسة. وقدم هذه النازلة القانونية صحبة مرافعته النهائية التي تأتي أسفله.

كتبه (جوان منديش).

- أنطونيوش دكتور.

السادة المفتشون الموقرون جدا.

من هذه المحاضر ورقات عدد (49) يتبين أن المتهمة نصرانية معمدة ومعروفة بهذه الصفة، ومن محاضرها الشخصية، وكذا من خطاياها، وأيضا من اعترافاتها نفسها. يتبين أنها ابتعدت عن عقيدة سيدنا المسيح ورجعت إلى ملة محمد واستمرت في ذلك من يوم تنصيرها إلى أن تم اعتقالها بسجن هذه المؤسسة المقدسة. ونظرا لهذا، تستحق أن تعتبر ملحدة ومرتدة، وذلك باعتناقها الملة المحمدية وقيامها بشمائر وطقوس محمدية... (50) واعتبارا لكون اعترافاتها تسمح لها بأن ترد ثانية إلى الكنيسة الكاثوليكية وتحول دون تعرضها لأشد العقوبات التي ينص عليها القانون، فإنها، عقابا لها على تلك الخطايا، تستحق الحبس ولباس التوبة المؤبد ومصادرة أملاكها... (51).

(و. 13. ب). وبعد هذه المرافعة أمر السيد المفتش بأن يبلغ إليها في النهاية وان تستدعى كل الأطراف لسماع النطق بالحكم النهائي.

كتبه (جوان منديش).

التصريح الذي قامت به (غيومار رودريغش دو فراغوزا)، ضمن شهادتها ضد (آنة دوميلو) المذكورة، والتي توجد بمحضر (غيومار رودريغش دو فراغوزا) المذكورة، بالورقتين 19 و 20.

---

49) لم تذكر أرقام الأوراق المشار اليها.

50) كلمات لا تينية وبعض الرموز.

51) كلمتان لا تينيتان.

وبعد هذا، وفي اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وضمن الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المفتش ... الخ، أمر بإحضار (غيومار فرغوزا) المسلمة المتنصرة المعتقلة التي تتعلق بها المحاضر السالفة. ولما مثلت أمامه أمرها بأداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق بشأن كل ما ستسأل عنه أو تعلمه. وفور ذلك طلب منها السيد المفتش أن تقول له منذ متى توفي زوج (آنة دو ميلو) لأن المتهمة ذكرت واعترفت أن (آنة دو ميلو) المذكورة أخبرتها أنه بعد موت زوجها المذكور قامت بطقوس وشعائر دينية من ملة محمد، وأنها هي كذلك شاهدتها تقوم بالطقوس المذكورة . فلتقل منذ متى توفي زوجها المذكور. وفور ذلك ذكرت المتهمة المذكورة (غيمار ردريغش) أن زوج (آنة دو ميلو) المذكورين توفي منذ ما يقرب من ست سنوات. وبعد وفاته أخبرتها بما صرحت به واعترفت به المتهمة ضد (آنة دو ميلو) المذكورة كما سبق أن ذكرت أعلاه، وأن ذلك حدث فعلا نظرا للقسم الذي قدمته.

وبما أنها لا تعرف كيف توقع، كلفتني، أنا الكاتب ، بالإمضاء هنا نيابة عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المفتش.

حرر هذا (بنتو نونش).

تم نسخ هذا كما يجب، وبأمانة، من النسخة الأصلية نفسها التي توجد بمحضر (غيومار فراغوزا) على يدي أنا، (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة، وللتصديق على ذلك،وقعت هنا اعتمادا على خاتمي المنبسط المعتاد.

بمدينة يابرة، في اليوم السادس والعشرين من أكتوبر من السنة المذكورة، ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، مع التعديل الذي يتعلق بكلمة (nos) ، لأن ذلك لم يكن من أجل التزوير.

- جوان منديش.

يابرة، في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل من سنة ألف وخمسمائة وستين، التحقت، انا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة، وبأمر من السادة المفتشين بسجن محكمة التفتيش هذه، حيث توجد رهن الاعتقال (أنة دوميلو) المسلمة المتنصرة التي تتعلق بها هذه المحاضر، وطلبت منها أن تستمع إلى النطق بالحكم المتعلق بها . والذي تحتوي عليه محاضرها، واعتمادا على هذا، أنجزت المحاضر التي بلغتها للسادة المفتشين نزولا عند رغبتهم، وأنا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة، حررت هذا مع التشطيب المتعلق بكلمة (Assy) لأن ذلك صحيح.

النطق بالحكم

اتفق المفتشون الموقعون أسفله... الخ على أنه من خلال هذه المحاضر والاعترافات التي قدمتها المتهمة (أنة فرنسيشكو (52) دوميلو)، المسلمة المتنصرة الحاضرة. يظهر ويتجلى انها تنصرت وتوصلت بالمعمودية المقدسة. واضحت مرغمة على الايمان بتعاليم الأم المقدسة الكنيسة. ولكن المتهمة قامت بالعكس، وابتعدت عن ديننا المسيحي وارتدت إلى الملة المحمدية اللعينة التي كانت تؤمن بها من قبل، وأصبحت تضم نفسها لمسلمين متنصرين آخرين في بعض المأدبات. حيث كانت الوجبات التي تؤكل. والدعوات التي ترتل على المائدة تتم بطريقة المسلمين. وكانت المتهمة تقوم بكل هذا كمسلمة. وبسبب إيمانها بملة محمد. وبهذه الصفة كانت تتوسل إليه وكذا إلى سيدي أبي العباس السبتي، وإلى آخرين يعتبرهم المسلمون أولياء. وبهذا الإيمان نفسه. وبسبب موت أحد الأشخاص. استدعت المتهمة مسلمين ومسلمات متنصرين. وخلال تلك المأدبة قاموا بكل طقوس المسلمين. وبعد انتهاء المأدبة بكت صحبة الأفراد الآخرين الميت على طريقة المسلمين. وتوسلوا لمحمد أن يرحمه. وقامت المتهمة بكل هذا بنية من هو مسلم. وبهذه الصفة كانت تمتنع عن العمل أيام الجمعة وتصوم صيام رمضان لعدة أيام. وإن كانت لا تتم الشهر كله. وقامت بهذا خلال السنوات التي

---

52) الصحيح، فرنانديش.

ظلت مبتعدة عن الايمان. (تلك السنوات) التي كانت كثيرة كما صرحت بذلك ضمن اعترافاتها. ولقد احتفظت بذلك الايمان إلى أن تم اعتقالها. وخلال المدة المذكورة لم تعترف بتلك الخطايا لاب الاعتراف. ولم تكن تؤمن حتى بكون الخبز والخمر المقدسين الجسم الحقيقي لسيدنا المسيح. واعتمادا على كل هذا. بالإضافة إلى ما تحتوي عليه المحاضر. يصرحون أن المتهمة كانت مبتعدة عن ديننا المسيحي المقدس ومرتدة عنه. وانها معرضة للحكم بالفصل الأعظم وغيره من العقاب الذي ينص عليه القانون بشأن مثل هذه الخطايا الأكيدة.

ومع ذلك، واعتبارا لكون المتهمة اقتدت بالنصائح التي قدمت لها ورجت بسرعة العفو عن خطاياها. مقدمة دلائل على توبتها، واعتبارا لقلة الإرشادات التي أعطيت لها في أمور الايمان. وبالإضافة إلى ما يلاحظ من المحاضر. تقبلوا توبة المتهمة (آنة فرنديش دو ميلو) وانضمامها إلى الأم المقدسة الكنيسة كما رجت ذلك. ويأمرونها بالتخلي حسب الأصول عن بدعها الضالة. وعقابا لها عليها يحكمون عليها بالسجن وبالبدلة إلى أجل غير مسمى وحسب مشيئة المفتشين. حيث ستلقن كما يجب تعاليم الدين.

ويأمرون أن تكون معفاة حسب الأصول القانونية من الفصل المذكور عن الجماعة الذي كانت معرضة له. وان تؤدي المصاريف.

- انطونيوش دكتور.

- منويل دو كوادروش.
- لويش الفريش دوالي فيرا.
- أنطونيوش بيريرا دكتور.
- بلا جيوش دكتور.

(و. 15 ب). تم النطق بالحكم المكتوب أعلاه بالحفل الديني العمومي (53) الذي احتفل به بهذه المدينة. يابرة. بساحة دور محكمة التفتيش المقدسة. (أنا) (بنتونونش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة الذي أعلنته نزولا عند رغبة السادة المفتشين في شخص (آنة دوميلو). المسلمة المتنصرة المذكورة التي تتعلق بها المحاضر السالفة. والتي خرجت خلال الحفل المذكور لسماع النطق بحكمها المذكور في يوم الاحد 12 من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وستين بمحضر السادة ، الدكتور (أنطونيو دوكاشترو). والمجاز (منويل دو كوادروش) المفتشين... الخ والسادة المحترمين جدا (منويل سنتوش). أسقف تارغا (54). ودون (جيرمينو بريرا) اسقف (55). (وبيرو دوميراندا). المشرف الأول على كنيسة الكردينال الأمير سيدنا. و (55) كتدرائية مدينة يابرة هذه. و (جوان بيريرا) (55) بها. والدكتور منويل دوفنسيكادو) ومنتروي) القاضي بهذه

53) ما يعرف ب Autodafé
54) قرية على ساحل الأبيض المتوسط قرب تطوان.
55) كلمات غير واضحة بالاصل واستحالت علي قراءتها.

المدينة يابرة وضواحيها والمستمد سلطته من سموه. والدكتور (منويل فييز يغاش) القاضي خارج (المدينة وضواحيها) بنفس العدالة. وغيرها. وأيضا حضرها أصحاب السمو الرهبان واللائكيون وعدد كبير من الكهان القانونيين من الكاتدرائية المذكورة. وحضر كذلك عدد كبير من العامة سواء من الرهبان أو اللائكيين.

وحررت هذا انا. (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

وبعد الإعلان عن الحكم المذكور كما سبق ذكره. جلست (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة المذكورة على ركبتيها ويدها على الاناجيل التي كانت في حوزتها. والتي كان يعلوها صليب. جلست على ركبتيها وتخلت علانية عن خطاياها حسب الأصول. ذلك التخلي الذي يأتي أسفله. والذي قرأ عليها بصوت مرتفع ومفهوم. وبعد ترديده صرحت (آنة دوميلو) المذكورة انها تقبله. وأقسمت ووعدت بتنفيذه تماما كما ينص على ذلك تصريحها المذكور. وعند بدايته أمضى عوضا عنها لعدم استطاعتها ذلك (بينتو نونش)، الكاتب الشرعي المذكور بالمؤسسة المقدسة رفقة أنطونيو نابو (Antonio Nabo) . كاهن الصلوات والتراتيل، و (منويل نونش) و (بيرو كويليو) ... (55) بهذه الكاتدرائية. والقاطنين بهذه المدينة الذين حضروا وعاينوا كل شيء ووقعوا جميعا.

وحررت هذا أنا. (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

و. 16). التوبة عن الخطايا حسب الأصول

أنا (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة الساكنة بمدينة يابرة هذه. أقسم امامكم سادتي المفتشين ضد البدع الضالة وضد الردة. أقسم بهذه الاناجيل المقدسة التي أضع عليها يدي انه من تلقاء نفسي، ونزولا عند رغبتي الخاصة. العن كل أنواع الردة والبدع كيفما كان نوعها. وأبعد نفسي عنها. (وأعد) بأن لا أثور ضد الديانة الكاثوليكية المقدسة والكنيسة البابوية. خصوصا في ما يتعلق بالخطايا التي سقطت فيها، والتي اعترفت بها أمام سماحتكم. والتي أمليت علي الآن خلال النطق بالحكم المتعلق بي. والتي رددتها وكررتها هنا بوضوح. وأقسم بالتمسك دوما بالدين الكاثوليكي المقدس الذي تعلمه امنا الكنيسة الرومانية المقدسة وسأكون دوما مطيعة لابينا البابا المقدس جدا (بي الرابع)، سيدنا الرئيس الحالي لكنيسة الإله. ولخلفائه المنتخبين قانونيا. كما أعد بأن لا اجتمع قط معهم وبأن أبلغ لدى المفتشين واساقفة امنا المقدسة الكنيسة بالبدع التي يعلمونها (كذا)، وأقسم وأعد بالتكفير عن ذنوبي كلما فرض علي ذلك. وإذا ماعدت في وقت ما إلى السقوط في تلك الخطايا. أو غيرها من البدع. وإذا ما امتنعت عن التوبة عن خطاياي المفروضة علي حاليا أو مستقبلا. أقبل وأفرح بأن أكون طول حياتي مرتدة، وبالتالي معاقبة حسب القانون. وإذا ما تبين مني في أي وقت ما يخالف ما اعترفت به وصرحت به بعد قسمي، أقبل أن لا تفيدني هذه التوبة في شيء، وأخضع

نفسي للعقاب ولصرامة القانون المقدس. وأطلب من الكاتب بالمؤسسة المقدسة الحاضر أن يصادق على كل شيء، وأطلب من الحاضرين أن يكونوا شاهدين علي، وأن يمضوا هنا عن نفسهم ونيابة عني.

- أنطونيو نابو.
- جوان منديش.
- بنتو نونش.

(و. 16. ب). مبلغ (آنة دوميلو).

أيضا، عن الكتابة المنبسطة فقط، 156 ريالا.

أيضا، عن الأوامر ، ؟

أيضا، عن العقود الممضاة ، 70 ريالا.

أيضا، عن التنقلات والاستدعاءات، 21 ريالا.

أيضا، عن زيارة طرف واحد (كنا)، 40 ريالا.

أيضا، عن الدفاع ، 9 ريال.

المجموع 292 ريالا.

من هذا المجموع 21 ريالا.

(امضاء غير واضح)

يابرة، في اليوم الواحد والعشرين من شهر يناير من سنة ألف وخمسمائة وواحد وستين، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وبمحضر السادة الدكتور (انطونيو دوكاشترو)، والمجاز (منويل دو كوادروش) المفتشين... الخ، وبعد الاطلاع على قرار القبول ثانية بالكنيسة الموجود أعلاه، والمتعلق بـ (آنة دوميلو)، المسلمة المتنصرة التي تتعلق بها المحاضر السالفة، وبما أنه تبين أن (آنة دو ميلو) المذكورة نادمة، ومبدية علامات على كونها مسيحية حقيقية، وعلى تنفيذ توبتها لحد الساعة كما يجب، وعلى كونها مكونة تكوينا معقولا فيما يخص الصلوات والعقيدة المسيحية، فانهما بعد الاطلاع على كل هذا، ولاعتبارات أخرى عادلة، اعتبرا انه من الصواب اعفاء (آنة دو ميلو) المذكورة من السجن الذي حكم به عليها بسبب خطاياها، وخلعا على (آنة دوميلو) المذكورة لباس التوبة الذي ارتدته تنفيذا للحكم الصادر في حقها، ونصحا (آنة دوميلو) المذكورة التي كانت حاضرة أن تعيش من الآن فصاعدا مسيحية حقيقية ووفية، وأن لا تتكلم مع المسلمين والمسلمات المتنصرين، وبأن تذهب أيام الاحد والأعياد لسماع التراتيل والصلوات والعقيدة المسيحية، وذلك كلما امكنها ذلك، الشيء الذي وعدت بفعله، وبما انها لا تعرف كيف توقع، قالت لي، أنا الكاتب الشرعي، ان أوقع هنا عوضا عنها، ووقعت إلى جانب السيدين المفتشين المذكورين اللذين امرا بإنهاء هذا المحضر.

حرر هذا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤســة المقدسة.

- منويل دو كوادروش.

- انطونيوش دكتور.

- جون منديش.

Arquivo National. da Torre de Tombo. Inquisição de E'vora. M. 74 N° 6868.

فاس أحمد بوشرب

من أدب أيام الأزمة:

إيقاظ أهل الغفلة والمنام..!

عبد القادر زمامة

يحلو لبعض الذين يجربون الألسنة والأقلام في الحديث عن الأدب العربي بالمغرب والآفاق التي كان الشعراء والكتاب يحلقون في سمائها طيلة أيام الأزمة السياسية بالمغرب أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين... أن يقولوا ويكتبوا ما نسمعه ونقرأه عن هذا الأدب من حدسيات وظنيات ووهميات لا تتفق وواقع الأدب المغربي في هذه الحقبة بالذات فهم يكتبون ويقولون - سامحهم الله - إن هذا الأدب لم يكن بشعره ونثره حاضرا...! وان الرواجف والروادف التي أناخت بثقلها على أطراف البلاد، لم تهز المشاعر، ولم تحرك السواكن...! وان الوطن المغربي المفدى كان أيام هذه الأزمة - داخليا وخارجيا - ترفعه رافعة، وتخفضه خافضة، من مكر الماكرين، وكيد الكائدين، وتمرد

المتمردين. مما سجله المؤرخون. وزاوله السياسيون وتحدث به المتحدثون...! وغفل أو تغافل عن ذكره - من الشعراء والكتاب - الغافلون و المتغافلون...!!!

ويحز في النفس أن تظل هذه الدعوى تمر أمام السمع والبصر آمنة مطمئنة وكأنها حقيقة مسلمة أو قضية ممحصة. لا جدال فيها بين الباحثين والدارسين المهتمين بالأدب المغربي وعطاءاته في القديم والحديث...! ولا سيما في أيام الأزمات ومعارك المصير...!

وليس من هدفنا الآن أن نصحح مفهوما من المفاهيم، أو ننتقد رأيا معينا من الآراء. وإنما يهمنا بصفة أساسية وموضوعية أن يكون لنا موقف عملي من هذه - الدعوى - حول الأدب المغربي وما قدمه من عطاءات أيام الأزمة التي مرت بها البلاد أواخر القرن التاسع عشر. وأوائل القرن العشرين...!

فعندما تعاوت ذئاب السياسة... أجابتها شياطين الشعوذة... وسماسرة الفتنة... تستنزف الطاقات المادية والمعنوية... وتحرك الأشباح المخيفة... وتمد بذلك الجسور للعدو... ليجد السبيل ممهدة... والغنيمة ميسرة...!

وكان الأدب المغربي حاضرا - بشعره ونثره - في المعركة الوطنية يعبر بالموزون والملحون، وبالشكل والمضمون.. يحث الهمم... ويحرك السواكن... ويسجل الأحداث... مما لو جمع ودرس لكان سجلا حافلا

يفسر الغوامض... ويلقي الأضواء على كثير من معالم تاريخنا الوطني أيام المخاض السياسي...!

وحضور الأدب في هذه المعركة نقدمه اليوم في شكل شاهد إثبات. عاش في خضم أمواج الفتنة واستوعب السلبيات والإيجابيات وعبر بتعبير أهل عصره، وفكر بتفكيرهم وشاهد الأحداث بمنظارهم... فجادت قريحته الشعرية بهذه المنظومة التي سماها بهذا الاسم الطويل الغريب...

إيقاظ أهل الغفلة والمنام
والنيابة عمن استيقظ ولم يقدر على الكلام

ونحن على يقين - نظرا للظروف التي حفت بنظمها - أن صاحبها يصف الأحداث التي شاهدتها البلاد. والتمزقات والصراعات التي أحدثتها فتنة - بوحمارة - ومن على شاكلته والمآسي التي كانت - الشاوية - ووجدة - مسرحا لها... وما صاحب ذلك من ظروف قاسية مازال المسنون يتحدثون بها..

أما صاحب هذه المنظومة فهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي. وهو من شخصيات ذاك العهد علما. ورحلة. وأدبا. وتأليفا. وشهرة. وأصل أسرته كما هو معلوم من - إغريس - ومنها انتقل وهو ابن خمس سنوات - مع والده - إلى مدينة فاس. وبها نشأ وتعلم

وتأدب وخاض غمرات الحياة. واستفاد من عدد من أعلامها. وترك أصداء متعددة المشارب عند من أرخ لرجال هذا العهد... (1)

وبحكم معاصرة هذا الشاعر لمراحل دقيقة من تاريخ الأزمة وملابسته مع زملائه في فاس لما كان سائدا إذ ذاك من تذمر وقلق. كتب ونظم الشيء الكثير. إلا أن هناك عوامل متعددة عملت عملها... فلم يعرف الناس من ذلك إلا الشيء القليل... ومنه هذه المنظومة.

وغني عن البيان أن هذه المنظومة وما هو على شاكلتها يكون القصد عادة من الاستشهاد به. متجها الى ما يحتوي عليه من معان تترجم الفكرة والمضمون. قبل أن تصور الشكل والأسلوب... !

وليس معنى هذا أن منظومة إيقاظ أهل الغفلة والمنام خالية من قواعد السبك الفني والرونق الشعري. وإنما معناه أننا نهدف الآن إلى الاستشهاد بمضمونها وأفكارها لأنها كما هو واضح. تعكس في أبياتها التصور الذى كان لبعض الناس ولا سيما منهم حملة الأقلام. عن الأزمة المحيطة إذ ذاك بالمغرب. وما أحدثته الفتن من انحلال وفوضى واستغلال واستنزاف... ! وما كانوا يتصورونه من أسباب الأزمة. ووسائل حلها... !

---

1) انظر معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة ج 2 هـ 6. ط. فاس 1350 هـ والغريس المشار إليها. هي إغريس المغرب الأوسط كما هو معلوم...!

والشاعر المشرفي - رغم ما قال وكتب عنه معاصروه - يظهر من بعض آثاره المخطوطة أنه كان شاعرا فحلا قوي العارضة. جزل اللغة. طويل النفس مع حدة وجرأة! وقد سبب له ذلك متاعب شتى...!

والمنظومة كانت في وقتها - ولا سيما بعد أن أذاعها في الناس أيام السلطان المولى عبد الحفيظ - محط تقدير واهتمام من طرف حملة الأقلام إذ ذاك...

والدليل على ذلك أننا نجد من حفظها واذاعها في الناس كما أننا نجد - في بعض الكناشات - من نسخها بقلمه وأثنى على ناظمها...!

ولنترك قارىء مجلة - المناهل - الغراء مع هذه المنظومة التي تقوم نفسها وترفع صوتها. وتصور عصرها وتترجم ناظمها...

دَعْ عنكَ داعي السُّرور والمـــــزاحْ	واسلك سبيل من بكى الدين وناحْ
واحكِ نساء الحي في لطم الخدود	وضربهن الفخذين والصيـــــاحْ
وارثه واسمعني جميل وصفـــــه	واندبْ. وغرد في الغدو والـرواحْ
وإن حزنت أو بكيت فــوق ذا	مما أصاب ماعليك من جُنـــاحْ
وقم على ساق محرضـــاً وقـــل	دُون قتال. وطنٌ الإسلام جـــاحْ
والدين بالكفر يعالج الضيــاع	وقد خلا الجو لأولاد السفـــاحْ
غابت بواكيه. وعــزَّ ناصـــرُه	ليتني ممَّن مات قبلُ. فاستـــراحْ
كيف ؟ وقد خيم أرضَنا العــدو	وباض فيها طيرُه قهـراً وصـاحْ

خلاَ لَـهُ الجـوُّ فمـدَّ رجلـه وحـط رحلهُ ونام في البطـــاحْ
وقد بدا النقصانُ من أطرافـــها واطْمَأنّتْ به الفيافـي والمـــراحْ
مـال علينـا ميلـةً واحــــدة حيث غفلنا جملةً عن الســـلاحْ
واستضعف الإسلام طـرا فَدَنَّــــا من أرضه وعمهـا بالاقتـــراحْ
ونحنُ في ظل الغرور نائمــــون على بساط الذل نرجو الافتضـاحْ
همتُّنا مصروفـة إلى البِنَّــــا والشهـوات. والملاهـي. والمـزاحْ
همتُّه مصروفـة فـي أخذنـــا وأرضنا. وماحوت مـن القُـــراحْ
ولا يفيد الجد دون قـــــوة فالعهدُ منهُ كَسَراب في بطـــاحْ
وكم مكيدة له نـال بهـــــا مالم ينلـه بالسيـوف والرمـاحْ
آهٍ على الأُسْد من نسـل قريـش آه على الأمير من آل ربـــاحْ
آهٍ على الأنصـار أبكـي فقدهــم مَن وضعوا الكفر بنصرهم فــراحْ
لو حضروا. ما كنتُ في ضيـم ولما كان لأولى الكفر شبه الاقتيــاحْ
وقُل لأولى الأمر ما هذا الفشـــلْ والمسلمون في نهايــة الصـــلاحْ
فما بهـم قلـة لا ولا جبـــان ولا بهـم ضعـفٌ. تسوءهُم جراحْ
فكم من الأبطال في العرب وكم من الليوث في البرا بـر صحـــاحْ
وكمن من الخيل السوابق العتـــاق على العِدَا بهم يضيـف الإنفسـاحْ
وكـــم رجالٍ صابريـــن صادقيـــن
في الزحف يُخشى بأسهم يوم الكفاحْ
لو كان منهم عسكـر لخضعـــت له الرقاب. وخشاه ذو الوقـــاحْ

ولرعى الفرنجُ يوما بأسه ولتضعضع إيوانُه وطاحْ
وُجودُه بشرطه وضبطه عز لديننا وغاية المراحْ
تركتُم الجهاد في العدو واغْتَنَمْتُمُوه في الإماء بالسِّفَاحْ
لو كانت لكم قلوب تفقهون بها لحرَّمْتُمُ عليكمُ المباحْ
لا خير في العيش مع الذل ولا عيش لروح في الفنا. دون ارتياحْ
والسنة الغراء صارت بدعة وأحمق عندكم. من بها باحْ
وهي أساس كل خير يرتجى وهي السياسة العظيمةُ النجاحْ
ما خاب قومٌ سلكوا منهاجها ولا استقام دونها أمر صلاحْ
لم يفد شيئاً من العدو ما زخرفتموه. ويحكم. عند التَّشَاحْ
والأمرُ سهل لو نصرتم ربكم نَصْرَكم بوعد جاء كالصَّبَاح
فارتقبوا إنجاز وعده إذا قمتم على استعداد في كل رَوَاحْ
فإنه الحق وذاك شرطه والشك فيه بعد ذا. كفر صُرَاحْ
فانتصحوا وراجعوا كتابكم وامتثلوا نص الأحاديث الصحاحْ
من حَاد عن نهجهما ضل وزل وخسران الدارين من فعله لاح
فشمروا لأخذ ثأركم عسى تهب بالنصر عليكم الرياح
أمَا لكم أسوة فيمن قبلكم أهكذا المغرب كان مستباح
وقُل لأهل العلم ما هذا الشَّجَا أمَوْتَى. أمْ نيام. أمَ به شحاح
أنتم أحق بالبكا لأنكم أنصاره. أنتم له نعم الوشاح
وهذا بحر الكفر قد غشيكم عم البرية بموجه وساح

فلو نهضتم لاستقام الاعوجـــاج ونلتم من صاحبه كــل الربـــاح
وكنتـــم النصحـــا للـــه ولرسولـــه ولأَيمـــة السمـــاح
وإن تماديتم على غفلتكـــــم هلكتم. وما أرى لكـــم فـــلاح
وقد رأيتم فعله بغيركـــــم ونقضه العهود من بعد الصـــلاح
لا بد من وثبـــة دون شمـــور كما العقـــور. فعلّه دون نبـــاح
لا عذر. ماتخشونـه أهـونّ مِـن مصابكم. إذا طلبتُـم الفـــلاح
هذا. وإني عـارف بأننـــــي أخاطب الموتى بهـذا الاقتـــراح
وإنما بكاي من شـوق الوطـــن كتغريد الحمام مقصوص الجنـــاح
وأسأل اللـه باسمـه العظيـــم أن يلهم الكل لما فيـه صـــلاح
وأن يقينا شر ذلـك العـــدو وأن ينصر الدين بأهلـه المـلاح

هكذا يصور هذا الشاعر أزمة المغرب في ذلك العصر وهكذا يفهم الأسباب ويصف الحلول. وبذلك أمكننا أن ننطلق في البحث عن حضور الأدب أيام الأزمات ومعارك المصير...!

فاس عبد القادر زمامة

لغة الزجل
في
كتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي
لصفي الدين الحلي

د. ابراهيم السامرائي

تعريف بالمؤلف

عبد العزيز سرايا بن علي الطائي. صفي الدين الحلي.

ولد سنة سبع وسبعين وستمائة (677) للهجرة. درس الأدب ومهر في فنون الشعر كلها. وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها. وتعاطى التجارة فكان يرحل الى مصر والشام وماردين وغيرها في التجارة. ثم يرجع الى بلاده.

وفي خلال ذلك يمدح الملوك والأعيان. وانقطع مدة الى ملوك ماردين. وله في مدائحهم قصائد. وامتدح الناصر محمد بن قلاوون والمؤيد...

وكان يتهم بالتشيع. دخل القاهرة سنة عشرين وسبعمائة (720) فمدح علاء الدين ابن الأثير. فأوصله هذا الى السلطان...

وله ديوان شعر مشهور يشتمل على فنون كثيرة.

قال الصفدي ،

مات سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة للهجرة.

تعريف بالكتاب :

اسم الكتاب « العاطل الحالي والمرخص الغالي » لصفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي...

وقد طبع في المانيا سنة 1955 للمرة الأولى عن النسخ المحفوظة في استانبول ومونشن ومنشاستر... طبعه مجمع العلوم والآداب في المانيا. بتحقيق (ولهم هونرباغ).

يقول صفي الدين ،

« وسميت هذا الكتاب « العاطل الحالي » لكونه عاطلا من الأعراب. حاليا من المعاني والآداب. مرخصا بين ذوي الخلاعة والهزل. غاليا على ذوي المجد والجزل » (1).

٥ - ٥

---

1) العاطل الحالي ص 9.

الكتاب دراسة لفن الزجل، وللغته...

وقبل أن ندرس لغة الزجل في هذا الكتاب علينا أن نوضح شيئا فنقول... ان مجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون لا اختلاف في عددها.

وإنما الاختلاف بين أهل المشرق والمغرب في فنين منهما. والسبعة المذكورة عند أهل المغرب والشام ومصر ، القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليا والكان كان والحماق... وأهل العراق ومن يليهم يثبتون الخمسة منها ويبدلون الزجل والحماق بالحجازي والقوما. وهما فنان اخترعهما البغداديون للغناء بها في شهر رمضان...

وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة ، منها ثلاثة معربة أبدا لا يغتفر اللحن فيها وهي :

(الشعر القريض والموشح والدوبيت). ومنها ثلاثة ملحونة أبداً وهي :

(الزجل والكان كان والقوما)

أما السابع منها فيحتمل الأعراب واللحن.

ه - ه

والذي يهمنا في كتابنا هو (فن الزجل)...

وقد اخترعه أهل المغرب، ثم تداوله الناس بعدهم، والزجل في اللغة (الصوت)، يقال (سحاب زجل) اذا كان فيه الرعد، وانما سمي هذا الفن زجلا لأنه لا يلتذ به وتفهم مقاطع أوزانه حتى يغنى به...

وقد قسمه مخترعوه الى أقسام أربعة يفرق بينها بالمضمون لا بالأوزان.

1) الزجل : وهو ما تضمن الغزل والنسيب والخمري
2) بليق : وهو ما تضمن الهزل والخلاعة
3) قرقي : وهو ما تضمن الهجاء والثلب
4) مكفر : وهو ما تضمن المواعظ والحكمة

وأطلقوا على كل ما أعرب بعض ألفاظه من هذه الفنون (المزنم)...

٥ - ٥

وقد بحث المؤلف الناحية اللغوية في الزجل في الفصل الأول، وهو في علل الألفاظ واصطلاحهم فيها من زيادة حرف أو نقصه أو ابداله، وما منعوا من استعماله وما أجازوه.

أما فيما منعوا من استعماله فهو جائز في الشعر العربي فعدة أشياء منها :

1) استعمال اللفظة اللغوية على نمط العرب

2) الأعراب بالحروف والحركات.

3) استعمال أدوات النحو (كالسين وسوف وقد ومنذ وكاف التشبيه).

4) استعمال الحركات الثقيلة كالمد والهمز والتشديد.

5) تضمين آية من كتاب الله تعالى كيلا يدخل الزجل كلام معرب.

هذا جميعه حرمه المتأخرون على ناظمي الأزجال. أما فيما استعملوه وهو غير جائز في الشعر فمنها :

1) زيادة حرف في الكلمة وإنقاص حرف من أخرى فمثال الأول قول (مدغليس)

الله يعلم ما بقلبي وبيه
لقد آ تحكم هذا العشق فيه

واصل الكلمة (تحكم) فزادها(ألفا) ومثلها :

لقد آ خذ لني جمال هذا المليح ولكن معذور أنا هو ينخذل

والأصل (خذ لني) فزادها ألفا.

والثاني :

وهو انقاص حرف من أصل الكلمة. كقول ابن قزمان :

يا من قتلني غيابو مت نستريح من عنابو

وأصل الكلمة (متى) فحذف الياء منها.

ومثلها :

حملني عشق الملاح فوق استطاعي   وما قصر عمري فيه يمتد باعي

وأصل الكلمة (استطاعتي).

2) زيادة همزة غير أصلية في كلمة وانقاص همزة أصلية من أخرى.

فالأول كقول ابن قزمان :

أين الصدود وقد طال ما طال   آ تخيل آت بعد صورة الحال

وأصل الكلمة (تخيل) بغير همزة.

أما حذف الهمزة الأصلية فنحو :

لن نتب عن ذي الشريبه   لو نهبت السبت والحد

(يريد السبت والأحد) فحذف الهمزة

3) تشديد المخفف وتخفيف

فالأول كقول ابن قزمان

ذا الصدود نمت منو   قد رحلت من أجلو

والثاني وهو تخفيف المشدد فنحو :

على دارين عبرت أو منها جيت   ان قط لن بذا الذ كاندروك

والأصل في لفظة (قط) التشديد.

4) ومنها تذكير المؤنث وتأنيث المذكر. فمثال الأول.

عنقا مخلخل وشمرا أسود   وعينا اشهل أي قلب يرقد

فقد وصف العين وهو مؤنثة بوصف المذكر.

ومثال الثاني ، وهو تأنيث المذكر فنحو ،

ريت في المنام اجتماعي ماعك   قد صدقك هذا المنامه

فقال في هذا البيت (المنام) ثم انثه...

5) ومنها إدخال حرف النداء على ما فيه الألف واللام كقول أبي عبد الله محمد بن حسون.

اهجره يا الغزال واتدلل   واعمل ما تريد فمن بلي تحمل

٥ - ٥

أما في الفصل الثاني فيبحث المؤلف فيه علل الأوزان واصطلاح الزجالين فيها. وما منعوا من استعماله، وهو جائز في الشعر. وما أجازوه وهو ممنوع فيه ،

أما فيما منعوا من استعماله وهو جائز في الشعر.

فهو ؛

1) الزحافات الظاهرة.

2) الحزم ، وهو زيادة حرف في أوائل البيت ونقص آخر منه.

أما فيما أجازوا استعماله، وهو غير جائز في الشعر فهو ؛

1) استعمال الأوزان الخارجة عن بحور العروض الستة عشر.

وأبو بكر بن قزمان من أشهر من نظم الزجل من أهل الأندلس وقد ذكر أنه طبق هذه القواعد التي ذكرت في أول البحث. وحرم استعمالها. الا أن المؤلف الحلي يرد هذا الإدعاء فيقول ؛

« وقد وجدناها ـ أي الممنوعات ـ جميعها مستعملة في نظمه ».

فمن الممنوعات التي أجازها.

1) استعماله اللغة العربية الفصيحة نحو ؛

الرفيع الماجد الحر الشريف   الشجاع الفارس الليث البطل

فهذا البيت جميعه عربي فصيح في لغته وأعرابه ليس فيه لفظة عامية.

2) من الممنوعات عندهم أعراب الألفاظ بالحروف أو بالحركات فمن هذا ؛

توذ ريح الشراب تفوح من فيه   الله قد اوقعوا بجرموا لنا

فقد أعرب (فيه) بالياء وهذا حكمها لأنها من الأسماء الستة.

3) ومن الممنوعات عندهم استعمال أدوات النحو المختصة به كالسين وسوف ومذ ومنذ فمثال على سوف :

جهدي نصبر على حبيب قلبي

حين ظلمني وجار

سوف ترى ما يلاقي من ظلمي

عند نبت العذار

وغير ذلك من الممنوعات التي يطول البحث بها.

بغداد   د. ابراهيم السامرائي

تراجم في تسمية فقهاء الأندلس
وتاريخ وفاتهم

مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى
للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الاندلسي

دراسة وتحقيق
د. محمد عبد الوهاب خلاف

تمهيـــــد :

التراجم التي بين أيدينا لتحقيقها والتي وجدناها في نهاية أوراق مخطوط الأحكام الكبرى أو الاعلام بنوازل الاحكام للقاضي أبى الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسى المتوفى سنة 486 هـ تمثل جانبا من فقهاء الأندلس.

وبدراسة هذه التراجم بوجه عام يتضح لنا ما يلي :

أولا : انها ليست من نسخ القاضي أبي الاصبغ عيسى بن سهل صاحب المخطوط وذلك لوجود ترجمة للفقيه أبى جعفر

أحمد ابن محمد بن عبد العزيز اللخمى المتوفي سنة 553 هـ.

واعتقد أن تلك التراجم من اضافة أحد النساخ الذى رأى أنه لا بأس من الحاق هذا الذيل بمخطوط ابن سهل.

ثانيا : أنها لم تقتصر على التراجم الأندلسية فقط. بل هناك تراجم بعض فقهاء المالكية بمصر وأفريقية.

ثالثا : أن المادة العلمية الواردة في تلك التراجم بالرغم من أهميتها وتنوعها إلا أنها موجزة جدا.

والنسخة الأصلية التى اعتمدنا عليها في تحقيق هذه التراجم هى نسخة مكتبة الزاوية الناصرية بتمكروت رقم 1189 من مخطوطات الأوقاف تحت رقم 838 ق. الخزانة العامة. الرباط. ورمزنا لها ب «الأصل» والنسخة الثانية تحت رقم 3398 د. المكتبة العامة بالرباط. ورمزنا لها بالرمز «دب».

أما بقية النسخ المخطوطة التى بين أيدينا فإن هذه التراجم ساقطة

تسمية الفقهاء وتاريخ وفاتهم
نفعنا الله بهم

1 (422) (أبو عبد الله محمد بن عتاب بن محسن) (1).

كان عالما عاملا توفى سنة اثنين وستين وأربعمائة وصلى عليه ابنه (عبد الرحمن). (2) وشهد جنازته (المعتمد على الله محمد بن عباد) (3) ومشى فيها على قدميه ومولده سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة.

2 (أبو إبراهيم، إسحاق بن ابراهيم التميمي((4).

كان من أهل العلم والزهد والدين المتين توفى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة.

3 (أبو عمر أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال) (5).

يعرف، بابن بابن القطان. كبير المفتين بقرطبة. قرأ على (أبو محمد الشقاق) (6) و(ابن دحون) (7). ثم توفى بكورة (باغة) (8) سنة ستين وأربعمائة ومولده سنة تسعين وثلاثمائة.

4 (وأبو مروان عبيد الله بن محمد بن مالك) (9).

كان حافظا للمسائل والحديث.ومعانى القرآن متواضعا كثير الورع. توفى سنة ستين وأربعمائة ومولده سنه أربع مائة. وهو قرطبي.

5 أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن سلمة الأنصارى (10).

من طليطلة. كان حافظا للمسائل. دربا بالفتوى. توفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة. ومولده سنة احدى وأربعمائة.

6 (وأبو عمر أحمد بن سعيد بن ابراهيم الهمداني) (11).

عرف با بن الهندى القرطبي، روى عن (قاسم بن أصبغ) (12)، كان حافظا للفقه وأخبار أهل الأندلس، بصيرا بعقد الوثائق، توفى سنة عشرين وثلاثمائة، وصلى عليه القاضي (أحمد بن ذكوان) (13).

7. (وسليمان بن محمد بن بطال البطليوسى) (14).

له تأليف سماه المقنع في أصول الأحكام لا يستغنى عنه الحكام، كان طالبا (لأبي عبد الله بن أبي زمنين) (15)، وقرأ عليه (أبو عمر بن عبد البر) (16)، توفى سنة أربعمائة أو نحوها.

8 (وأبو بكر محمد بن يبقى بن زرب) (17).

(قاضى الجماعة) (18) بقرطبة، أعلم الناس بالفقه، توفى في رمضان سنة احدى وثمانين وثلاثمائة.

9 (وأبو زكرياء يحيى بن عبد العزيز) (19).

كان من المشاورين مع (عبيد الله بن يحيى بن يحيى) (20)، كان (423) يميل الى مذهب (الشافعي) (21)، توفى سنة خمس وتسعين ومائتين.

10 (وأبو عثمان سعيد بن (حميد) (22) بن عبد الرحمن) (23).
كان فقيها عالما وقورا ورعا روى عن (يحيى بن مزين) (24) وأخذ عنه (محمد بن أيمن) (25). توفى سنة إحدى وثلاثمائة.

11 (وسعد بن معاذ الشيباني) (26).
كان شيخا حافظا للمسائل حج وادرك (محمد بن عبد الحكم) (27). توفى سنة ثمان وثلاثمائة.

12 (وأبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابة) (28).
كان صالحا متقدما في حفظ (الفقه) (29). لاعلم له بالحديث. أدرك يحيى بن مزين. ودرس كتب الرأى ستين سنة. توفى سنة أربع عشرة وثلاثمائة. وهو ابن تسع وثمانين سنة. وصلى عليه ابنه (أحمد) (30).

13 (يحيى بن زكريا بن سليمان) (31).
كان صالحا فقيها في المسائل مشاورا مع ابن لبابة. تعظمه الخاصة والعامة. توفى سنة خمس عشرة وثلاثمائة.

14 (محمد بن غالب بن الصفار) (32).
كان جليل القدر عالما بالفقه متقدما في الوثائق مشاورا مع ابن

لبابة. توفى سنة خمس وتسعين ومائتين. وصلى عليه ابنه (أحمد) (33).

15 (محمد بن وليد) (34).

كان حافظا للفقه وعلل الوثائق من أكبر الناس عند (أحمد بن محمد بن زياد) (35) القاضى في أيام (الأمير عبد الله) (36) توفى سنة تسع وثلاثمائة. وصلى عليه ابن لبابة.

16 (أيوب بن سليمان) (37).

من (جيان) (38). كان فقيها عالما. توفى سنة اثنين وثلاثمائة.

17 (طاهر بن عبد العزيز) (39).

قرأ على (بقى بن مخلد) (40). كان عارفا بالحديث. رواية له. توفى سنة خمس وثلاثمائة.

18 (أحمد بن بيطير) (41).

كان حافظا للفقه. روى بن (ابن وضاح) (42). وكان مولى (محمد بن يوسف بن مطروح) (43). وكان مشاورا في أيام الأمير عبد الله. توفى سنة ثلاث وثلاثمائة. (وصلى عليه ابن لبالبة) (44).

19 (محمد بن عبد الملك بن أيمن) (45).

إليه انتهت رياسة الأندلس في الفقه وله نصيبا من علم الحديث. توفى سنة ثلاثين وثلاثمائة وصلى عليه إبنه (أحمد) (46).

20 (أحمد بن بقى بن مخلد) (47).

(قاضى القضاة) (48) بقرطبة من أعقل أهل زمانه. توفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

21 (أحمد بن يحيى بن يحيى بن يحيى) (49).

روى عن عمه (عبيد الله) (50). كان حافظا للمسائل مشاورا فيها (توفى) (51) سنة سبع وتسعين ومائتين.

22 (وأحمد بن محمد بن زياد) (52).

قاضى الجماعة بقرطبة. توفى في خلافة (عبد الرحمن بن محمد) (53) سنة سبع وثلاثمائة. وولى القضاء بعده (أسلم بن عبد العزيز) (54).

23 (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبيد الله بن سعيد الأموى) (55) ، عرف بابن العطار ،

وكان مع علمه بالفقه والوثائق بصيرا بالأدب وعلم الحساب قدمه للشورى (أبو بكر بن زرب) (56) توفى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

24 (وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن أبى زمنين) (57).

شيخ جليل من كبار المحدثين وعظماء العلماء الراسخين. توفى سنة ثمان (وستين) (58) وثلاثمائة.

25 (وأبو عبد الله محمد بن فرج) (59).

مولى الطلاع. كان فقيها عالما بعقد الشروط مع خير وعفاف. لا تأخذه في الله لومة لائم. توفى سنة سبع وتسعين وأربعمائة.

26 (وأبو مروان ، عبيد الله بن يحيى بن يحيى) (60).

كان شيخا جليلا معظما لم يرو بالأندلس عن غير والده. وحج. وتوفى سنة ثمان وتسعين ومائتين.

27 (وأبو محمد (عبد) (61) الله بن يحيى بن أحمد الأموى) (62). يعرف بابن دحون.

كان من جملة الفقهاء وكبارهم. توفى سنة احدى (ومائتين) (63) وأربعمائة.

28 (وأبو عبد الله محمد بن عمر الفخار) (64).

من كبار أهل العلم (المستنجدين) (65) كان يحفظ (المدونة) (66). توفى سنة تسع عشرة وأربعمائة.

29 (وأبو الحسن خالد بن وهب التميمي) (67).

عرف بابن الصفير. كان فقيها في المسائل شوور في أيام الأمير عبد الله وأول أيام عبد (424) الرحمن بن محمد وتوفى الأمير عبد الله سنة ثلاثمائة.

30 (وأبو عبد الله محمد بن عبيد الله بن يحيى بن يحيى) (68).

كان يستفتى مع أبيه. توفى سنة ثلاث وثلاثمائة.

31 (يحيى بن إبراهيم بن مزين) (69).

من طليطلة. كان من أحفظ الناس (للموطأ) (70). توفى سنة تسع وخمسين ومائتين.

32 (أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم) (71).

(صاحب الثمانية) (72). كان متفننا في الحديث والأغلب عليه الفقه. وسمع من يحيى بن يحيى. توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين.

33 (أبو مروان، عبد الملك بن حبيب) (73). من (البيرة) (74). كان جماعة للعلم. كثير الكتب. توفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

34 (أبو محمد يحيى بن يحيى) (75).

كان أخذ في هيئة بزى (مالك بن أنس) (76) - (رضي الله عنه) (77) - وقرأ عليه موطأه بالمدينة. توفى سنة أربع وثلاثين ومائتين وصلى عليه ابنه (عبيد الله) (78).

35 (وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن المواز) (79).

كان من الاسكندرية تفقه (بابن الماجشون) (80) واعتمد على (أصبغ) (81) ومات سنة احدى وثمانين ومائتين والمعمول بمصر على قوله.

36 (أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن عبدوس) (82).

له كتاب كالمدونة سماها (المجموعة) (83) مات سنة إحدى وستين ومائتين.

37 ، (محمد بن حارث القروى) (84).

انتقل الى قرطبة كان حافظا للفقه له تواليف كثيرة فيه وفي غيره. توفى سنة أربع وستين وثلاثمائة.

38 (الليث بن أحمد بن حريش العبدرى (85) (القرطبي) (86).

كان عالما بالرأى وذا حظ وافر من علم الحديث واستفتى (بالمرية) (87). توفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ومولده سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

39 (وأبو محمد موسى بن هذيل بن محمد بن تاجيت البكرى القرطبي) (88).

يعرف بابن عبد الصمد. روى عن أبو محمد الشقاق وابن دحون. كان مشاورا في الأحكام. وعزم عليه (محمد بن جهور) (89) أن يوليه القضاء بقرطبة فقال له ،

أخرني ثمانية أيام حتي نستخير الله فأخره فعمى في ذلك الأيام. توفى سنة اثنين وستين وأربعمائة.

40 (أبو بكر يحيى بن محمدبن يبقى بن زرب) (90).

ولاه أبو (الوليد) (91). محمد بن جهور أحكام القضاء بقرطبة والصلاة والخطبة ولم يكن له كبير علم. توفى سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

41 (أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هاشم الأشبيلى) (92).

عرف بابن المكوى. كبير المفتين بقرطبة الذين انتهت اليه رياسة العلم بها تفقه عند إسحاق بن ابراهيم الفقيه ودعى الى قضاء قرطبة فأبى. توفى سنة احدى وأربعمائة. ومولده سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

42 (وأبو عمر أحمد بن رشيق التغلبى) (93).

شوور في المرية ونوظر عليه في الفقه وكان له حافظا. توفى عام ستة وأربعين وأربعمائة.

43 (424) (وأبو جعفر أحمد بن مغيث بن أحمد بن مغيث الصدفى) (94).

من طليطلة من جلة علمائها عالما بالحديث وعقد الشروط وله فيها تأليف حسن سماه المقنع. توفى سنة تسع وخمسين وأربعمائة ومولده سنة ست وأربعمائة.

44 (وأبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمى) (95).

من (أشبيلية) (96) توفى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

45 (وأبو على حسين بن محمد بن سلمون المسيلى) (97).

أصله من (العدوة) (98). شوور بقرطبة. كان لا يحسن سوى المسائل. توفى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

46 (وأبو على الحسن بن أيوب بن محمد بن أيوب الأنصارى) (99).

عرف بالحداد من قرطبة تفقه عند أبي بكر ابن زرب. وكان عالما بالمسائل والحديث مقدما في الشورى، توفى سنة خمس وعشرين وأربعمائة ومولده سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

47 (أبو القاسم سراج بن عبد الله بن سراج) (100).

قاضى الجماعة بقرطبة. وكان مشاورا في الأحكام، من قبل. وكان على منهاج السلف المتقدم توفى سنة (425) ست وخمسين وأربعمائة وهو ابن ست وثمانين سنة.

48 (أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن وافد اللخمى) (101).

قاضى الجماعة بقرطبة. كان فقيها بصيرا بالأحكام مع الورع والفضل والتواضع والدين توفى سنة أربع وأربعمائة.

49 (وأبو الوليد يونس بن عبد بن محمد بن مغيث ابن عبد الله) (102).

قاضى الجماعة بقرطبة. وصاحب الصلاة والخطبة. توفى سنة تسع (وثلاثين) (103) وأربعمائة ومولده سنة ثمان وثلاثمائة.

50 (وأبو المطرف عبد الرحمن بن سعيد بن جرج) (104).

من البيرة وسكن قرطبة. روى ببلده عن أبى عبد الله بن أبى زمنين. ولى الشورى بقرطبة. كان حافظا للمسائل وله حظ في علم

النحو. توفى بقرطبة سنة تسع وثلاثين وأربعمائة. ومولده سنة ثمان وستين وثلاثمائة.

51 (أبو مروان ، عبد الملك بن أحمد بن محمد ابن عبد الملك بن (أصبغ) (105) القرشي ، الفرضي) (106).

(كان) (107) من أهل العلم له تأليف حسن في الفقه والسنن. شديد الحفظ مع الفضل والتواضع. توفى سنة ست وثلاثين وأربعمائة. ومولده سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

52 (وأبو محمد عبد الله بن سعيد بن عبد الله الأموى) (108).

عرف بابن الشقاق ، كبير المفتين بقرطبة توفى سنة ست وعشرين وأربعمائة. ومولده سنة ست وأربعين وثلاثمائة.

53 (ومحمد بن يحيى بن زكرياء بن برطال) (109).

ولى القضاء بعد أبى بكر بن زرب. توفى سنة أربع وتسعين وثلاثمائة.

54 (أبو المطرف عبد الرحمن بن (110) (بشر) (111) .

كان من الراسخين ومن (كبار) (112) المشاورين (ماهرا) (113) بالعقود والأحكام. لا يجارى في ذلك. وكان قاضى الجماعة وصاحب الصلاة بقرطبة. توفى في النصف من شعبان سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وهو ابن نحو ثمان وسبعين سنة. وصلى ابنه عليه (و) (114) يونس بن عبد الله.

55 (وأبو (عبد) (115) الله محمد بن سعيد الموثق) (116).

المعروف (بالملوان) (117)، ولى (بشرطة) (118). الأمير عبد الله (له) (119) تأليف في الوثائق. روى عن يحيى بن يحيى، توفى في صدر أيام الأمير عبد الله.

56 (و (أبو) (120) حنين (121)).

كان عالما روى عن عبيد الله بن يحيى بن يحيى توفى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة.

57 (ومحمد بن إبراهيم بن عيسى (122) .

روى عن ابن وضاح. وكان عظيم النعمة متشبها بالملوك الأكابر. توفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

58 (ومحمد بن إسحاق بن السليم اللخمى (123).

من (أشراف) (124) عرب شذونة إليهم (تنتسب) (125) المدينة المعروفة ببنى السليم.

وكان قاضى الجماعة بقرطبة عالما بالحديث والفقه. ولى القضاء بعد (منذر بن سعيد) (126). توفى سنة سبع وستين وثلاثمائة.

59 (وأبو محمد عبد الله بن موسى بن سعيد الانصارى الشارقى) (127).

من أهل طليطلة، روى عن أبى محمد بن دحون وأبي عمر الطلمنكى، وكان حسن الادراك حصيف العقل مع الصلاة الطويلة (والصوم) (128) الدائم، توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة.

60 (وأبو بكر ، محمد بن محمد بن مغيث بن أحمد ابن مغيث الصدقى) (129)، من طليطلة.

روى عن أبى عبد الله بن أبي زمنين و(أبى عمر الطلمنكى) (130)، وكان من جلة الفقهاء، توفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

61 (وأبو عمر ، أحمد بن إبراهيم بن هشام التميمي) (131).

من طليطلة كان معظما عند الخاصة والعامة توفى في عشر الثلاثين والأربعمائة.

62 (وأبو جعفر ، أحمد بن قاسم بن محمد بن يوسف اللخمى) (132).

من طليطلة، يعرف بابن (أرفع) (133) رأسه روى عن محمد بن ابراهيم الحسنى، كان حافظا للفقه راهبا فيه، بصيرا بالحديث وبمثله عارفا بعقد الشروط، شاعرا مطبوعا، توفى ليلة عاشوراء سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

قال (ابن مطاهر) (134) ، سمعت الناس يقولون يوم جنازته اليوم مات العلم.

63 (426) (وأبو جعفر أحمد بن عبد الله بن عيسى الأموى) (135).

من (سرقسطة) (136). كان فقيها دارجا للرأى استقضاه (المقتدر بالله) (137) (بمدينة سالم) (138). توفى سنة إثنتين وثمانين وأربعمائة.

64 (أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطى) (139).

ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن الناصر واستعفى عنها بما أعفا. له تواليف في السنة والقرآن والورع (والزهد) (140) والرد على أهل الأهواء.

وكان مع ذلك خطيبا بالغا وشاعرا محسنا ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين عند ولاية المنذر بن محمد وتوفى يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة خمس وثلاثمائة.

65 (ومؤلف هذا (الكتاب) (141) أبو الأصبغ عيسى بن سهل ابن عبد الله الأسدى) (142).

قال (ابن بشكوال) (143)، سكن قرطبة وأصله من جيان من وادى عبد الله من عملها. روى عن (أبى محمد مكى ابن أبى طالب) (144) وأبى عبد الله محمد بن عتاب الفقيه وتفقه معه وانتفع بصحبته وعن أبى عمر ابن القطان وأبى مروان بن مالك (وأبى القاسم حاتم بن محمد) (145) و(ابن شماخ) (146) و(أبى زكريا القليعى) (147) و(أبى بكر بن الفراف) (148) وغيرهم.

وكان أبو الاصبغ المذكور من جلة الفقهاء وكبار العلماء حافظا للرأى ذاكرا للمسائل عارفا بالنوازل من أهل الخصال الباهرة والمعرفة التامة يشارك في فنون من العلوم بصيرا بالأحكام مقدما في معرفتها وجمع فيها كتابا حسنا مفيدا يعول الحكام عليه. وكتب للقاضي (أبى زيد الحشا) (149) بطليطلة ثم للقاضى (أبى بكر ابن منظور) (150) بقرطبة. وتولى الشورى بها مدة ثم ولى القضاء بالمدوة، ثم استقضى بغرناطة. وتوفى مصروفا عن ذلك يوم الجمعة ودخل قبره يوم السبت الخامس من محرم سنة ست وثمانين وأربعمائة ومولده سنة ثلاث عشرة وأربعمائة (فيكون عمره ثلاث وسبعين سنة) (151)

(يتبع)

د. محمد عبد الوهاب خلاف

مناهج التعليم التقليدية عند المسلمين

(2)

د. عبد اللطيف السعداني

آراء في التربية ومناهج التعليم :

اهتمام العرب المسلمين كان منصبا بالدرجة الأولى على تربية النشء وتعليمه. فتلك هي المرحلة التي يواجه فيها إدراك الطفل الحياة. فتتكون لديه مفاهيم، وترسخ في نفسه أفكار، تصبح عقيدته التي يرى من خلالها معنى لوجوده وللآخرين. وبهذه الأفكار تتكون لديه المناعة الكافية للمحافظة على العقيدة. لذا، كان هذا الاهتمام جديرا بتلك الفترة التي تؤمن حاضر المسلم وتشخص مستقبل أمته، ولهذا اعتنوا عناية خاصة بأحوال الطفل، واختاروا له المعارف الضرورية لتكوينه. والمعلم الصالح للسهر على نمو أفكاره، والمكان الطاهر الآمن الذي تسكن إليه نفسه واجتهدوا في توفير جميع الظروف التي تحيط بدراسته وتعمل على توجيهه الوجهة الصالحة.

وأول من يقع على عاتقهم هذا الواجب هم الآباء. لأنهم أول من يواجه مسؤولية الرعاية. وهم أول من يمتحن باداءه الامانة التي أودعها الله بين أيديهم وهم أقرب من يلزمهم العمل على تطبيق العهد. عهد إقرار المخلوق بالربوبية لله سبحانه وتعالى. وهم أولى بذلك. لأن الله عهد إليهم بذلك وأمرهم به. فواجبهم إذن تربية الأبناء على الايمان بوحدانية الله وابعادهم عن الشرك. قال تعالى : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم». وواجبهم تعليم الأبناء قواعد الإسلام وتحفيظهم مايلزمهم لادائها من القرآن الكريم. وواجبهم تنمية البذرة الطيبة في نفوسهم وتعويدهم على الأخلاق الحسنة بالاسوة الحسنة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» وبالقدوة الحسنة في سلوكهم، وبالنصيحة المتكررة. ولقد شارك الآباء في هذا العمل مشاركة فعالة هيئوا بها سبل المراحل التعليمية. بل ساهموا علميا في ذلك كما نراه في الوصايا التي كانت موجهة من الآباء إلى الأبناء. وما أكثر ماورد من وصايا عربية من الآباء إلى ابنائهم في مناسبات مختلفة. وذكرت لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وصايا وعهود. ومنها بالأخص وصية لولده رضي الله عنه (25) وان إشارة القرآن الكريم إلى حكم الوصية هي إشارة عامة تمس أيضا هذا النوع من

25) نهج البلاغة ج 3 ص 37 ط بيروت.

الوصايا وتقنين له. ولعبد الله بن المقفع ـ وهو أحد الأدباء في بداية القرن الثاني الهجري ـ رسالة باسم ، الادب الوجيز للولد الصغير. قصد بتأليفها تربية ولده وتعليمه. من أوائل ماكتب في النصيحة التي تهدف إلى تربية الأبناء وصايا ابن حنيفة وعثمان بن ثابت.

ثم تتابع هذا الاهتمام التربوي والحدب الشديد بهذا النمط حيث نرى رسالة على هذا النهج للإمام الغزالي. وجهها لاحد مريديه عنوانها ، «أيها الولد المحب».

وقريب من هذا العهد كتب العالم العارف أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (510 ـ 597 هـ) وصية لولده سماها «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد».

تعليم الطفل واجب لامراء فيه. واجب ديني على الآباء. واجب على الأمة لأنه مرتبط بعقيدته الإسلامية. ولذلك فهو اشرف الأعمال يقول الغزالي «اشرف أصول الصناعة بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب النفس (26).

ورأى ابن خلدون أن التعليم أمر ضروري للإنسان لأن ما يتوفر عليه الإنسان من «الملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره.. والجسمانية كلها محسوسة فيفتقر إلى التعليم» (27).

26) ميزان العمل ص 106.

27) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1119.

والفائدة من التعليم كما يراها إخوان الصفاء اجتماعية ومادية. وللتعليم أهمية في طبع النفوس على العقيدة (28) وهو مايراه الإمام الغزالي أيضا ولكن الفضل في ذلك عنده هو للمعلم فقيمته على هذا كبيرة (29).

ولبلوغ هذه الغاية المنشودة تأكد وجود المعلم. ووجب أن يكون على خصال مثالية في المعرفة وفي الذكاء وفي السلوك. وقد شرطوا شروطا كثيرة يجب أن تتوفر فيه ووجهوا عمله بنصحه بنصائح تجعل منه مثالا نموذجيا يهتدى به المتعلمون حتى يكون لهم. ملقن علم ومهذب أخلاق ومربي نفوس والمعلم الذي يتصف بهذه الصفات هو الذي كان يحاط بكل احترام وإجلال.

أما الطفل. فهو العنصر الأهم الذي استهدفت الآراء إصلاح شأنه والعناية بأمره. وتعددت الوسائل لإدراك أسرار نفسه والبلوغ بها إلى الكمال والاشفاق على تلك الفطرة التي يولد عليها ورعايتها.

ان إخوان الصفاء يرون أن مثل افكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء كمثل ورق لم يكتب فيه شيء فإذا كتب فيه شيء. حقا كان أم باطلا. فقد شغل المكان ومنع أن يكتب فيه شيء

---

28) رسائل إخوان الصفاء ج 4 ص 114.

29) ميزان العمل ص 162.

آخر ويصعب حله ومحوه» (30). وهذا مارج عليه أغلب المفكرين المسلمين. لكن الغزالي يقول «بأن «بذرة العلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض،والتعلم إنما هو إخراجه من القوة إلى الفعل» (31) وكما قال بذلك الفارابي وابن سينا. ويتفق المربون على تقسيم مواد الدراسة إلى قسمين.

1 ـ مواد إجبارية.

2 ـ مواد اختيارية.

أما المواد الإجبارية فأولها هو القرآن الكريم وهو الذي يطبع مناهج التعليم ومراحله كلها، ويطبع حياة المسلم كلها. وما المواد الإجبارية الاخرى من جودة القرآن والترتيل والتوقيف والكتابة والهجاء والشكل والخط الحسن وما يتفرع عنها إلا معينة على الغاية الأساسية الا وهي حفظ القرآن كله أو بعضه وتدبره. وأضاف القابسي إلى هذا تعليم الصلاة والدعاء «ليرغبوا إلى الله عز وجل ويعرفهم عظمته وجلاله ليكبروا على ذلك».

على الطفل أن يتعلم هذه المواد إجباريا، وعلى المعلم أن يعلمها إجباريا.

30) رسائل إخوان الصفا ج 4 ص 114.

31) الرسالة اللدنية (القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي) ص 113 ـ 120.

أما المواد الاختيارية فقد اختلفت مناهج المربين فيها وارتبط ذلك بالاتجاهات الفكرية والأوضاع الاجتماعية. ولكن انتخابها كان مرتبطا بالاصل الديني. معللا به على كل حال. فالنظريات تحلل وتعلل هذه المادة أو تلك. بالدليل من القرآن والسنة أو أقوال السلف الصالح واجتهاداتهم. على أن الاتفاق في شأن هذه المواد يتم قبل كل شيء بين المعلم والوالي ويلتزمان بها ان اشترطت عند التعليم. وتفرقوا في تعليل اختيار بعض المواد بين الجانب الديني والجانب الدنيوي. كالشعر وأيام العرب واخبارها. وجميع النحو والعربية وعلم الكتابة والحساب وأغلبهم يرى تعليم أوليات الحساب لاستعماله في الميراث والوصايا وبعضهم يرى أهميته في المعاملات.

الجاحظ يقول عنه في رسالة المعلمين «ويعرف بعض الحساب دون الهندسة والمساحة» ويحلل فائدته الكبيرة في البيان والتبيين قائلا ، «واما القول في العقد وهو الحساب دون اللفظ والخط. فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل ، «فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم» وقال جل وتقدس «الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان» وقال جل وعز ، «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق» وقال ، «وجعلنا الليل

والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب» والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة. ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة. وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم. وفقدان جمهور المنافع واحتلال كل ماجعله الله عز وجل لنا قواما ومصلحة ونظاما» (32).

والحساب عند ابن خلدون من علوم الآلة التي لا ينبغي النظر فيها إلا من حيث هي آلة بذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل (33).

ويركز الغزالي على العمل فهو عنده أحد قسمي العلم وينبه إلى أن العمل مقدم عن العلم وأساسه فالأولى بأكثر الخلق والاشتغال بالعمل والاقتصار من العلم على القدر الذي يعرف به العمل. وهذا القدر أيضا هو عمل أما المراد بالعلم المقدم على العمل هو الذي ذكرت في شأنه الأحاديث فهو غير العلم بكفية العمل وهو الفقه وعلم العبادات (34).

---

32) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ج 1 ص 80.

33) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1238.

34) ميزان العمل ص 30، 31، 38، 41، وانظر أيضا رسالة «أيها الولد المحب» للإمام الغزالي التي أكد فيها على اهمية العمل.

ويعلل ذلك تعليلا منطقيا قائلا ، «وهو اساس العلم لأن تأثير العمل لازالة مالا ينبغي والسعي في العلم سعى في تحصيل ما ينبغي وإزالة مالا ينبغي شرط لتفريغ المحل لما ينبغي والمشروط هو المقصود (35).

وكذلك رأى ابن مسكويه. فقد دعى طالب الحكمة بأن يظهر قلبه ويقضي على المشاعر الوضعية في النفوس حتى تصفو وتذهب عنها الشهوات كالحقد والحسد ثم يقول ، وقد رأينا من أراد الغرس في أرض يبدا فيقتلع مافيها من غرائب النبت ثم يأتي بكرائم الغرس فيصبه فيها وكذلك من طلب الحكمة ورغب في اعتنائها فهو حقيق أن يبدأ بما في قلبه من اضدادها ويطهره منها.

هذه هي مواد التعليم الأولى. ولعل أهم مايجب التنبيه إليه هو طريقة تلقيها وسياسة الطفل لتقلبها. وذلك يقتضى فهما واعيا للفكر الإنساني ولنفسية الطفل خاصة. ويشترط فهما للعلم. وادراكا لمقتضيات المعرفة.

المعرفة عند إخوان الصفاء كلها مكتسبة وليست نظرية واصل المعرفة هو الحواس لذلك يجب السير في التعليم من المحسوسات إلى النظريات والحواس الخمس هي احد الطرق الثلاثة في اكتساب المعلومات. (36) ومذهب الغزالي - وهو مذهب كل الصوفية - «ان للقلب

35) ميزان العمل ص 30.

36) رسائل إخوان الصفاء ج 3 ص 392 - 394.

عينا كما للجسد. فالإنسان يرى الظواهر بالعين الظاهرة ويرى الحقائق بعين العقل» (37) فلا يعتني الغزالي بتعليم المعلومات بقدر اهتمامه بتلك القوة الباطنية. فالتعليم. «انفتاح باب الفكر عن النفس فالإنسان يتعلم شيئا ويستخرج بالتفكير من العلوم شيئا وإذا انفتح باب الفكر على النفس علمت كيفية طريق التفكير وكيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب» (38) وأهم مايجب الحصول عليه من التعليم في رأي ابن خلدون هو الملكة في الإحاطة بمبادئه، وقواعد الوقوف على وسائله واستنباط فروعه وأصوله (39).

ويستدل بهذا على أن التعليم صناعة. مضيفا دليلا آخر هو اختلاف الاصطلاحات في التعليم.

وأيسر الطرق لحصول هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية. فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها. (40) وحصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها (41).

---

37) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي ج 1 «الرسالة اللدنية» ص 104.
38) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي ج 1 / «الرسالة اللدنية» ص 113.
39) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1218.
40) مقدمة ابن خلدون ج 3 ص 1121.
41) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1245.

ولأجل أن يستفيد المتعلم من التعليم يجب أخذ الفنون واحدا واحدا وتكرار الفن الواحد ثلاث تكرارات تتدرج كما يلي :

1 ـ تعليم أصول الفن إجماليا.

2 ـ استيفاء الشرح والبيان مع التعرض للخلاف.

3 ـ أن لا يترك عويص ولا مبهم إلا وضح (42).

لقد كانت لمختلف الأمصار الإسلامية مذاهب وطرق في تعليم القرآن للأطفال نرى من المفيد أن نذكرها. هنا كما عرضها ابن خلدون ونذكر رأيه فيها وانتقاداته بها.

«فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الإسلامية في طرقه».

«أعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسير فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه مايحصل بعد من الملكات. وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لان السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال

(42) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1233.

ما ينبنى عليه. واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات.

1 ـ أهل المغرب (ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب):

فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط. وأخذهم اثناء المدرسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه. لا يخلطون ذلك. بسواه في شيء من مجالس تعليمهم. لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه... إلى أن يجاوزوا البلوغ إلى الشبيبة وكذا الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوى على رسم القرآن وحفظه من سواهم.

2 ـ أهل الأندلس :

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب = (الكتابة) من حيث هو على الاطلاق لارسم المصحف فقط إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه. ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم لقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب. ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه. بالخط أكثر من جميعها...

3 ـ أهل القيروان :

وأما أهل القيروان افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها. إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان اياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر من سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك، وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين اجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس.

4 ـ أهل المشرق :

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما تلقينا... والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده كما يتعلم بسائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان.

5 ـ أبو بكر بن العربي (م 543 هـ)

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته (العواصم والقواصم) إلى طريقة غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وابدا وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال :

«لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة. ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة. ثم قال «وياغفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ مالا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه» ثم قال، «ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط» (43).

انتقادات ابن خلدون لهذه المذاهب :

فأما أهل افريقية والمغرب فـادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة بما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله فهم مصروفون عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها - وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وخطه الجمود في العبارة وقلة التصرف في الكلام.

---

43) من المشارقة أيضا من ذهبوا إلى هذه الطريقة وممن قال بذلك ابن الأعرابي النحوي المشهور والأديب اللغوي (م 231 هـ) ونقل المبرد مثل هذا الرأي عن الإمام علي (الكامل 1 : 189) انظر التربية والتعليم في الإسلام د. محمد أسعد طلس ص 83 وقال بذلك أيضا الغزالي في إحياء علوم الدين عند حديثه عن وظائف المعلم.

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية في أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها....

.... ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن إلا أن العوائد لاتساعد عليه، وهو أملك بالأحوال ووجه ماختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثارا للتبرك والثواب وخشية مايعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن.. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي، أولى مما اتخذ به أهل المغرب والمشرق» (44).

لكي يأتي التعليم ثمرته فإن أهم الشروط التي اتفق عليها المربون والحو على تطبيقها، هي الإقبال على العلم بروح طاهرة ونفس زكية وإخلاص النية في ذلك لله تعالى والتعرض لرحمة الله والفتح منه. والتحري من كل شائبة حرمة تلطخ المكان والزمان والأسباب والوسائل المستعملة من أجل التعلم، والتفرغ للعلم وحده فإن المعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك.

---

44) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1239 ـ 1243.

والنظر نوع من الإجلال الكبير والاحترام البالغ للمعلم وإلقاء زمام النفس إليه يفعل به مايريد. وهكذا كان الجو الذي هيئ للطفل جوا روحانيا جديرا بالعلم يتقلب فيه الطفل فتبارك روحه المتلقية للعلم في كل حين.

يمكن أن نوجز تقييم آراء أصحاب النظريات التربوية السابقة بالإشارة إلى الجوانب الأساسية فيها.

أما إخوان الصفاء فقد اعاروا مناهج التعليم أهمية بالغة ولكن يؤخذ عليهم إغفالهم تفصيل الرأي وتقصي جميع الجوانب التي تتعلق بالمرحلة الأولى من تعليم الأطفال. فاعتنوا أكثر بالمرحلة التي تبدؤ بسن الخامس عشرة. وآراء الغزالي التربوية كبيرة الأهمية لأنه مارس مهنة التعليم ومهمة الإرشاد. وكانت حياته غنية بالتجارب العلمية. لذلك حلل بدقة وعمق قضايا العلم ومشاكل التعليم وبذل غاية النصح للمتعلم والمعلم معا.

وأبدع ابن خلدون طريقة خاصة في التربية مستاقة من مذهبه الاجتماعي فانتقد الطرق والمذاهب الأخرى ووضح طريقته مسهبا ومفصلا محاولا الاقناع بها. وكان يشتكي في زمانه من جهل كثير من المعلمين بطرق التعليم وافادته.

مراحل التدريس التقليدية ومناهجها :

الف : ما قبل الكتاب :

كان ابن سينا أول من أولى حياة الطفل قبل سن الدراسة والكتاب عناية خاصة فعرض في ملاحظات مايمكن أن يكون أساسا لمنهج عام لهذه المرحلة . وهي ملاحظات مبثوثة في مختلف كتبه وعلى الأخص منها «كتاب السياسة» و «القانون» أشار ابن سينا إلى وجوب اختيار المرضعة للوليد ثم إذا افطم عن الرضاع بدىء بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن يتهجم على الأخلاق اللئيمة. فإن الصبي تبادر إليه مساوى الأخلاق فما تمكن منه في ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة. وهذا رأي إخوان الصفاء في الأخلاق ولكن الغزالي يخالفهما ويرى مع ذلك امكان تغيير الأخلاق بالرياضة والمجاهدة بالأعمال الصالحة (45).

ومن آراء ابن سينا لتربية الطفل في هذه المرحلة ، «ان يحفظ كيلا يعرض له غضب شديد أو خوف شديد أو غم أو سهر وذلك بأن يتأمل كل وقت ما الذي يشتهيه ويحن إليه فيقرب إليه وما الذي يكرهه فينحى عن وجهه لا استجابة لأمره ولكن تيسيرا للحياة عليه.. فينشأ من طفولته حسن الأخلاق تبعا لحسن مزاجه. فالأخلاق الحسنة تابعة لصفاء المزاج والأخلاق الرذئية تابعة لسوء المزاج. وحسن الأخلاق يحفظ

45) ميزان العمل ص 52 ـ 54.

الصحة للنفس والبدن جميعا. وإذا انتبه الصبي من نومه فالأحرى أن يستحم ثم يخلى بينه وبين اللعب ساعة ثم يطعم شيئا يسيرا ثم يطلق له اللعب وقتا أطول ثم يستحم ثم يتغدى (46) ولا يدع الغزالي مرحلة الرضاع دون أن يلح على اختيار الحاضنة والمرضعة بأن تكون متدينة أكلها حلال فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث.

ويستفيد الغزالي من بعض الطبائع التي تظهر على الطفل. «فمتى بدت إمارات صفة الحياء على الطفل فذلك يعني مرحلة التمييز عنده إذ ليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه».

وهناك منهاج وضعه الخليفة عمر بن الخطاب للآباء وبعث به إلى ساكني الأمصار فقال ، «أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية وروهم ماسار من المثل وحسن الشعر (47).

ان الاهتمام الخاص بهذه المرحلة منصب على الخلق وعلى البدن وعلى العقل. فيجب أن تنمى هذه الثلاث الثلاث في اتجاه واحد وفي آن واحد. وقبل أن يقبل الطفل على المرحلة التعليمية ينصح ابن سيناء باختيار لطبع الصبي وقرحيته وذكائه يقوم به المعلم ليوجهه للصناعة التي تصلح له.

---

46) القانون لابن سينا ج 1 ص 79.

47) البيان والتبيين الجاحظ ج 2 ص 92.

الكتاب :

ظهر هذا النوع من وسائل تعليم القراءة والكتابة منذ العهد الإسلامي الأول. وأما النوع الثاني الذي كان يحمل نفس الاسم وكان خاصا بتعليم القرآن فلم يظهر إلا بعد ذلك. إذ أن وجوده متوقف على وجود حفظة للقرآن الكريم ولم يكن هؤلاء موجودين مبكرا (48).

اما في عهد الخلفاء فقد كان المؤدب، وكان الكتاب، وكان الصبية المتعلمون. وكان القصد تعليم القرآن وكان للكبار أيضا «دار القرآن» يقيم بها من أراد تعلم القرآن حفظا وتجويدا (49).

ولم يعين مكان خاص بالكتاب، ولكن علماء المسلمين كانوا يتحرون الابتعاد عن المسجد مخافة أن يتعرض لعبث الصبيان وتنجيسه ممن لا يستطيع ضبط نفسه منهم. والظاهر أن هذه النصيحة لم تحترم فيما بعد وكيف ماكان المكان الذي يختار لهذا التعليم فإنهُ كان يحاط بالاحترام حتى أن المغاربة قد سموه بـ «المسيد» (المسجد) تشبيها له بذلك المكان المقدس.

منذ القرن الثاني الهجري انتظمت شؤون التعليم في الكتاب. وكان يرعاه الآباء والعلماء أما الدولة فلم يكن لها أي نوع من الاشراف عليه إلى أن وجدت وظيفة المحتسب.

---

48) تاريخ التربية الإسلامية د. أحمد شلبي ص 22.

49) رسالة اداب المعلمين محمد بن سحنون ص 42.

وكانت الكتاتيب آنذاك تنقسم إلى قسيمن :

1 ـ كتاتيب أولية.

2 ـ كتاتيب رسمية كانت لتعليم الأطفال والشبان (50).

كان الطفل يرسل إلى الكتاب عندما يبلغ السن التي يراها الآ باء ضرورية لذلك. قد تكون الخامسة وقد تكون السادسة. واختار ابن سينا السادسة مع اعتبارها تمهيدية فقط فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرة واحدة. وعند أهل السن ينقص في اجمامهم ويزاد في تعبهم (51).

والظاهر أن سن السابعة هي السن التي ناسب اختيارها لدخول الطفل مرحلة التعليم الكتابي. فهي السن التي يجب أن يبذر فيها في نفس الطفل الإحساس بالمواجهات الشرعية. ومن شأن هذا أن يكون حافزا يدفع بالآ باء إلى إرسال أبنائهم إلى الكتاب في هذا السن ولكن بعضهم تسرعوا في الوصول إلى هذه الغاية فأرسلوا بأبنائهم إلى الكتاب ولما يبلغوا الخامسة. أو عندها. مما يجعل ابن الحاج يتهمهم بأن هدفهم من ذلك هو أن يستريحوا من تعبهم لا لأجل القراءة (52).

ولكن ما يلفت النظر هنا هو أن دخول الطفل إلى الكتاب كان يستلزم اخلاقا وآدابا يجب أن يتحلى بها. بعضها تتعلق بالنفس. مثل

(50) انظر التربية والتعليم في الإسلام د. محمد أسعد طلس ص 70.

(51) القانون لابن سينا ج 1 ص 79.

(52) المدخل لابن الحاج ج 2 ص 315 ـ 316.

تقديم طهارة النفس. أن يفهم أنه إنما يتعلم العلم لله. أن يحافظ على شعائر الدين. أن لا يفتش في ابتداء دراسته عن اختلافات العلماء. أن لا ينتقل من بحث قديم إلى بحث جديد إلا بعد اتقان البحث القديم. أن لا يقلل النوم وأن لا يزيد نومه في اليوم والليلة على الثماني ساعات. وأن ينشط ذهنه بالترويح عن النفس. وبعضها يتعلق بمعاملة زملائه. وبعضها يتعلق بمعاملة معلمه مثل أن لا يسأل أستاذه أسئلة تعنت وتعجيز وأن يصبر على هفوات أستاذه. وهذه الشروط كلها توجب أن يبلغ الطفل سنا أعلى مما يفترضه بعض الآباء لتعليمه.

وجدير بالملاحظة أيضا أن البيت قد فرض نوعا من المنهاج في التعليم بإعداده الأطفال وتربيته الأولى لهم على نحو يرتضيه. ونتج عن التعاون الكامل بين الآباء والمعلمين والتنسيق بينهما في اشتراط المواد أو مقدار ما يجب أن يتعلمه الطفل منها والتنبيه على اجتناب بعضها.

وبهذا الوعي عند الآباء لم يكن هناك ما يوجب أن يطرح موضوع إلزام التعليم. والضمير الديني اليقظ هو الذي يسير المسلم ولكن حينما كثر التعليم ودعت الحاجة إلى احتراف هذا العمل. وغلب ذلك الجانب بمرور الزمان على الوعي المعنوي ظهر التساؤل حول وجوب تعليم الأطفال وجوبا شرعيا. وحتى القرن الرابع الهجري لم يصل الفقهاء إلى البث في أمر إلزام الدولة للناس بتعليم أبنائهم. ولكننا نجد مع ذلك محمد

بن سحنون المغربي في القرن الثالث يضع بعض القواعد لاجرة المعلم ثم يفصل الكلام عن ذلك أبو الحسن القابسي القيرواني في القرن الرابع الهجري (53).

وانتهى الاتجاه التام بهذا الأمر ان عاد الاتفاق على التعليم إلى يد المجتمع في شكل آخر حيث ظهر في الأعمال الخيرية والأوقاف من مختلف الطبقات. فأصبح الاشراف عليه بيد الآباء من جديد.

وقد اختار المغاربة حلا وسطا لهذه المشكلة. فالآباء ينفقون على التعليم الكتابي ولكن بدون تحديد أجر ولا التزام به من أي من الطرفين بشكل انفرادي. إنما بموجب العرف أو ما يسمى ب «الشرط». وهو ماتدفعه الجماعة للمعلم طواعية وبدون تحديد مما يكفل له العيش.

وغاية ما يطلب من المعلم هو أن يكون كفوءا في عمله. وهذا يرجع إلى ضميره وتقديره هو. وأن يكون عمله خالصاً لوجه الله لا لطلب مال أو مصلحة أو سمعة أو جاه. وأن يكون قوي اليقين بالله. وأن يقوم بشعائر الدين. وأن يتخلق بمحاسن الأخلاق. وأن يسهر على إنجاز المنهاج الموضوع. وهو مسئول عن سيرة الطفل وتأديبه. مقيد في معاقبته ووسائل عقابه. وكيفية ذلك. بشروط ومقيد باستشارة أولياء أمور الأطفال (54).

(53) انظر التعليم في رأي القابسي د. فؤاد الاهواني ص 93 ـ 94.

(54) راجع تفصيل اداب المعلم ووظائفه في إحياء العلوم للغزالي ج 1 ص 48 ـ 54 وميزان العمل ص 129 ـ 136.

ويستمر الطفل في دراسته بالكتاب حتى يبلغ سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة. ليس ذلك بمحدود ولا موقوت فقد يتم «ختمه» قبل هذا السن. وقد يغادر الكتاب قبل أن يتم حفظه للقرآن. ولكن أقصى سن يقبل فيها أن يبقى الطفل في الكتاب هي سن البلوغ.

ثم يسلمه الكتاب وقد حصل على اليسير أو الكثير من العلوم الأساسية التي يجب أن تتمثلها شخصية المسلم. يسلمه إلى الحياة العملية من صناعة أو حرافة أو تجارة أو فلاحة . وقد اشتد عوده واكتمل شخصه لا يهاب تقلب الحياة ولا اضطراب سيرها. قوي العقيدة قوي الإيمان. مزودا برصيد من المبادئ العملية. مؤيدا بمبادىء الشريعة الإسلامية. وقد يتاح لبعض المتخرجين من الكتاب متابعة الدراسة...

ما بعد الكتاب :

لم تكن هذه المرحلة من الدراسة حديثة في العصور المتأخرة عن العهد الأول بل كان المسجد المركز الذي يشد إليه قلب المسلم. حيث يجد في رحاب الله زاد التقوى. فيه ينتظم وقته مرتبطا بالصلوات الخمس وتنتظم نظرته إلى الحياة ويستقيم صراطه بالهدى الذي يتلقاه هناك. وكان منطلقه إلى الجهاد إن عزم أمر المسلمين عليه. ودار قضاء للفصل فيما يعرض له من أمور الدين والدنيا. ولم يكن أولى به أن يكون معهدا يتلقى فيه العلم والمعرفة. فمنذ عهد عمر بن الخطاب

ظهرت في المسجد مجالس القصاص الذين كانوا يذكرون الناس بأمر الآخرة ويحدثونهم بأحوال الأمم الغابرة ويمزجون ذلك بالموعظة وأنواع من المعارف متمثلين بحكم وأقوال وأشعار. وهذه هي بادرة تدارس العلوم وتعليمها في المسجد. وتكاثر القصاص بعد ذلك وتعددت فنون القصص. واساسها واحد هو تفسير القرآن الكريم. لكن اندس بين القصاص من كانوا يتظاهرون بالعلم فكانوا ينقلون الأخبار والقصص الإسرائيلية. فانتصب لهم العلماء المخلصون ينتقدونهم ويسفهون أباطيلهم (55) فكان ذلك أيضا سببا في خلق نشاط تعليمي زاد من حماس العلماء. وبمرور الزمان اتسع نطاق هذه المجالس العلمية فزاد المقبلون عليها وكثر نشاطها وتنوعت مجالات البحث فيها وتباينت أساليبها التدريسية حسب ما أوجبته الظروف. وكان طلاب العلم يتزودون منها. كل حسب رغبته. وهذه العلوم التي كانت تتناولها المجالس التعليمية كانت في أكثر الأحيان علم التفسير والحديث وأصول الدين وأصول الفقه وعلم الفقه وعلم الخلاف بين المذاهب الإسلامية. على أن الخلاف كان في كيفية توزيع هذه المواد وتقديم بعضها على بعض في التدريس. وفي تفصيلات وإضافات لم يكن من شأنها أن تمس جوهر هذه العلوم خط سيرها. فإخوان الصفاء مثلا يوصون أن تشتمل مناهج التعليم العالي على مباحث علم النفس والعقل والمعقول والحاس والمحسوس والعلة والمعلول والنظر

---

55) التربية والتعليم في الإسلام د. محمد أسعد طلس ص 63.

في أسرار الكتب الالهية والتنزيلات النبوية. والرياضيات وما إليها. على أن تكون العناية بالعلوم الإلهية (56).

والطالب الذي كان يتطلع إلى دراسة هذه العلوم لم يكن له أن يستغنى عن المدرس فمعيار التمكن من العلوم هو تلقيها من المدرس. وقد كره المربون المسلمون أن يأخذ العلم عن الكتب واختلفوا في اعتبار الإجازة بدون سماع العلم مباشرة (57) أما العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس فلم يكن يميزهم عن غيرهم من باقي العلماء غير تضلعهم في علم وبراعتهم فيه أو اختصاصهم به. غير معينين أو منتخبين من طرف أحد وإنما هم الذين ينتدبون أنفسهم وقد أحسوا بالاهلية لذلك. إلا أن أكبر امتحان يجتازه هؤلاء المدرسون يكون من طلبتهم. فكثيرا ما يواجهونهم بالأسئلة في أول أمرهم بالتعليم ولا يكفون عنهم إلا بعد أن يقتنعوا بفضلهم وباعهم الطويل في العلم وإذ ذاك يولونهم أكبر الاعتبار.

أما أسلوب التدريس فإن أعلى مرتبة اعتبرها القدماء في التعليم هي الاملاء وهي طريقة المحدثين وقد اتخذ بها المتكلمون واللغويون كثيرا في القرن الثالث الهجري دون سواها. وتركها اللغويون في القرن الرابع الهجري واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ من أحد الطلبة والمدرس يشرح واستمر أسلوب الاملاء في تدريس الحديث (58)

---

56) رسائل اخوان الصفاء ج 1 ص 272.

57) انظر تاريخ التربية الاسلامية د. احمد شلبي ص 250.

58) انظر الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ادم ميتز ج 1 ص 317 ـ 318.

وللاملاء أصول وآداب فصل الكلام عنها ابن السمعاني في كتابه ادب الاملاء والاستملاء.

في هذه الفترة من القرن الثالث الهجري لم يتضح منهج للعلوم المتداولة بعد الحديث إلا في الفلسفة وعلم الكلام. ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية واللغة منهجه الخاص وأقبل العلماء على الدراسة العملية وعلى تنظيم المعارف وشعروا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة في تدريسها (59). وقد لحض الدكتور أحمد شلبي المناهج في العصر العباسي فقال : «بعد تطور العقلية العربية في العصر العباسي انقسمت المناهج إلى قسمين :

1 ـ قسم حافظ على المنهج العربي الخالص ولم يمزجه بشيء من الثقافات غير العربية وآرائها ومحتوياتها. وهم منهج أصحاب الحديث وهم مالك وأصحابه ممن قالوا بالاجماع والقياس ولم يلجأوا إلى القياس إلا قليلا وعند الضرورة. وغلب هذا المذهب على مكة والمدينة ومصر وافريقية والأندلس وصقلية.

2 ـ وقسم أضاف إلى المنهج العربي القديم مباحث جديدة استقاها من ثقافات جديدة وهو منهج أهل الرأي وهم أبو حنيفة وأصحابه ممن قالوا بالأصول الأربعة ولكن جل اعتمادهم على القرآن وعلى ماصح من

---

59) انظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ادم ميتز ج 1 ص 301.

الحديث وهو قليل عندهم، وعلى الاجماع والقياس. وغلب هذا المذهب على أهل العراق والمشرق. وهناك أيضا مذهب أهل الظاهر وهم داود وأصحابه الذين قالوا بالأصول الثلاثة ومنعوا العمل بالتأويل والراي والقياس (60).

عندما ازدهرت حلقات العلم والدرس في المساجد وكثر تضارب الأصوات المتعالية للتدريس والمناقشة. فبدأ ذلك يحدث بلبلة وتشويشا ضايق المهمة الأساسية التي للمسجد. ولما دخلت مواد جديدة في منهاج التعليم مثل علم الكلام والمناظرة وعلم الجدل، تغير منهج التدريس من الالقاء والاملاء إلى المناظرة والجدل حول الأفكار التي أوجدتها هذه العلوم. مما يتنافى وآداب المسجد (61).

من أجل ذلك بدأ التطلع إلى تنظيم الدراسة وترتيب الطلبة والاساتذة ترتيبا تابعا من منهج جديد يقرب العلم للطلاب ويحدد مسؤلية الأستاذ ويؤلف بين الطلبة والاساتذة في إطار منسق.

لكل ذلك عرف نظام التعليم منذ القرن الرابع الهجري أساليب ومناهج أخرى وأصبح خاضعا لتنظيمات جديدة اتخذت شكلها النهائي في مختلف البلاد الإسلامية بالطابع الذي طبعتها به المدارس «النظامية»

---

60) التربية والتعليم في الإسلام د. محمد أسعد طلس ص 147 ـ 148، 150.

61) تاريخ التربية الإسلامية د أحمد شلبي ص 96.

المسماة باسم مؤسسها الوزير الحكيم نظام الملك. ولاشك أن الغزالي أحد أعلام التربية الإسلامية طبعها بمنهجه وقد كان الأستاذ المبرز باحدها ذا المكانة والاعتبار الكبيرين.

حدد النظام الجديد نوع المدرس والمواد الدراسية وموضوعها ومنهاجها. وفرض شروطا تنظيمية كان على الجميع قبولها والعمل بها. وصاحب المدرسة هو الذي كان يضع هذه التنظيمات. فكان لهذا اثره في ازدهار العلم. تفرغ المدرس للعلم ولم يعد يهتم بأمور معاشه. واطمئن الطالب بسبب العناية التي خص بها وتوفير وسائل الدراسة وكان النظام المدرسي يقضي بتحديد عدد الطلاب (62) فسهل الاتصال بالطلبة والتعرف عليهم والاشراف المباشر على أعمالهم ومتابعتها. فاشترطوا على المدرس أن يستعلم عن اسمائهم وحاضري درسه وانسابهم ومواطنهم وأحوالهم وأكدوا في الحرص على مصلحتهم على تعيين مواعيد الدروس وساعاتها وان تقدم هذه المصلحة العلمية والتربوية ولو تعارضت مع شرط واقف المدرسة إذا اضطر إلى ذلك. ومن المشاكل التي كانت تواجه الطالب فوجدت حلها في المدارس. الكتاب المخصص للتدريس. فإذا كان المدرس هو مؤلف الكتاب فإن الطالب يصحح ماعسى أن يكون قد نقله خطئا من غيره أو أخطا هو في نقله وإذا كان المدرس يملي من

62) كان تزايد الإقبال على العلم، وشهرة بعض العلماء سببا في كثرة الطلبة في المجلس الواحد الى حد الألوف في بعض الأحيان واضطر ذلك الشيوخ الى الاستعانة بالمستملين انظر ابن السمعاني : ادب الاملاء والاستملاء ص 16.

حفظه وكثيرا مايقع الخطأ عند سماع الإملاء أو السهو عند الكتابة. فيضطر الطالب إلى الرجوع إلى الطلبة الآخرين وليس مؤكدا أن يجد عندهم الصواب وقد يكون الكتاب من تأليف عالم آخر. فيستلزم ذلك سهر المدرس بنفسه على التصحيح. والمدرس نفسه مضطر إذ ذاك إلى تصحيح نسخته قبل تدريسها. وقد عملت المدرسة على حصر مساوى هذه المشكلة. إذ حثت المدرس على أن يعين وقتا ليقابل مع الطلاب الذين يطالعون دروسه من كتبهم ويصححونها ويضبطون مشكلها ولغاتها واختلاف النسخ في بعض المواضع. وأولاها بالصحة (63). وعلى الطلاب أن يكونوا مثاليين في سلوكهم وأخلاقهم وجديتهم واجتهادهم. كل ذلك يعطينا فكرة عن المثقف الذي يهدف المنهج الإسلامي إلى تكوينه في هذه المرحلة والاهتمام الكبير بشأنه والعناية بدقائق الأمور التي تتصل بنفسية الطلاب ومعاشرتهم وأحوالهم الصحية مثل تخصيص المساكن العالية في المدارس لمن لا يضعف عن الصعود اما الضعيف أو من يقصد للفتيا والاشتغال عليه فتعطاه المساكن السفلى والمراقي التي تقرب من الباب أو الدهليز أولى بالموثوق بهم والمراقي الداخلية أولى بالمجهولين. ويبالغ المربون في وصيتهم بالتحري التام من كل مايمت بصلة إلى الحرام من كل شيء. في اختيار المدرسة التي يكون واقفها أقرب إلى

63) انظر تفصيل اداب المدرسين والطلاب بالمدارس في إحياء العلوم الغزالي ج 1 ص 52 ببعد والمعيد للعلموى ص 40 وتذكرة السامع لابن جماعة الباب الخامس ص 193 ببعد.

الورع وأن يكون وقفها من جهة الحلال وفي تحري المدرس ذى الرياسة والعقل والمهابة والجلالة والناموس والعدالة.

اعتنت هذه المدارس في بدايتها عناية شديدة بالعلوم الدينية والسبب في ذلك كما يرى الدكتور شلبي هو الاستجابة لروح العصر الذي انشئت فيه فقد حل المذهب السنى محل مذهب الشيعي في كل من مصر والعراق وسوريا بحلول السلاجقة والايوبيين محل البويهيين والفاطميين. وبعد أن هدأت حركة التشيع واستقر المذهب السني ظهرت العناية بعلوم أخرى كالطب مثلا (64).

ان المنهاج الجديد الذي سارت عليه المدارس قد أثر على توجيه العلوم الإسلامية وجهة هادفة لم ينحصر اثرها على العقيدة والادب والأخلاق بل ظهر في الفن المعماري أيضا. فسخر أسلوب البناء والزخرفة وطوع مهارات الفنون الإسلامية الأخرى لبناء المدارس حسب أهدافه فأبدع آثارا في مختلف الأقطار الإسلامية يحق للثقافة أن تزهو بها.

لم يكن نشاط التعليم مقصورا على المدارس التي كانت تكتسي الطابع التعليمي الخاص فكانت بذلك مظهر هذا النشاط. فقد شاركتها مؤسسات أخرى كان لها دورها العلمي الفعال وكانت لها أهدافها التربوية الخاصة. فالمستشفى مثلا على بعد مهمته عن مزاولة التعليم كان يساهم

64) تاريخ التربية الإسلامية د أحمد شلبي ص 98 ـ 99.

في هذا النشاط فيضيف بذلك لبنة في بناء منهج البحث العلمي والتحصيل لا يخص ذلك الميدان الطبي بل يتعداه إلى العلوم الشرعية. مثال ذلك المستشفى المنصوري الذي بنى سنة 682 هـ بالقاهرة الذي كانت تلقى فيه دروس في الطب كما كان يدرس فيه التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة (65).

هناك نوع آخر من المراكز العلمية ازدهر فيها على الخصوص شكل من التعليم انحصر فيها وأخذ باهتمام الناس فقصدوه تلقائيا وأقبلوا عليه ووجدوا فيه طريقاً أيسر وأجدى لفهم العلوم وإدراك الغاية منها. ذلك هو الزوايا والخانقاهات والربط . ولا شك أن كل واحد من هذه الأسماء اهتم أكثر بناحية من نواحي الحياة المعنوية ولكنها جميعا كانت تعمل على تصفية الباطن من الشوائب ورفع همة الإنسان في الطلب والمعرفة والأخذ بيده إلى أسمى غايات الإنسان في الوجود وهي معرفة الحق سبحانه وتعالى. كان يدرس في هذه المراكز القرآن الكريم والحديث والفقه والتربية كما كانت تلحق بها كتاتيب لتعليم الأطفال القرآن الكريم والكتابة والخط. وكان يدرس فيها التصوف علما وعملا. وهو العلم الذي تكون منذ عهد مبكر وكون حوله نقاشا وجدالا وحوارا لون العلوم المختلفة. بل نظر إلى كل العلوم من زاوية مفاهيمه وعبر عنها بتعابيره

---

65) راجع التربية والتعليم في الإسلام د. محمد أسعد طلس ص 117 ـ 121.

وأذواقه التي بلغت الغاية في الرقة والصدق واتخذ طريقا جديدا إلى المعرفة أساسه البصيرة وعده الطريق الأمثل لتحصيل الهدف من الحياة ناهيك بما صورته «المعرفة» وخطته في الفكر الإسلامي من إيحاءات ودلالات. ولقد أبدع الصوفية في فهم النفس الإنساني أيما ابداع واتقنوا أساليب تربيتها وتداريبها وتهذيبها وتطهيرها لتلقي المعرفة. ولقد نبه الغزالي على ذلك وبين محكه من الإنسان وأهميته فقال ، خلق الله الإنسان من شيئين مختلفين أحدهما الجسم المظلم الكثيف الداخل تحت الكون المركب المؤلف الترابي الذي لا يتم أمره إلا بغيره والآخر هو النفس الجوهري المفرد المنير المدرك الفاعل المحرك المتمم للآلات الإنسانية هو ذلك الجوهر الكامل الفرد الذي ليس من شأنه إلا التذكر والتحفظ والتفكر والتمييز والروية ويقبل جميع العلوم ولا يمل من قبول الصور المجردة المعراة عن المواد هذا الجوهر هو :

1 ـ النفس الناطقة عند الحكماء.

2 ـ النفس المطمئنة في القرآن . والروح الأسرى.

3 ـ القلب عند الصوفية (66).

هذا الأسلوب التعليمي هو الذي يسمى بالتعليم الرباني. وقد حلل الغزالي هذا النوع من التعليم في رسالته «الرسالة اللدنية» وقال : التعليم الرباني علي وجهين :

---

66) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي ج الأول ص 101 الرسالة اللدنية.

الوجه الأول : إلقاء الوحي، ويكون بعد كمال ذات النفس. فيقبل الله تعالى بحسن عنايته على تلك النفس إقبالا كليا وينظر إليها نظرا إلهيا ويتخذ منها لوحا. ومن النفس الكلى قلما وينقش فيها جميع علومه ويصير العقل الكلى كالمعلم والنفس القدسية كالمتعلم فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر ومصداق هذا قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : «وعلمك مالم تكن تعلم» وهذا خاص بالمرسلين.

الوجه الثاني : هو الإلهام. والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفاتها وقبولهاوقوة استعدادها والإلهام اثر الوحي. فإن الوحي تصريح بالأمر الغيبي والإلهام هو تعريضه والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علما نبويا والذي يحصل على الإلهام يسمى علما لدنيا.

والعلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية كما كان للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عنه. فقال : «علمناه من لدنا علما» وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة

لا يكون حكيما لأن الحكمة من مواهب الله تعالى (67) ويحصل العلم اللدني باتباع الطرق الآتية ،

1 ـ تحصيل جميع العلوم واخذ الحظ الأوفر من أكثرها.

2 ـ الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة.

3 ـ التفكر فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم، ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب ولذا قال صلى الله عليه وسلم تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة.

وقد أحال الغزالي على رسالة أخرى بين فيها التفكر وكيفيته وحقيقته وخصها بهذا الموضوع لأنه يحتاج إلى شرح وتيسير (68).

كانت هذه الزوايا تزخر بالمقيمين فيها والوافدين عليها وكانت أكثر قربا واتصالا بالمجتمع فكان لها الاثر البالغ في توجيه هذا المجتمع وتهذيب مختلف طباقته. وكان لها اثر انتقل إلى أبعد من حدودها المكانية والزمانية بواسطة كثرة الوافدين عليها العابرين، المتنقلين في مختلف أقطار العالم الإسلامي طلبا للعلم.

---

67) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي ج 1 «الرسالة اللدنية» ص 114 ـ 118.

68) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي ج 1 الرسالة اللدنية ص 122.

التدوين والتأليف :

اعتمدت الكتابة من أجل تدوين العلوم فالجاحظ مثلا يرى في المعرفة أنها هي تلك التي تعتمد حفظها على الكتابة والتدوين وهذه مرحلة حاسمة في تاريخ المنهج التدريسي الإسلامي. قررت الأسلوب الجديد الذي يجب أن يعتمد عليه طالب العلم وملقنه. وحينئذ بدأ الاعتماد الكلي على الذاكرة يتداعى وفتحت آفاق أخرى في وجه البحث العلمي.

تكون الكتاب أولا من املاءات الشيوخ وفي ذلك نقل ابن النديم وصفا دقيقا عن كتاب الياقوت في اللغة لأبي عمر المطرز (م 345 هـ) يقول أنه ابتدا باملائه يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة 326 هـ في جامع المنصور ببغداد ارتجالا من غير كتاب ولا دستور. ومضى في الإملاء مجلسا مجلسا إلى أن انتهى إلى آخره. ثم راى الزيادة فيه فزاد في اضعاف ما املىء وكتب هذه الزيادة أحد تلاميذه ثم قراه عليه أبو إسحاق الطبري وسمعه الناس ثم زاد فيه بعد ذلك وقرىء عليه بالزيادة ليوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة سنة 329 هـ وفرغ منه في ربع الثاني سنة 331 هـ وحضرت نسخ جميع من كتب فقورنت ثم زاد المؤلف بعد ذلك أشياء أخرى كتبها محمد بن وهب ثم جمع الناس ووعدهم

بعرض أبي إسحاق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضة يتقرر عليها الكتاب ولا يكون بعدها زيادة (69).

وكثيرا ما يعتنى الكتاب بالاضافات والزيادات بل والتعليقات القيمة من طرف علماء أفاضل يقع الكتاب في يدهم أو يقومون بتدريسه. وقد يكون حظ بعض الكتب أكثر من بعض.

ولكن المرحلة الأهم في التدريس هي التي جاءت بعد أن اختمرت فكرة التأليف. والحت الحاجة إلى الكتاب وقد كثرت العلوم والفنون وتفرعت مناحي البحث العلمي وطرحت قضايا فكرية لم تعد تتحمل مجالا محدودا وهنا اتضحت فكرة المسلمين في التأليف وهي مواجهة العلوم القديمة بروح التطور والتقدم والإقدام على اكتشاف مالم يسبق إليه الأوائل. (70) وكانت تلك هي مرحلة الإبداع.

وعلى هذا الأساس صرح ابن خلدون أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين مقدما ابن هشام مثلا على سيبويه وابن جنى وأهل طبقتهما في صناعة العربية (71).

---

69) الفهرس لابن النديم ص 76 والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج 1 ص 317 ـ 318.

70) مناهج العلماء المسلمين روزنطال ص 171 ـ 175 و 185 ـ 188.

71) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1231.

ولما ازدهرت حركة التأليف وزخرت المكتبة الإسلامية بالمؤلفات في مختلف فنون المعرفة منها المخصص للموضوع الواحد الجامع لكل مايتصل به. ومنها الموسوعي المحيط بأطراف المعرفة (72). لم يترك البحث من متطلبات الثقافة حينئذ شيئا إلا عرض له. فلما تناول تأليف موضوعات فيما بعد القرن الرابع الهجري كانت كأنها تكرار مسهب أو مختصر لما سبق فتبين ذلك في القائمة الطويلة في مقدمات هذه المؤلفات بأسماء الكتب التي سبقت إلى الكتابة في نفس الموضوع (73).

عارض ابن خلدون كثرة التأليف في مناهج التعلم لأنها تسبب اختلاف الاصطلاحات وتعدد طرقها فهي عائقة عن التحصيل لأنه يتعذر على المتعلم والتلميذ استحضارها على تنوعها فمثلا يتعذر عليه بلوغ القصد من علوم الآلة ولو صرف عمره كله في تحصيلها فكيف بغيرها (74) ـ وعارض كثرة الاختصارات لأنها مضرة بالتعليم ففيها تخليص على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد. وفي ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم وتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل منها ولأن الملكة المكنونة من هذا التعلم قاصرة عن الملكات والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة

72) مناهج العلماء المسلمين روزنطال ص 165.

73) مناهج العلماء المسلمين روزنطال ص 54 ـ 55.

74) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1230 ـ 1231.

(75). وقد ذكر ابن خلدون المذهب المختار في التأليف وقدمه على غيره لاغيا لكل ما سواه لأنه فعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة ويتلخص هذا المذهب فيما يلي :

1 ـ الاستنباط.

2 ـ البيان لما استكمل على الغير من كلام الأولين.

3 ـ تصحيح أخطاء الفضلاء من المتقدمين.

4 ـ تتميم مانقص من وسائل الفن الواحد.

5 ـ ترتيب مسائل من العلم وتنظيمها.

6 ـ جمع مسائل العلم المتفرقة وتكوين فن جديد منها.

7 ـ التلخيص للمطولات.

خاتمة :

«اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم» هذا الأمر الإلهي رسم في قلب المسلم المدلول الحقيقي للقراءة وعرفه منهاج ذلك المدلول. فلا قارىء إلا قارىء القرآن الكريم، به يعرف حكم الشريعة وحكمتها. ولهذا وصف في الصدر الأول من الإسلام نفر ممن أكرمهم الله بهذه النعمة بـ «القراء».

---

75) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1232.

القراءة باسم الله   للتدبر في خلق الله

حدد ذلك الأمر هدف الإنسان الأسمى.

القراءة إذن أول أمر إلهي إلى رسوله الأمين لذا اعتمد وعي المسلم أول ما اعتمد على سماع الآيات البينات عن مبلغ الرسالة الصادق الأمين. فاطمأنت بها نفسه ووعاها قلبه ثم جرت على لسانه كما سمعها ووعاها يرويها جيل عن جيل.

فالاعتماد على التلقي عن طريق السمع كان الوسيلة الأساسية عند المسلم. وهذه الحقيقة يجب التنبيه إليها في بحث المناهج ووضعها للتعليم، وهي التركيز على العون وقدسيته أكثر من الصورة وكثيرا ما دعي لأن يتحاشاها واستعمال السمع لتلقي العلم واستيما به.

والحقيقة الثانية نابعة من تلك الحقيقة الأولى فالاعتماد على البصيرة بدل البصر. واستعمال حاسة السمع للنفاذ إلى مستقر المعرفة. كل ذلك بعث في نفس المسلم توقدا متوثبا في الإدراك، وشوقا لتلمس المعنى في أعماقه، وحرصا على الاحتفاظ بذلك المعنى ودعاه لاستكمال تلك المعرفة باستمرار فالحكمة ضالة المؤمن بنشدها انى وجدها. يهديه إليها حدس لا يخونه، وبصيرة يتعرف بها متى ماشحذت وصقلت على حقائق الأشياء، وقد انعكس ذلك في تصويره للاشياء ووصفه لها بهذه القوة النيرية (76).

---

76) انظر مناهج العلماء المسلمين روزنطال ص 179.

وكذلك كان رأي المربي المسلم. يوصي الغزالي المعلم أن يكون عالما بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر.

وثالثة ان الزمان يجب أن يخضع لخدمة المسلم ويكون طيعا لاستعماله لا أن يكون المسلم تحت ضغطه فاللحظة الضائعة منه عبث يحاسب عليه. المسلم مكلف بالبحث عن الحقيقة الموجودة وادراكها وليس له أن يجهد الوقت لصنع الحقيقة. لذلك يردد المسلمون كثيرا «الوقت ثمين والعمر قصير» فالعمر لايتسع لجميع المعلومات فالأجدر الاهتمام فيه بالأهم.

ورابعه «ان العلم ليس بكثرة الدراية وإنما العلم نور يقذفه الله في القلب» كما قال ابن مسعود وهو عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى. ومكان العباة والقيام بها يقتضى الطهارة وهي في التوجه إلى الله سبحانه وتعالى وترقب رحمته وطلب المدد منه. وذلك أساس بدءا وختاما.

فما يزال العالم المسلم يتعلم ويترقب الترقي في مدارج الفهم وفي قرارة نفسه «لا أدري» وامام سعيه الدائب «الله أعلم».

● + ●

ان الخطر في مناهج التعليم الإسلامي اليوم هو في تكثير أنواع التعليم، وتنويعها بدون هدف موحد لها، وفي فصل التعليم القرآني عن حياة المسلم كما فصل عنه الدستور القرآني.

ليس تطبيق منهاج إسلامي على التعليم بمعجز اليوم غير أن الذي تجب المبادرة إليه هو الإيمان بشخصية الحضارة الإسلامية. فالخوف والشك في فعالية المنهاج الإسلامي هو سبب التدهور والاضطراب وعدم الاستقرار.

الشك في المنهاج القرآني هو الشك في القرآن فلنبدأ باليقين.

والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

فاس   د. عبد اللطيف السعداني

لباب الأنساب لابن الأثير ومعطياته الاجتماعية

د. معن خليل عمر

تتناول هذه الدراسة ماكتبه المؤرخ عز الدين ابن الحسن علي بن محمد بن محمد ابن الأثير (555 - 630 هـ) في كتابه «اللباب في تهذيب الأنساب» في أجزائه الثلاثة (1) الذي تضمن مسحاً وصفياً لأنساب المجتمع العربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميلادي وسوف تعكس هذه الدراسة الاوجه الاجتماعية - وليست التاريخية - فيما كتبه ابن الاثير حول الأنساب التي استخدمناها كأداة منهجية لدراسة المجتمع العربي في تلك الفترة الزمنية. والمعروف لدى الباحثين ان ادوات جمع المعلومات في علم الاجتماع لاتتعدى الملاحظة (بأنواعها المختلفة) والمقابلة والاستيبان والوثائق التاريخية والشخصية. الا ان باحثي علم الإنسان ANTHROPOLOGY لايترددون في استخدام النسب GENEALOGY كأداة لجمع المعلومات حول مجتمع من المجتمعات. وقد وجدنا الأستاذ ريموند

فيرث RAYMOND FIRTH استخدام اداة النسب للتعرف على النظام الزواجي وأسباب وفاة الذكور بنسبة أعلى من وفاة الاناث في جزيرة تيكوبيا (2) ووجدنا الأستاذ بريستياني J. PERISTIANY استخدم هذه الاداة لدراسة النظام القرابي عند الكبيسيجين (3). واستخدم الأستاذ برونلاو مالينوفسكي B. MALINOWSKI النسب في دراسة جزر التروبريان ومعرفة نظام الزواج وظاهرة زواج الطفل من ابنة أخت أبيه في هذه الجزر (4). واستخدم الباحث جارلس جبرائيل سلكمان C.H. SELIGMAN النسب في دراسة النظام القبلي في جنوب السودان (5) كذلك استخدم النسب الأستاذ و. هـ. ر. ريفرز RIVERS في دراسة التوديين في جنوب الهند 1901 - 1902 (6).

وبامكاننا استخدام هذه الاداة لجمع المعلومات حول الفئات الاجتماعية التي تعيش في المجتمع العربي ابان القرنين الآنفين الذكر والتعرف على درجة تطوره الاجتماعي ومدى ارتباط الفرد ببناء المجتمع العربي واهمية النسب في المجتمع العربي لذا سوف لاتتضمن دراستنا الاوجه التاريخية أو رسم شجرة الأنساب . بل سوف تهتم فقط بأوجه الحياة الاجتماعية للمجتمع العربي في تلك الفترة الزمنية.

أما نوع التحليل الذي سوف تستخدمه هذه الدراسة في تحليل النسب فهو تحليل المضمون CONTENT ANALYSIS الذي يحلل الظواهر الاجتماعية من خلال وثائق تاريخية أو أقوال الأفراد الماضية. فهو يشبه

التحليل التاريخي من حيث استخدام المواد التاريخية. إلا أنه يختلف عنه من حيث اهتمامه بمعطيات السلوك الإنساني من الناحية الاجتماعية وعلاقة ذلك بالبناء الاجتماعي وابراز الاتجاهات العامة للسلوك البشري المتعلقة بالمجتمع وليس بالفرد.

بعد هذا التعريف بادوات الدراسة . ننتقل الى الخطوة الثانية التي تعرض علاقة الفرد بالمجتمع عن طريق النسب. فمن البديهي ان المجتمع الإنساني لايتكون من مجموعة أفراد فقط. أو يتكون من مجموعة قيم واعراف وأفكار . بل يتكون من أفراد مترابطين بعضهم ببعض بواسطة شبكة من العلاقات الاجتماعية تخضع لضوابط قيمية وعرفية وفكرية. ولكي يستطيع الفرد البقاء دائما داخل المجتمع . فإنه يحتاج إلى عدة قنوات اجتماعية تقوم بربطه في بناء المجتمع. ومن احدى هذه القنوات الاجتماعية هي النسب الذي يشير الى معنين الأول معنى ضيق وهو الانحدار الابوي وحمل اسم متميز عن باقي الأفراد غير نسبه. أي ياخذ مساراً أبوياً وليس أمومياً. ويكون موروثاً وليس اكتسابياً. أي أن الفرد العربي يحصل على نسبه من يوم ميلاده من اسرته عن طريق انحدار أبيه ولا يحصل عليه من خلال انجازه في عمل معين.

والمعنى الثاني : أوسع من الأول لأنه يشير الى المجتمع المحلي *commesm* أي اجتماع مجموعة اسر تنتمي إلى نسب واحد تعيش في بقعة جغرافية معلومة الأبعاد متضمنة علاقات اجتماعية غير رسمية

INFORMAL تنتمي الى مهنة معينة أو تنحدر من مذهب ديني معين أو تشغل مراكز اجتماعية عالية داخل المجتمع المحلي. ومن خلال عضوية الفرد النسبية (غير الرسمية) يحصل على كافة حقوقه وواجباته ومكانته الاجتماعية والسياسة والاقتصادية على المستوى المحلي والعام.

وللزيادة من التوضيحات حول مفهوم النسب . أرى ضرورة تميزه عن مفهوم القرابة LINAGE الذي يعني الارتباط الدموي أو الرحمي أو المصاهرة بين أفراد جيل واحد. بينما يعني النسب انتماء الأفراد المكاني أو القبلي أو الطائفي أو المهني أو الحرفي أو الديني أو القومي أو الاسري (الجد) لذلك يكون أبناء القرابة الواحدة على قيد الحياة. بينما يكون معظم أبناء النسب الواحد (للفرد الواحد) ليسوا على قيد الحياة. في حين تكون العلاقة والصلة الاجتماعية بين أبناء القرابة الواحدة أقوى وأمتن من أبناء النسب الواحد. بيد أن حجم النظام القرابي يكون أصغر من نظام النسب.

إضافة إلى ذلك . فالنسب يساعد على تميزه عن الآخرين. ويشير أيضا إلى :

1 ـ التضامن الاجتماعي الداخلي (داخل النسب الواحد).

2 ـ مكانة الفرد الاجتماعية داخل المجتمع العام.

3 ـ دور الفرد الاجتماعي داخل المجتمع.

4 ـ التدرج الاجتماعي داخل المجتمع.

5 ـ نوع نظام تقسيم العمل.

6) نوع الحاجات الاقتصادية والاجتماعية التي كان الفرد العربي يحتاج إليها في تلك الفترة الزمنية.

ويضيف ابن خلدون فيما يخص أنساب العرب فيقول «ان ثمرة الانساب وفائدتها انما هي العصبية للنعرة والتناصر. فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية والمنبت فيها زكي محمي تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى (7)» ويرجع ابن خلدون اعتزاز العرب بأنسابهم لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق. فينزعون إلى ذلك النسب. ويتورطون بالدعوى في شوبة (8) ويقول أيضا ان كل حي أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا «عصبيات» أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم. مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو اخوة بني أب واحد لامثل بني العم الأقربين أو الأبعدين. فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوصي ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام إلا أنها من النسب الخاص أشد لقرب اللحمة والرياسة فيهم انما تكون من نصيب واحد منهم ولا تكون من الكل (8).

بعد أن اعطينا فكرة موجزة عن مفهوم النسب في علم الاجتماع وعند ابن خلدون ننتقل الى ما قدمه ابن الاثير في كتابه اللباب في

تهذيب الأنساب فنجد أن المجتمع العربي في تلك الفترة الزمنية لم يكن بسيطا في تركيبه أو فلكلوريا في عاداته أو قبليا في نظامه أو بدائيا في مدنيته أو مغلقا في احتكاكه مع المجتمعات الأخرى. بل كان متحضرا في ارتباطاته وتشكيلاته الاجتماعية. فقد طرح ابن الاثير آلاف الأنساب ذات الانحدارات المتعددة والمتنوعة والمتباينة. منها ماكان انحدارها مهنيا وحرفيا ذا تخصص تجاري وصناعي وطبي وإداري وأدبي وعلمي وديني ومنها ماكان انحدار جغرافي (قروي. بليدي. مديني. قطري)، وآخر ذا انحدار ديني يرجع إلى مشاهير رجال الدين الإسلامي وغيره ذا انحدار قبلي (بطون . عشائر. قبائل) فهذا التنوع في فئات المجتمع وعدم تشابههم في انحدارهم النسبي هو احدى صفات المجتمع الحضري ،،٢١٧٧،،٨٨ الذي يتصف بتنوع واختلاف فئاته الاجتماعية. إضافة إلى ما تقدم . فإن مجموعة الأنساب التي قدمها ابن الاثير تشير إلى وجود تخصص مهني دقيق.أي هناك نظام تقسيم للعمل ليس بالبسيط ولم يكن قائما على أساس العمر أو الجنس (ذكرا أو أنثى) كما هو سائد في المجتمعات البسيطة التركيب والفلكلورية أو البدوية أي أن نظام تقسيم العمل لم يكن معتمدا على النوعية والعمر كالذكور والإناث والشباب والشيوخ. بل كان قائما على تخصصات دقيقة في التجارة (بيع حاجة أو سلعة واحدة) وفي الصناعة (صناعة آلة واحدة) وفي الادارة (القيام بأعمال إدارية متخصصة) وهذه صفة ثانية من صفات المجتمع المتحضر (وجود

نظام تقسيم عمل غير بسيط، أو غير مقام على ثنائية العناصر - ذكور اناث أو شباب وشيوخ).

علاوة على ماتقدم، النسب يعني أيضا الانتماء إلى جماعة اجتماعية يستخدمها الفرد المنتسب إليها كجماعة مرجعية Référence Groupe للتماثل أو التطابق في تفكيره أو تصرفه الاجتماعي مع فكر ومعتقدات أعضاء الجماعة التي تنضوي تحت نسبه. ويمثل النسب أيضا مسارا تاريخيا أو خلفية تاريخية تربط الفرد بأحد مكونات المجتمع. والانتماء الاجتماعي والخلفية التاريخية يحددان مكانة الفرد داخل المجتمع ويساعدانه على إدراك وجوده الاجتماعي ولاحظنا من خلال كتابة ابن الاثير حول الأنساب تعدد انتماءات الفرد العربي إلى أكثر من نسب واحد، في آن واحد فقد ينتمي إلى قبيلة معينة ويعيش على بقعة جغرافية خاصة ويقوم بالتجارة، وينتمي إلى فئة مذهبية دينية معينة في آن واحد، وجميع هذه الانتماءات النسبية لم تؤثر على تداخل عضوياتها المتنوعة لعدم تعارضها أو لتعصب الفرد لنسب واحد دون الآخر. فتنوع الأنساب داخل المجتمع العربي دفع الفرد إلى ارتباطه بأكثر من نسب واحد في وقت واحد وهذا يعني ان ارتباطه بالجماعات الاجتماعية كان عضويا بسبب عدم تعصبها وكان ارتباطه بالمجتمع العام ميكانيكيا

بسبب كبر حجمه وتنوع وحدات مكونات نظام تقسيم عمله (× ×) أي أن الفرد العربي كان مرتبطا بجماعات اجتماعية متصفة بعلاقات اجتماعية غير رسمية (أولية) تزيد من ترابطه بالجماعات الاجتماعية وبنفس الوقت تربطه (رسميا) بالمجتمع العام. فتعدد الأنساب في مجتمع حضري متضمنا نظام تقسيم عمل متعدد التخصصات لا يعيق تطوره أو تغيره. بل يزيد من تماسكه الضمني (ضمن المجتمع الواحد) بسبب تعدد انتماءات الفرد إلى أكثر من نسب واحد وعدم مطالبة النسب الواحد بالتعصب له ضد الآخر. فالانتماء المذهبي لم يستلزم من الفرد عدم انتمائه إلى قبيلة معينة أو الاشتغال في مهنة خاصة. لذلك وجدنا ارتباط الفرد العربي كان ميكانيكيا داخل جماعته الصغيرة وعضويا بمجتمعه العام. فلم يفقد انسانيته أو وجدانه العاطفي لأن انتماءته الدينية والمهنية والجغرافية بقت محتفظة بعلاقاتها الحميمة والوجدانية فعلى سبيل المثال لا الحصر ذكر ابن الاثير الأمثلة التالية:

1 ـ الماوردي الذي يبيع الماورد ويعمله، كابو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الفقيه الشافعي البصري (ص 90، ج 3) نلاحظ هنا تعدد الانتماءات النَّسَبية في فرد واحد (المذهب الديني ـ الجغرافي ـ النسب الجغرافي ـ البصري ـ النسب المهني الماوردي).

×) ارتباط عضوي (عقدي، قانوني، غير متجانس، لايخضع للضمير الجمعي).

×) ارتباط ميكانيكي (مباشر، تلقائي، غير مكتوب،خاضع للضمير الجمعي).

2 ـ الخلطي : الذي يبيع المخلط من الفاكه اليابس من كل نوع منهم أبو عبد الله أحمد بن الحسن الدباس المخلطي البغدادي الفقيه الحنبلي (112 ـ ج 3) ونلاحظ هنا أيضا تعدد الانتماءات النسبية حيث ظهر النسب الديني ـ الحنبلي ـ والنسب الجغرافي ـ البغدادي ـ والنسب المهني ـ المخلطي.

3 ـ القطان. الذي يبيع القطن منهم أبو سعيد يحيى ابن سعيد بن فروخ الاحوال القطان مولى بني تميم (ص : 6670 ج 2) نلاحظ هنا تعدد الانتماءات النسبية الذي جمع بين النسب القبلي - بني تميم - والنسب المهني ـ القطان.

وهكذا فتعدد أنساب المجتمع العربي لم تعمل على تفرد أو اغتراب الإنسان العربي بسبب عدم رسمية هذه التنظيمات الاجتماعية (الانساب) لأنها لم تسلب منه إنسانيته لضمنها علاقات اجتماعية أولية حميمة ورحمية دموية لكن هنا لا يمنع من وقوع تنازعات أو تصارعات بين الانساب أو ضمن النسب الواحد. وإذا نظرنا إلى المجتمع الحضري الغربي المعاصر نجد عكس ذلك حيث يكون الفرد فيه منعزلا ومتفردا بسبب عدم انتمائه الميكانيكي إلى الجماعات الاجتماعية بل انتماءه العضوي الذي يجعل صفة المجهولية في علاقاته الاجتماعية وهذا لا يعوض انتماءه الميكانيكي فالفرد في المجتمع الحضري الغربي المعاصر فقده إنسانيته

وأصبح معزولا عن العلاقات الحميمة بسبب التحضر السريع لذلك أصبحت علاقته بعائلته ومهنته ومنطقته السكنية سطحية و بسيطة وغير مستقرة . فأصبح متفردا وقلقا ومعزولا (نسبيا) عن العلاقات الرحمية أو القرا بية (الحميمة) وحلت محلها العلاقات الثانو ية السطحية.

فالنسب العربي يصبح من هذا المنظور عبارة عن جماعة اجتماعية أولية (أو تنظيم اجتماعي غير رسمي) يمنح أعضاءه الدفء والاطمئنان النفسي والضمان والاستقرار الاجتماعي. فالنسب العربي إذن يمثل جماعة اجتماعية طبيعية انشأ مع ميلاد الفرد ونما مع تنشئته الاجتماعية لاعطائه تميزا اجتماعيا أوليا ومحافظته على ارتباطه العضوي المتين به. أي أن النسب العربي لم يمثل جماعة اجتماعية مصطنعة ظهرت بسبب فقدان الفرد عضويته الأولية وحرمانه من العلاقات الاجتماعية الحميمة كما هو سائد في المجتمع الحضري الغربي المعاصر.

ونستنتج مما تقدم. أن تحضر المجتمع العربي آنذاك لم يعمل على ازالة أو فقدان إنسانية وعضوية الفرد العربي الاجتماعية الأولية من هويته فما قام به ابن الاثير هو تسجيل أعضاء المجتمع العربي آنذاك بشكل دقيق كشف لنا درجة تحضر المجتمع العربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميلادي ويوضح أيضا انتباه كتّاب ومفكرين العرب - أمثال ابن الاثير - إلى تدوين أسماء أعضاء المجتمع من خلال تسجيل جماعاتهم الاجتماعية الأولية من خلال انسابهم . فهي عملية حضرية متميزة رائدة.

ننتقل بعد ذلك إلى تحديد مراتب التدرج الاجتماعي التي استخرجناها من كتاب «اللباب في تهذيب الأنساب» لابن الأثير، حيث لاتخلو المجتمعات الإنسانية من تدرجات اجتماعية متباينة في فئاتها الاجتماعية عاكسة النظم الاجتماعية والسياسية السائدة في المجتمع. وسوف تبين هذه الدراسة توزيع المجتمع العربي إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر حسب الانساب وليس حسب العامل الاقتصادي (الدخل أو الثروة أو الملكية) أو العامل السياسي (الانتماء الحزبي أو الحركي) أو العامل الديني (الإنتماء المذهبي أو الطائفي) أو عامل قومي (عربي أو فارسي أو هندي). ومن خلال عملية إحصائية بسيطة وجدنا مجموع أنساب العرب التي قدمها ابن الاثير (4151) ووجدنا أن النسب الجغرافي أخذ المرتبة الأولى في التدرج الاجتماعي وكان مجموعه (1790) الذي أشار إلى توزيع الأنساب حسب مناطق جغرافية مختلفة في الحجم ودرجة تحضرها. فظهرت أنساب قروية وبلدية ومدينية ومحلية وإقليمية وجاء نسب الاعلام في المرتبة الثانية الذي كان مجموعه (786) الذي أشار إلى الانتماء إلى شخصيات بارزة في صفات اجتماعية يحبذها المجتمع العربي أو التي لها ماضي مجيد أو مآثر حميدة.

واتى نسب الجد في المرتبة الثالثة وكان مجموعه (524) الذي أشار إلى انتماء الفرد لجده المتأتي عن طريق ابنه.

ثم أتى نسب المهنة بعد ذلك وكان مجموعة (483) الذي أشار إلى تخصصات مهنية وحرفية متنوعة ودقيقة.

بعدها جاء النسب القبلي في المرتبة الخامسة وكان مجموعة (432) الذي أشار إلى الانتماء القبلي والعشائري المتنوع والسائد في المجتمع العربي.

وكان نسب الاشراف في المرتبة السادسة ومجموعة (64) الذي أشار إلى قرابة الرسل وأصحابه.

وكان النسب المذهبي في المرتبة السابعة فكان مجموعة (42) ونسب الصفات الجسمانية غير المتكاملة أو التي لاتقوم بوظائفها الفيسيلوجية بشكل طبيعي فكان مجموعة (19) أما النسب القومي فقد كان مجموعة (9) والنسب الطائفي كان (2) انظر جدول رقم ـ 1 ـ .

جدول رقم 1

جدول يبين التدرج الاجتماعي حسب النسب

نوع النسب	الجزء الأول من كتاب اللباب	الجزء الثاني من كتاب اللباب	الجزء الثالث من كتاب اللباب	المجموع
الجغرافي	995	335	440	1790
الاعلام	347	214	225	0786
الجد	274	117	133	0524
المهني	240	103	140	0483
القبلي	233	118	081	0432
الاشراف	030	019	015	0064
مذهبي	016	011	015	0042
صفات جسمانية	015	001	003	0019
قومي	007	002	000	0009
طائفي	000	000	002	0002
المجموع العام	2157	0940	1054	4151

بعد هذه المقدمة البسيطة . نأتي إلى طرح بعض نماذج من أنساب العرب حسب تصنيف اجتماعي (وليس كما قدمه ابن الاثير حسب الحروف الأبجدية) وهي نسب مهني وجغرافي وقبلي واشراف واعلام المجتمع العربي في ذلك الوقت.

النسب المهني :

الذي يشير إلى نوع المهنة وتخصصاتها الفرعية الدقيقة التي كان يزاولها الفرد العربي نبدئها بـ :

التخصص التجاري :

البزار : «الذي يخرج الدهن من البذور ويبيعه مثل أبو عمر دينار البزار (ص : 118. ج 1).

البزوري : «الذي يبيع البزور من البقول» مثل أبو عبيد الله أحمد بن عبد الرحمن البزوري (ص 120 ج 1) البقلي. «الذي يبيع البقل» مثل ابن عبد الله الكريم البقلي البغدادي (ص : 135 ج 1).

الجوهري : «الذي يبيع الجواهر» مثل أبو محمد الحسن بن علي بن محمد علي بن الحسن الجوهري البغدادي (ص 255. ج 1).

الخشاب : «الذي يبيع الخشب» منهم ابراهيم بن عثمان بن سعيد بن المثنى أبو إسحق الأزرق الخشاب المصري (ص 372. ج 1).

الزيات : «الذي يبيع الزيت» وحمله من بلد إلى غيره منهم أبو صالح ذكوان الزيات (ص : 514. ج 1).

الابري ، «الذي يبيع الابر وعملها» ومنهم أبو القاسم عمر بن منصور بن بريد الأبري (ص 19، ج 1).

الشحام الذي يبيع الشحم «منهم أبو حليمة الشحام». (ص 13 ج 2)

الشيرجي ، «الذي يبيع الشيرج وهو دهن السمسم» منهم أبو إسحق إبراهيم بن اسحق بن ابراهيم يعقوب الشيرجي الحنبلي بغدادي (ص 39 ج 2).

الصواف ، الذي يبيع الصوف «منهم أبو علي محمد بن أحمد بن الحسين الصواف البغدادي (ص 61 ج 2).

الفاكهي ، «الذي يبيع الفاكه «منهم موسى بن كثير بن بشير الفاكه الأنصاري السلمي الديني الفاكهي (ص 194 ج 2).

الفحام ، «الذي يبيع الفحم «منهم حاتم بن راشد الفحام (ص 197 ج 2).

الفراء ، «الذي يخيط الفراء ويبيعه «منهم أبو القاسم نوح بن صالح الفراء (198 ج 2).

القافلاني ، «الذي يشتري السفن ويكسرها ويبيع خشبها وقفرها وقفلها » منهم أبو الربيع سليمان بن محمد سليمان القافلاني (ص ، 237، ج 2) .

القطان ، «الذي يبيع القطن» منهم أبو سعيد يحيى بن سعيد بن فروخ الأحوال القطان مولى بني تميم (ص 270 ج 2).

الصيرفي الذي يبيع الذهب «منهم أبو بكر محمد بن عبد الله

الفقيه الشافعي الصيرفي البغدادي (ص 66 ج 2).

العاجي : «الذي يبيع العاج» منهم معاوية بن عمرو العاجي (ص 103 ج 2).

العسال : «الذي يبيع العسل ويشتاريه» منهم أبو محمد بن موسى العسال النيسابوري (ص 135 ج 2).

الغزال : «الذي يبيع الغزال» منهم أبو بكر عبد الله بن سرحان الغزال (ص 170 ج 2).

القزاز : «الذي يبيع القز وعمله» منهم فرات القزاز (ص 260 ج 2).

القصابي : «الذي يبيع القصب» منهم أبو نصر مذكور بن سليمان القصابي المخزمي البغدادي (ص 266 ج 2).

القماح : «الذي يبيع القمح وهو الحنطة» منهم أبو الفضل العباس ابن أحمد بن سعيد بن مقاتل القماح المصري (ص2 ج 3).

القماصي : «الذي يبيع القمصان» منهم أبو الفتح الحسيني بن القاسم بن أبي سعد القماص النيسابوري (ص 2 ج 3).

القناد : «الذي يبيع القند وهو السكر» منهم حبيب القناد الصبري (ص 5 ج 3).

الكافوري : «الذي يبيع الكافور وهو نوع من الطيب» ومنهم أبو زكرياء يحيى بن عبد المالك بن أحمد بن شعيب الكافوري الحلبي (ص 22 ج 3).

الكرابيسي ، «الذي يبيع الكرابيس وهي الثياب» منهم أبو علي الحسيني بن علي الكرابيسي البغدادي (ص 32 ج 3).

اللباد ، «الذي يبيع اللبود وعملها وهي جمع لبد» منهم محمد بن إسحاق ابن نصير اللباد النيسابوري (ص 65 ج 3).

النخاس ، «الذي يبيع الجواري» منهم أبو الفتح عبد الله بن عبد الملك بن محمد بن سعيد النخاس الموصلي (ص 218 ج 3).

اللواز ، «الذي يبيع اللوز» منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الحسن اللواز المصري المعافري الدمياطي (ص 71 ج 3).

اللؤلؤي ، «الذي يبيع اللؤلؤ» منهم الإمام أبو سعد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن اللؤلؤي البصري (ص 72 ج 3)ح

المالحاني ، «الذي يبيع السمك المالح» منهم أبو محمد اسماعيل بن اسحق بن عبد الله بن راهب المالحاني الكوفي (ص 86 ج 3).

الماوردي ، «الذي يبيع الماورد يعمله» منهم أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الفقيه الشافعي البصري (ص 90 ج 3).

المخلطي ، «الذي يبيع المخلط من الفاكهة اليابسة من كل نوع» منهم أبو عبد الله أحمد بن الحسن بن أحمد الدباس المخلطي البغدادي الفقيه الحنبلي (ص 112 ج 3).

المسكي ، «الذي يبيع المسك» منهم أبو سعيد محمد بن هرون بن منصور المسكي النيسابوري (ص 138 ج 3).

المناديلي ، «الذي يبيع المناديل ونسجها» منهم محمد بن أحمد بن الحسن الحبري المناديلي (ص 179 ج 3).

الوشاء ، «الذي يبيع الوشي وهو نوع من الثياب المعمولة من الابرسيم» منهم أبو يزيد وتيمة بن موسى بن الفرات الوشاء الفارسي (ص 174 ج ، 3).

الياقوتي ، «الذي يبيع الياقوت وهو الجوهر المعروف» منهم أبو محمد الياقوتي (ص 303 ج 3).

التخصص المهني الصناعي :

الاجري ، «الذي يصنع الآجر» منهم أبو بكر محمد بن خالد بن يزيد الآجري (ص 113، ج 1).

الابرسيمي ، «الذي يعمل الابرسيم (أي الحرير) ويصنع الثياب منه ويبيعها ويشتغل بها» منهم أبو نصر أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن الابرسيمي (ص 18 ج 1).

الاسكاف ، «الذي يعمل اللوالك والشمشكات» منهم طريف الاسكاف الكوفي (ص 45 ج 1).

التنوري ، «الذي يعمل التنور ويبيعه» منهم أبو معاذ أحمد بن ابراهيم الجرجاني التنوري (ص 184 ج 1).

الثقاب ، «الذي يثقب اللؤلؤ» منهم ابن حمدون الثقاب البغدادي (ص 195 ج 1)

الجلاء ، «الذي يجلو الأشياء كالمرآة والسيف» منهم أبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء البغدادي (ص 259، ج 1).

الحداد ، «الذي يعمل الحديد ويبيعه» منهم أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر الكتاني الحداد (ص 282، ج 1).

الحذاء ، «الذي يعمل حذو النعل» منهم جابر الحذاء (ص 286 ج 1).

الحلواني ، «الذي يعمل الحلوى ويبيعها» منهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن نصر بن صالح الحلواني (ص 311، ج 1).

السراج ، «الذي يعمل السروج» منهم أبو العباس محمد بن اسحق ابن ابراهيم بن مهران بن عبد الله السراج الثقفي (ص 538 ج 1).

الصايغ الذي يعمل الصياغة» منهم أبو اسحق ابراهيم بن ميمون الصايغ المروزي (ص 48 ج 1).

الصباغ ، «الذي يصبغ الثياب» منهم أبو خريف يوسف بن ميمون الصباغ (ص 49 ج 2).

الصندوقي ، «الذي يعمل الصندوق» منهم أبو العباس أحمد بن أبي الحسين محمد بن أحمد بن اسحق بن عبد الله النيسابوري الصندوقي (ص 60 ج 2).

الصيقلي ، «الذي يصقل السيف والمرآة وغيرها» منهم أبو سهل نصر ابن علي أبي عبد الملك الصيقلي (ص 66 ج 2).

الطباع : «الذي يعمل السيوف» منهم أبو جعفر محمد بن عيسى الطباع البغدادي (ص 79 ج 2).

الطحان : «الذي يطحن الحب » منهم أبو الهيثم خالد بن عبد الله الطحان الواسطي (ص 82 ج 2).

الطرازي : «الذي يطرز الثياب» منهم أبو بكر محمد بن محمد بن أحمد بن عثمان بن أحمد المقري البغدادي الطرازي (ص 84 ج 2).

الطاسي : «الذي يعمل الطست» منهم أبو الفضل بن زياد الطاسي البغدادي (ص 87 ج 2).

الفاخراني : «الذي يعمل الفخار وهو الخزف» منهم حمة الفاخراني الهمداني (ص 187، ج 2). (يتبع)

فاس د. معن خليل عمر

المصادر

1) ابن الأثير «اللباب في تهذيب الانساب» مكتبة القدس، القاهرة ج 1 و 2 و 3 1356 هـ.
2) الفار علي، محمود اسلام «الانتروبولوجيا الاجتماعية» الهيئة المصرية العامة للكتاب - الاسكندرية ص 144 / 1978.
3) المصدر السابق ص 266.
4) المصدر السابق ص 110.
5) المصدر السابق ص 187.
6) المصدر السابق ص 435.
7) تاريخ العلامة ابن خلدون المجلد الأول : الطبعة الثانية مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت ص 235، 1961.
8) المصدر السابق ص 232.
9) المصدر السابق ص 230.

التطرف الفكري في حياتنا
دوافعه وعلاجه

د. محمد كمال شبانة

ماهية التطـــرف :

التطرف حركة باطنية نفسية أو عقلية، أو هما معا، بمعنى اقتناع النفس الإنسانية بعقيدة أو بفكرة إلى مستوى الفيض، وهو في حد ذاته نوع من العجز عن رؤية الجوانب الأخرى من الفكرة الواحدة، بحيث يتراءى للمتطرف أن الزاوية التي يرى منها هي الزاوية الوحيدة للنظر، وأن كافة ما سواها باطل، وهذا هو عين القصور في المنهج العلمي. وطبيعي أن هذا التفسير للتطرف إنما ينصرف إلى التطرف الأعمى الذي لا يستند إلى أسباب موضوعية أو منطقية سليمة تحدوها سلامة الهدف والغاية.

أما التطرف في حق مثلا فواجب أخلاقي وديني في آن واحد، وقد جنح محمد صلى الله عليه وسلم إلى التطرف في المواقف التي تستوجب ذلك «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه».

وعلى هذا يمكن القول بأن التطرف نوعان ، تطرف عليل. وآخر صحيح. فالأول هو الذي تغلب فيه الفكرة المتطرفة الوحيدة. وتشمل المجتمع. ويتبناها فريق. فيقتل بها كل ما عداها من أفكار. أما التطرف الصحيح فهو ذلك الذي يتصدى للفكرة المتطرفة الوحيدة. ويقوم الصراع بين الفكرتين المتطرفتين. بحيث يتولد عن هذا الصراع غالبا بروز الحقيقة مجسدة. على شكل فكرة ثالثة حديثة تظهر شامخة للعيان.

وهناك تعاريف أخرى للتطرف المجرد. كما يقال ، إن التطرف هو الإنحياز فوق المطلق لمذهب سياسي أو ديني. نتيجة اقتناع بشكل ومضمون هذا المذهب منهجا ودستورا في الحياة. دون غيره من المذاهب والإتجاهات الأخرى.

وعلى هذا فليس التطرف في الرأي إلا نوعا من العجز عن رؤية الجوانب الأخرى من الفكرة الواحدة. بحيث يخيل للمتطرف أن الجانب الذي يرى منه هو الجانب الوحيد للنظر. وأن كل ما سواه باطل.

سماتـــــه :

للتطرف الأعمى بالذات سمات خاصة. فهو عادة يكون رد فعل وليس فعلا قائما بذاته. كما أنه غالبا ما يكون نظرية مفرضة خالية من شرف الغاية. فهي حينئذ إما ستار لا خفاء عدم البصر بحقيقة الأشياء. أو وسيلة لتحقيق غايات سياسية معينة. أما كون التطرف الأعمى ستارا

لإخفاء الجهل بحقائق الأمور فيلاحظ مثل ذلك في بعض الأقطار الإسلامية التي لم تبلغ درجة مناسبة في معرفة حقيقة الدين الإسلامي وأصول التشريع فيه. بينما نرى ظاهرة التطرف هذه لا تكاد تنتشر في الدولة الإسلامية ذات الرسوخ في العلم بمقاصد الإسلام، وتفهم أحكامه كما ينبغي...

وأما كون التطرف هنا وسيلة لبلوغ أهداف سياسية. فإن المشاهد أن التطرف الأعمى في الدين أو السياسة أو النظام الإجتماعي أو الإقتصادي... غالبا ما يكون طريقا لنيل أهداف سياسية لأصحابه. بحيث يستغلون الجماهير ليصلوا بها إلى مراكز السلطة... فإذا ما وصلوا فعلا لأهدافهم هذه فإن التطرف يظل دستورهم، يحتفظون به شعارا للإبقاء على مكاسبهم، وفي المقابل فإن نفس التطرف الأعمى يبقى كذلك وسيلة خصومهم للتربص بهم متى واتت الفرصة. وما أكثر من يندفع من الشباب ليموتوا في معركة ليست معركتهم، فهل يحذر هؤلاء الشباب هذه الحيل التي يروج لها ذوو الأغراض وأصحاب الخلفيات ؟ وهل يذكر الشباب أن الدين ـ بادىء ذي بدء ـ إنما هو حب وسماحة وتقوى قبل كل شيء، وأن الوطنية ـ بعدئذ ـ عمل و بناء وتفان وتعاون...؟

التطرف والعنف :

لا ينبغي أن نخلط بين مفهوم التطرف ومفهوم العنف، فالأول ـ

كما ذكرنا ـ ظاهرة نفسية أو عقلية أو كلاهما. بينما العنف في غالب الأحيان ظاهرة مادية. وقد لا تكون نتيجة فكر أو مذهب. وإنما هي حركة تتولد عن فشل مسعى أو عدم تحقيقه. أو نتيجة نقمة على المجتمع لسبب أو لآخر...

والتطرف ناتج عن عقيدة أو فكرة. تبدو أول الأمر في أول توهجها. فتستحوذ استحواذا كاملا على النفس. بحيث لا تتصور العقلية شيئا سواها. فالإنسان في أول أطوار إيمانه يمثل الطفل الذي لا يستطيع أن يفارق أحضان أمه. أو كالعاشق الولهان الذي لا يرى إلا صورة معشوقته. ولا يسمع إلا صوتها. ولا يشم إلا عبيرها. فهي ـ في نظره وحده ـ المثل الأعلى جمالا وكمالا وربما عقلا... فيستولى على فكره وعقله وقلبه. ولهذا صدق قول بعضهم : «إن الإيمان هو جنون العقلاء. يستبد بهم. فينسون الأهل والصحاب. والمشاق والصعاب. ولا يقبلون لومة لائم». حقا ما أكثر من يندفع من الشباب الذين يجتاحهم الوهم. ويسيطر عليهم الخيال. ويصابون بما يمكن أن نسميه «الحول الفكري» الذي يقود صاحبه إلى التطرف الممقوت. والذي يصاحبه العنف في سبيل تأييد تلك الأفكار المضللة. فهل يحذر شباب الإسلام أمثال هؤلاء وأولئك الضالين المضللين ؟ وهل يذكر شبابنا في وعي وذكاء أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن سفاحا ولا قاتلا ولا مخربا. كما أنه لم يكن يوما ليشعل الحرائق أو يغتال الآمنين ؟ إنما كان يدا خضراء. ولسان صدق ومحبه.

ودعوته إلى مبادئه كانت بالحكمة والموعظة الحسنة كما أرشده ربه إلى ذلك. إن التوسط في شتى أمور الحياة مطلب تمليه النفوس السوية. ويتحراه أصحاب العقول الراجحة. إذ الملاحظ دائما أن معظم عيوبنا الإجتماعية التي نشكو منها إنما هي نتيجة حتمية للمغالاة في أمور لو عولجت بقصد واعتدال لتحولت إلى فضائل بذاتها. ولكن المغالاة فيها سرعان ما تقلبها إلى نقائص. وتنطبق هذه النظرية على مناحي شتى في الحياة الإنسانية. في المعيشة. والنسل. والأفراح. والأحزان. والحدة. واللين. والحب. وما إلى ذلك...

دوافع التطـــــرف :

لا شك أن العصر الحديث عصر المتناقضات. وفي قمة ذلك ما نراه من التحضر من جهة. والبربرية من جهة أخرى. ولنأخذ مثالا وهو «التكنولوجيا». فقد أعطت للإنسان المعاصر حياة أفضل. ولكن في الوقت نفسه اشتملت بين طياتها على البربرية المدمرة لهذه الحياة. فانتفت صفة السعادة حينئذ. وتسرب القلق والتخوف إلى العقل الحديث. وبإمكان القلق أن يدفع صاحبه إلى التطرف. وحيث يتسنى لنا تفسير الدوافع التي حدت بالطلبة والشباب في أوربا إلى الثورة على الأوضاع السائدة لديهم. والإتجاه للتطرف في الدين.

إن ما تشكو منه الأقطار العربية والإسلامية من موجات التطرف التي أضحت تغمر مجتمعاتها بين حين وآخر... إنما ترجع إلى هوى في النفوس، ورغبة في لفت الأنظار إليها.

كما يمكن أن تكون دوافع التطرف راجعة إلى سوء الفهم لمجريات الأمور في مرافق الدولة، أو تعبيرا عن اتجاهات خفية، تحركها أيد خفية ذات أغراض.... وجميع هذه الدوافع بألوانها إنما هي أخطار محدقة بالعالم العربي والإسلامي، بحيث تهدد سلامته وأمنه. فالحماس لدى الشباب وتطرفه يؤدى به إلى الانزلاق وراء المذاهب التي لا تتفق وواقعنا الإسلامي، كما أن الغلاة والمتطرفين يتلقفون هذا الشباب لمآربهم المذهبية وأهدافهم السياسية، وليست هناك بيئة أشد ظلاما من البيئة التي يعيشها الشباب المتطرف، وإن وجود أمثال هؤلاء في تنظيمات سرية يزاولون من خلالها أفكارا غير شرعية أو سوية.. إنما يؤدى ذلك إلى تغلغل أفكارها لدى الشباب الجديد، دون أن يتسنى للمجتمع أن يناقش تلك الأفكار، ليستخلص منها الطيب وينبذ الخبيث، ولكن لو سألت نفسك أيها الشاب المؤمن هذا السؤال :

من أين يأتينا التطرف العميق عموما وديننا منه براء ؟ لكان الجواب في بساطة ويسر : أن التطرف السائد بيننا الآن ما هو إلا ظاهرة سببها الرئيسي قلة الثقافة، والفراغ الفكري لدى معظم الشباب اليوم.

أما التطرف الديني فما أحسبنا نختلف في أن الغيرة على الإسلام أمر واجب، ولكن الانحراف به إلى التزمت والتصلب هو الذي يدعو إلى الغرابة، لأن معجزة القرآن الكريم ـ وهو عنوان الإسلام ـ تجعله مسايرا لكل عصر، موائما لكل جنس...

وعلى هذا، نستطيع أن نخلص إلى تشخيص داء التطرف عموما لدى الشباب، فنرجع تلك الظاهرة لديه إلى حرمانه من الثقافة الحقة والتربية الأصيلة، دينيا واجتماعيا وأخلاقيا وسلوكيا، أما ما تلقنه هذا الشباب من ثقافة، أو تزود به من زاد ديني، فإنما كان في قوالب جامدة، يعوزها المضمون العلمي المنهجي، الذي يساعد على تكوين الشخصية، ويضمن له الحصانة والمناعة ضد التيارات الفكرية الوافدة.

من زاوية أخرى إذا نظرنا إلى التطرف كظاهرة موضوعية تقاس بالأرقام ـ كما هي وجهة نظر الرياضيين ـ فسيتبين لنا في كافة أنشطة الحياة أن هناك علاقة رياضية واضحة بين مظاهر التطرف في الأمور الدنيوية وبين التطرف الفكري، بمعنى أن الأخير وليد الأول، فإذا استهدف المفكرون علاج ظاهرة التطرف الفكري بين مجتمعاتهم فعليهم أن يبادروا أولا بدراسة مدى التطرف في المجالات المعيشية والاحتياجات الأساسية للإنسان كالتعليم والإسكان والدخول، إذ كلما تقاربت المسافات بين المستويات الدنيا والعليا قلت أو تلاشت حدة

التطرف الفكري، وهذه إحدى القضايا التي تتبناها هيئة الأمم المتحدة وخاصة في محيط الدول النامية.

التطرف في نظر الفلاسفـة :

يرى بعض علماء الفلسفة أن التطرف إنما هو نتاج المعتقدات الغامضة، أو الأفكار غير الواضحة، تلك التي تسيطر على الإنسان، وتملك عليه حواسه ومشاعره، لدرجة تصل به إلى حد أن يقاتل دونها وفي سبيلها دون أن يستطيع تحديد معناها. والتطرف في الرأي إن هو إلا نوع من العجز عن رؤية الجوانب الأخرى من الفكرة الواحدة، بحيث يظن المتطرف أن الزاوية التي يرى منها هي الزاوية الوحيدة للنظر، وأن كل ما عداها باطل... على نحو ما قدمنا في بداية الحديث.

والتطرف بالمعنى المجرد للكلمة ليس بالضرورة أن يكون شرا، كما أن التعصب والتحيز ليسا كذلك بالضرورة من الأمور السيئة، وعليه فالنسبية واردة في هذا المجال دون شك.

فالتعصب كما قلنا للحق واجب أخلاقي، كما أن المرء منا بوعى منه أو بغير وعي يتحيز في الممارسة اليومية لفكرة أو لشيء أو لشخص، بغير أن يكون في ذلك أي غضاضة أو ضرر، ولكن الضرر يقوم، والشر يصبح واردا إذا ما كان التعصب أو التحيز أعمى، وإذا ما استشرى ذلك واستفحل بين الناس فتلك إذن رذيلة ومشكلة حقيقية تواجه أي مجتمع.

وينبغي عليه مواجهتها. على أن هذا لا يمنع القول بأن بعض الفلاسفة أنفسهم كانوا متطرفين بأفكارهم ونظرياتهم. وقد لاقوا في سبيلها ما لاقوا من العنت والإرهاق. حيث كانت مجتمعاتهم يومئذ لا تستسيغ مثل هذه الآراء. تبعا لعدم النضوج الفكري للمجتمع لدرجة ترقى به إلى إدراك وهضم تلك المذاهب وما إليها. والتي كانت فيما بعد دستورا ومبادىء لأجيال أتت من بعد. وهكذا كان هؤلاء الفلاسفة سابقين بأفكارهم لعصورهم. الأمر الذي يدعونا إلى العودة بالقول بأن النسبية في التطرف بألوانه تلعب دورها زمانا ومكانا و بيئة...

على أن أهل المنطق لا يرون في المسائل العلمية تطرفا. بمعنى أن التطرف لا وجود له في مجال العلوم. ولكنه يوجد في المعاني والمعتقدات الغامضة سياسية كانت أو اقتصادية أو دينية. وكل هذه الأمور عرضة للغموض أو هو يكتنفها. فالواجب يقتضى ذوي الإختصاص أن يسلطوا الأضواء على الحقائق بمنهج علمي. من شأنه أن يبسطها ويزيل الضباب من آفاقها...

التطرف وعلماء الاجتمـــاع :

ظاهرة التطرف كغيرها من الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين المجتمع. بمعنى أنه أساس قبولها أو عدمه. ومرجعها ما اتفق عليه المجتمع حيال ما انطوت عليه الظاهرة واصطلح عليها قانونه. فإن رأى

فيها ما يساير أوضاعه تقبلها. وبالتالي اتخذت مسارها الطبيعي، وإلا فإنه ينبذها. وتتكاتف أجهزته في الفضاء عليها. ربما في مهدها. وأحيانا بعد فترة قد تطول وقد تقصر.

والعلماء ـ بعد هذا ـ يتفقون على أن ظاهرة التطرف في أي موقف من المواقف اتجاه اجتماعي، قد لا يخلو منه مجتمع ما. والناس دائما بين معتدل ومتطرف. والفصل بين هذين الموقفين يرجع إلى الرأي العام. فالمجتمعات المستنيرة تستطيع أن توازن بين الآراء المختلفة متطرفة كانت أو معتدلة. وكثيرا ما تظهر فيها آراء غريبة. ثم لا تلبث أن تموت لأن الرأي العام لم يتقبلها ولم يفتح لها المجال.

وعلى هذا فالرأي العام في أي مجتمع هو الذي يعول عليه حيال ظاهرة ما. ولكي نحتكم إليه فلا بد له من تكوين خاص ومبادىء معينة يسير عليها ويعتقد بها. فكل ما يخالف هذه المعتقدات أو يحيد عنها يمينا أو يسارا من الأفكار مقضى عليه بالزوال أو التقلص. ولما كانت ظواهر التطرف متنوعة. إذ هناك التطرف السياسي والتطرف الاقتصادي والتطرف الديني وغير ذلك... نقول لما كانت هذه الظواهر من التطرف ألوانا فإن العبرة في الموقف منها هو أن يكون المجتمع مسلحا بوضوح الرؤية. راسخ القدم في مبادئه..

لقد دار حديث بين الأستاذ الدكتور ابراهيم بيومي مدكور الأمين العام لمجمع اللغة العربية بمصر وبين مفكر أمريكي كبير. وذلك حول

تباين الأحزاب السياسية في الولايات المتحدة وتعارضها. فكان جواب الامريكي في هذا الصدد قوله ،

«لا تخف على المجتمع الأمريكي بأسا. لأن فيه رأيا عاما مستنيرا».

ونحن كأمة إسلامية شرقا وغربا هل نتوفر على مثل هذا المعيار الذي هو صمام الأمن تجاه ظواهر التطرف بأنواعها ؟

الحق أن الحرية في ظل القانون عندما تغيب أو تغرب فلا بد أن يساعد هذا على نمو الحق. والميل إلى العنف. وازدهار الفردية. والبعد عن روح الجماعة وجو العائلة. لقد أصبح كل إنسان في معظم مجتمعاتنا الاسلامية يعيش ليومه لا لغده. لأنه لا يطمئن إلى ما يأتي به الغد. وهذا شر ما تبتلى به الأمم.

هل سمعتم عن اعتناق للعنف للقفز على مراكز السلطة والقيادة لدى انجلترا مثلا أو الولايات المتحدة أو شمال أوربا ؟ بالطبع ، لا. بينما لا نتوقف عن تلقي أنباء المظاهرات العنيفة. واقتحام السفارات وأساليب اغتيال الخصوم وخطف الأبرياء لمطالب سياسية. وذلك في معظم دول افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. لدرجة أن أصبح الناس لا يلقون بالا لمثل هذه الأنباء. وربما كانت هذه الحركات لدى بعض تلك الأقطار هي القاعدة والاعتدال والانسجام هو الشذوذ ! !

إن مثل هذا التطرف السياسي المصحوب بالعنف إنما هو في نظر علماء الاجتماع لا يخرج عن كونه تجمع مصلحي. يحاول أن يجمع المتحمسين على فكر منحرف. لا يتسم بمبدأ سليم وغير ذي حرمة البتة. ينطلق من قاعدة «الغاية تبرر الوسيلة». وقد دلت التجارب على أن هذا النوع من التطرف لا علاج له إلا تشريعات حازمة. تكفل المعاني الأساسية لممارسة العمل السياسي. وفي إطار يكفل للمجتمع الأمان والاستقرار وحرية الافراد.

التطرف في نظر الاســــــلام :

لا جدال في أن الأديان السماوية عامة قد اتسمت في دعوتها باللين والحكمة. فهي لا تقر بحال أساليب الغلو والتطرف في الأفكار أيا كانت. والأنبياء عموما كانت دعوتهم الناس إلى اتباع الدين ذات صبغة هينة لينة. إيمانا من الرسل بأن الطبائع البشرية قد جبلت على النفور من أساليب القوة والعنف. لا سيما إذا كانت الفكرة لا عهد للمجتمع بها من قبل. وكان الناس على دين آبائهم وملوكهم...

ونأتي إلى الدين الاسلامي فنجد لديه الأسس الضرورية للوقاية من خطر التطرف. تبعا لبديهية ، الوقاية خير من العلاج. فالقرآن الكريم قد اشتمل على عدة آيات في مواقف شتى تنهى عن الغلو والاسراف في أمور الدين والدنيا. فعلى سبيل المثال لا الحصر نهى الله تعالى أهل الكتاب

عن الغلو في الدين. فقال : «لا تغلو في دينكم. ولا تقولوا على الله إلا الحق». كما نهى القرآن عن الغلو في تقديس الناس من الحكام أو غيرهم، واتخاذهم أربابا من دون الله. فما بالنا والتقديس بين كثير من المسلمين في شتى الأقطار الاسلامية قد شمل الأموات. حيث الأضرحة والقباب شرقا وغربا ؟ ومن المواقف الحازمة للإسلام حيال المغالاة أيضا نهي القرآن الناس عن الغلو في الانفاق أو في الحرص على المال «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط. فتقعد ملوما محسورا». كذلك نهى الله عباده عن تجاوز الحد في القصاص. حيث جعل لولى الدم حق القصاص. ولكن نهاه عن الاسراف في استيفائه بقوله تعالى. «ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل». وعلى هذا المنوال كان سلوك الرسول. فقد روى عنه في هذا الصدد قوله : «إن هذا الدين متين. فأوغل فيه برفق. فإن المنبت لا أرضا قطع. ولا ظهرا أبقى» وهذا يتمشى مع القاعدة النفسية التي تقرر أن القليل المتصل خير من الكثير المنقطع. وبذلك لا يفوت الهدف من العبادة وهو الاستمرار. ولا يكون ذلك إلا بالاعتدال.

لقد هم نفر من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بترك طيبات ما أحل الله لهم. زهدا في الدنيا وطلبا للآخرة. بعد أن توجه ثلاثة منهم إلى منزل الرسول. حيث استفسروا من زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها عن عبادته السرية. فلما أخبرتهم بها استقلوا ـ بطبيعة الحال ـ ما هم

عليه من عبادة لا تذكر في جانب ما يقوم به النبي نحو خالقه صلاة وصياما وقياما. فما كان من أحدهم إلا أن نذر أن يصوم الدهر كله. وأما ثانيهما فقد أصر على ألا يصلي إلا في الشمس. أو يظل راكعا ساجدا طوال الليل. وأما ثالثهما فقد التزم بالا يقرب النساء. فما كان من المصطفى (عليه الصلاة والسلام) إلا أن ينبههم إلى خطئهم ومغالاتهم في هذه الاتجاهات. وذكر لهم أنه شخصيا يصوم ويفطر. ويقوم الليل وينام. ويتزوج النساء. وهو من هو في درجته عند ربه... محذرا في النهاية من يحيد عن ذلك بقوله : «فمن رغب عن سنتى فليس مني». وحتى في جانب المعاملات نجده ينهي عن الغلو. فقد أشار على من أراد أن يتصدق بجميع ماله أن يتصدق بالثلث. وأردف قائلا : «والثلث كثير» وهكذا نرى شعار ديننا القصد والاعتدال في كافة الأمور. سواء منها ما كانت له علاقة بين الانسان وخالقة. أو كانت بين الناس بعضهم البعض. وعلى هذا المنوال كانت المسيرة للرسول وصحابته. لا غلو ولا تفريط ولا إفراط. حتى كان آخر عهد سيدنا عثمان ثالث الخلفاء الراشدين. وحيث اعتنقت التطرف طائفة من الناس. متسترين خلف قاعدتي العدل والشورى المقررتين في الاسلام أساسا. فهؤلاء والذين أخذوا على الخليفة ايثاره لبعض ذوي قرابته بمال او ولاية تغالوا في ذلك. وتطرفوا في محاسبته. وأدى بهم الأمر إلى أن استحلوا قتل الامام الشهيد. مجافين بما أتوا أحكام الشريعة السمحاء. ولم يشفع لديهم ما وعدهم به الخليفة من

بحث لمظالمهم. كما روى أبي قتيبة في كتابه «الامامة والسياسة».

وهكذا عرفت الساحة الاسلامية منذ ذلك العهد ظاهرة التطرف. وتدرجت في النمو بفعل الأهواء والعنصرية في الخلاف بين علي ومعاوية. وظهرت فئة الخوارج الذين كان ظاهرهم العبادة وباطنهم تشدد مقيت. وكان الدين منهم براء. وإلا فبم نفسر موقفا من مواقفهم على سبيل المثال. فقد روى أن جماعة منهم لقيت الصحابي ضباب بن الأرت فأمنوه. ثم سألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر وعلي. فلما لم يعجبه تطرفهم ونأى عنه في جوابه قتلوه أمام امرأته. ثم قتلوها هي الأخرى. وهي في اتم شهور الحمل !

ويجرنا حديث المغالاة في الدين من طرف الخوارج إلى الإشارة إلى بعض معتقدات طوائف الشيعة. وهم يتبارون كذلك في التطرف الديني. ولعل من ملامحهم في هذا إصرارهم في ميدان العبادة مثلا على أن يردف المؤذن بعد قوله وان محمدا رسول الله.. أن يجهر أيضا بقوله «وأن عليا ولي الله» وطبيعي أن شيئا من هذا لم يعرفه الأذان الشرعي. كما أنهم دأبوا على استصحاب الحصى من حول مقام الامام علي وأنجاله. حيث تلامسه جباههم عند الركوع والسجود في الصلاة. وما نحسب مثل هذه الطقوس إلا وثنية جاهلية. وفي اجتماعيات الشيعة أنماط أخرى من التشدد الذي لا معنى له. بل يحمل في طياته الإساءة غير المباشرة للصحابة ومن في مستواهم مقاما. وذلك كشيوع عدم تسمية

المولود بواحد من أسماء ، أبي بكر الصديق أو عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان، ولا مولودة باسم السيدة عائشة، وكل هذه طبعا رواسب دينية ذات جذور تاريخية أملتها المنصرية، وغذاها التشيع، ومع كونها تطرفا لا يقره الإسلام البتة فهي تشويه للدين وسماحته، الأمر الذي يفتح مزيدا من الطعن في ملتنا من لدن بعض المستشرقين.

ما هو التديـــــن ؟

لا شك أن الدين هو الجانب الحيوي والفعال من جوانب التربية الشاملة للافراد والشعوب، وتتجلى حقيقة الدين في قيمه المقننة أخلاقيا واقتصاديا واجتماعيا، تلك القيم التي تعطي للحياة معني ودرجة من حيث علاقتها بالخالق سبحانه.

هذا، وإن الإنسان ليعتبر في مركز المسئولية الدينية عندما ينفذ ويقرر ويحكم على ألوان السلوك في ضوء هذا التكييف للدين، والإحساس بالحساب نحو الله أساس التدين الحق، أما الإنسان غير المتدين فهو الذي يغلب المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وهو الذي لا يعير القيم الدينية التفاتا، كذلك يفقد الدين جوهره إذا ما أصبح في حياتنا العامة على هامشها، ولا يبقى لنا منه سوى الرسوم والطقوس والتشريعات الشكلية، فيصير غاية في حد ذاته مع أن المفروض فيه أن يكون وسيلة بمواده وأحكامه لسعادة الإنسان في الدارين..

«وهكذا ندرك أن الوظيفة الخاصة المتميزة للدين تتجلى في أنه يخلق نوعاً من المواجهة بين السلوك الفعلي وبين القيم الأصيلة. ومن خلال إعادة وتصحيح المواقف نرى الدين يمد الإنسان بما هو «ثابت» في صميم الواقع المتغير. وبالباقي في غضون الحائل الفاني. وبالهادي المكين في معترك الصاخب المتزعزع. ومن هنا كان الغذاء الديني الصالح هو المادة الوحيدة التي تكفل ثبات النفس وأمنها واستقرارها وطمأنينتها. وصدق الله العظيم حيث يقول : «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» .

التطرف الديني :

كنا قد ألمحنا من خلال هذا البحث إلى أن التطرف في الدين في جانب الحق لا ينازع فيه اثنان. وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسئولية كل مسلم قدر الاستطاعة. تبعا للحديث المشهور «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده... الخ» الحديث. وان حفاظ المسئولية هو أهلية التكليف. من هذا قوله «ص» : «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته.. الخ» الحديث. وقد أفاضت المؤلفات الفقهية وأسهبت في هذه المجالات واشباهها.... والحلال بين والحرام بين. وحقا توجد بينها الشبهات. والمؤمن العاقل هو من يتقيها درءا للمفاسد..

أما التطرف الديني لذاته فهذا هو محل الملاحظة والاستنكار. وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على الجهل بأحكام الدين والشرع. أو كرد فعل اجتماعي، وفي هذا المجال نلمس المسئولية مشتركة بين الأسرة والمؤسسات التعليمية وجهات الاختصاص في الدول. وذلك تجاه الناشئة والشباب. بحيث ينبغي أن يعمل هؤلاء وأولئك في اتجاه متواز جنبا إلى جنب. حماية لأبنائنا من السقوط في شباك التطرف. حيث يعسر العلاج. ويعز الشفاء.

إن أفضل الوسائل للوقايةُ من التطرف الديني هو أن يتوفر الإرشاد لأحكام الشريعة من لدن رجال الجامعات الغيورين على شباب الأمة. فينزلوا بكل ثقلهم بالتنسيق مع كبار رجال الدين والمسئولين عن الدعوة. بين الجماهير وعلى منابر الجامعات. وان تفسح الدولة لهؤلاء المرشدين في أجهزة الاعلام بأنواعها. كما يأخذوا بأيدي الجماعات الدينية التي تتكون من أجل أهداف سامية. فلا شك أن هذه التكتلات الإسلامية ستشعر بمساهمة المسئولين عن الإرشاد الديني في الدولة بنشاطهم وقربهم منهم. ورعايتهم لهم. وهكذا سوف لا يكون حينئذ مجال للانحراف أو التطرف الممقوت. إذ من المسلم به أن الإنسان متى أحاط علما وبقدر واف بأحكام الشرع فإنه سوف لا يلجأ إلى التعدي على حقوق الآخرين في العرض أو البدن أو المال. كما أنه سيتسلح بفضيلة التسامح. ويتحلى بأسلوب الحكمة في الدعوة إلى سبيل الحق والإيمان.

إنه لا خلاف في أنه ينبغي لنا كأمة إسلامية لها أصالتها ومقوماتها أن نأخذ من تلك الحضارات الوافدة ما يوائم ويساير أصولنا ومقومات ديننا. وبما لا يحدث تخلخلا في مجتمعاتنا. أو يصبح طفرة لا تتسنى استساغتها. وهنا ينبغي للدولة أن تتدخل بالقدر الذي يصحح مسار الفكر الإسلامي. وأن تدافع عن أسسه نصا وروحا. حتى نضمن أن يكون شبابنا بمنأى عن كافة القوى الخفية التي تدفعه بالأفكار المستوردة الهدامة. وحيث تتخذ من هذا الشباب البرىء وسيلة لبلوغ أهداف سياسية أو اقتصادية. خاصة وأن تلك الأيدي التي تلعب بأفكار أبناء الأمة في الظلام غالبا ما تكون عميلة لقوى أجنبية عن مجتمعاتنا. الأمر الذي يوجب في هذه الحالة على المسئولين القيام بالتشريعات الحازمة. مع صياغة الضوابط التي تحكم وتنظم العمل السياسي. بحيث تبقى السيادة للقانون.

كذلك فإنه على المؤسسات التعليمية أن تراجع حساباتها تجاه المؤلفات الدراسية الخاصة بالتربية الدينية. والتي تخلو في معظمها من المضمون الفعلي الإيجابي الحركي الذي يشكل الشخصية. والتي تكاد تتفق ـ فيما اشتملت عليه ـ على أن المادة فيها وسيلة وغاية نهائية في آن واحد. بحيث كانت الثقافة والتربية التي أتيحت للطلاب والشباب بهذا الأسلوب خالية تماما من دعامتين هامتين في حياة الأمة. أولى

الدعامتين كنه الدين وعلاقته بالتجارب الفعلية. والأخرى تتعلق بطبيعة وأهداف التربية ذاتها.

وليست بعض المؤلفات في مادة الفلسفة في دور التربية بأقل خطرا من المؤلفات الدينية. إن لم تكن أكثر. فعلى ذوي الإختصاص من رجال التعليم ومن مواقع مسئولياتهم أن يتنبهوا للخطر الداهم من وراء هذه الأفكار التي تتضمنها تلك المؤلفات الفلسفية. والتي هي في حاجة إلى غربلة دقيقة. بمعرفة ذوي الغيرة على مستقبل شباب أمتنا الإسلامية. وان ذلك ليستتبع ـ بطبيعة الحال ـ انتقاء العناصر الوطنية التي تطمئن لها في التصدي لتدريس تلك المواد. والتي يتوقف عليها بناء الناشئة والشباب. ضمانا لمستقبل أسعد وغد أفضل...

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

تطوان **د. محمد كمال شبانة**

الإعلام الثقافي

نص الخطاب الذي ألقاه الأستاذ الكبير السيد الحاج محمد أباحنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية في الحفل الافتتاحي لاجتماع المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب بالرباط .

26 - 28 ماي 1981

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخ الأمين العام

حضرة السيدات والسادة

تقضي العادات الجارية المرعية، في المناسبات الشبيهة بمناسبتنا هذه، بأن يتولى المتكلم باسم البلد المضيف، الإعراب في خطابه عن سرور بلده بحلول زائريه، وعن ترحيبه الحار بوفادتهم في كلمات تقل أو تكثر، وعبارات تطول أو تقصر. وإني لأسائل نفسي، وأنا أحاول من هذه التحية ما أحاول، هل تحتم الضرورة اليوم، التزام ما

تواضع الناس عليه من سنن مألوف وعرف متداول معروف. أم هل يبيح لي ما بيننا و بين ضيوفنا الأعزاء من صلات وثيقة أن أتحلل غير ءاثم، وأمضي غير معرج على عادة سائدة ولا واقف عند رسم مستفاض، و ينتهي بي مطاف السؤال الخاطر. إلى الجواب بأن ليس في الأمر ما يدعو إلى التردد ولا ما يوقع في الحيرة. ذلك أن ما بيننا و بين الإخوة أعضاء المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب، من وشائج الإخاء وأواصر التصافي، وروابط الثقافة، وموات الرحم والنسب، خليق بأن يعفي النفس الواحدة في الأجساد المتفرقة من الكلفة والمؤونة.

وان إخوة يداخلهم شعور التواصل المتجلي في قول الشاعر ،

فإن تدعي نجدا أدعه ومن به   وإن تسكني نجدا فيما حبذا نجد

أو شعور التضامن النابض في قول الآخر ،

وإني وا ياه لعين وأختها   وإني وا ياه لكف ومعصم

لإخوة ليس للكلفة ولا للمؤونة بينهم مجال. ولهذا فإنني أقول للأشقاء بالبساطة التي يستغني بها الأحباب الخلصاء عن كل تحسين أو احتفال ، هنيئا لنا بمقدمكم ومرحبا بكم في هذا البلد الذي يستقبلكم بأفئدة ملؤها المسرة والاعتزاز.

وان هذه المسرة وهذا الاعتزاز إن كانا نابعين من حلولكم بالمغرب. كأفراد تصلنا بهم أمتن الصلات وأقواها. فإنهما إلى هذا. نابعان

من اختياركم لوطننا مقرا لاجتماعكم الحالي، ومن استقرار عزمكم على تنظيم ندوة في رحاب هذه الأرض، تخصون بها بعد عام واحد، علما من أعلام التاريخ يتبوأ من قلوب المغاربة أجمعين ومن قلوب العرب والمسلمين أكرم متبوإ وأعز مقام.

وهذا الرجل الذي اتخذتم حياته وجهاده موضوعا لندوتكم المقبلة إن هو إلا ملك هذه البلاد الراحل جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه. لقد كان هذا الملك البطل طوال حياته تجسيدا لتطلع شعبه ومطامح شعبه، ومثالا يعز نظيره بين القادة والزعماء، للنضال المرير، والكفاح المستميت، والجهاد الذي لا يعتريه انقطاع، والصبر الذي لا يفت فيه وهن، والتضحية التي ترتفع إلى الأوج الأعلى والذروة المثلى. وان ملكا توافرت له هذه الفضائل وتضافرت في شخصه هذه المزايا، لابدع أن يسير هو وشعبه على جدد المحبة المتقاسمة، والهيام المتبادل وأن يكون من ءاثار إيمانهما المشترك، وعزمهما الوطيد، وإصرارهما الثابت الممتد على مدى أعوام وأحقاب، أن يتحقق النصر المؤمل وتتحرك شعوب وقارات متطلعة إلى بلوغ ما استبان لها على نور الجهاد المثمر، من أهداف وغايات.

ولا غرابة أن يستهويكم من مواضيع التاريخ، موضوع خصب كهذا الموضوع وتتصباكم في هذا الوقت الذي تواجه فيه الأمة العربية فاحش التحديات ومنكرها، قيم بطولية وأعلاق حضارية ومثل عليا وأنتم

المؤرخون الوارثون لتراث تاريخي حافل ثري، يتألق بأسماء رجال أكابر كالطبري والمسعودي وابن حيان وابن الأثير وابن كثير والمقريزي وابن خلدون، وابن الخطيب، وغيرهم ممن أوغلوا في الأحداث والمجتمعات تنقيبا والتماسا، واستنباطا واستخراجا.

إننا وإياكم، ننتمي إلى أمة حاش لها أن توصف بالخمول، أو تنعت بالقصور والتقصير، وان عرتها أزمات، ونابتها نوائب وخطوب، فقد كانت أمتنا وما زالت بحمد الله، قادرة على الانتفاض، مالكة لأسباب النماء وذرائع الازدهار، جياشة بالكفايات والأفكار، وإذا كان الاستعمار البارز في أشنع وأفظع صوره ما زال منشبا مخالبه في جسمها الذي يقاوم ويلتمس طريق النقه والشفاء من الداء الوبيل، فإن الدور الذي يضطلع به أبناء هذه الأمة والمؤرخون منهم بصورة خاصة، دور ليس شأنه في المعركة المفروضة علينا بالشأن القميء ولا الضئيل، ان الأحداث التي تتلاحق في بعض أقطار العروبة والإسلام، يتناولها مؤرخو الاستعمار، ودعاة السيطرة الجامحة، والهيمنة الكاسحة، ولا يلتزمون وهم يتناولونها، بغير ما تمليه الأغراض وتوجهه الشهوات، فالمؤرخون المشارقة والمغاربة، مدعوون من أجل هذا الزيغ، إلى الأخذ بنصيبهم في هذه المعركة الضارية، وذلك بتقويم الاعوجاج وتصحيح ما ليس بصحيح، وتصوير الحقيقة مجردة من كل تحريف أو تزييف.

حضرة الأخ الأمين العام

حضـرات السيـدات والسـادة

اهتماما بالتاريخ، واعتناء بهذا النحو من الممارسة الفكرية، على رغم ما أفاض فيه المفكر الفرنسي الشاعر الكبير پول ڤاليري، تعتزم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، انطلاقا من التوجيه السامي لصاحب الجلالة الحسن الثاني راعي الثقافة والمثقفين أطال الله بقاءه، تنظيم ندوة خلال فصل الخريف المقبل إن شاء الله، تدور أعمال المشاركين فيها حول التاريخ في الأندلس عامة والمؤرخ الأندلسي البارع المبدع ابن حيان خاصة.

هذا وإني أخشى وقد استغرقت من الوقت أكثر مما كان يجب لهذه الكلمة، أن أكون قد أطلت عليكم دون الافضاء إليكم بطائل، وإني لأرجو لهذه الكلمة التي كنت أريدها وجيزة أن تبسطوا لها جميل عذركم وتتقبلوها، مغضين عن سيئاتها، تحية تقدير لكم وإكبار.

وفقكم الله ورعاكم.

والسلام عليكم ورحمة الله

محمد باحنيني

نص الخطاب الذي ألقاه الأستاذ الكبير الأديب المبدع السيد الحاج محمد اباحنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية في الاجتماع الأول لأعضاء اللجنة الوطنية للثقافة بتاريخ 27 شعبان 1401 (30 يونيه 1981)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة

هذه أمنية من أعز الأماني كثيرا ما أطافت بأرجاء النفس، ورغيبة من أحب الرغائب طالما حركت العزيمة، واستنهضت الهمة، واستحثت المسعى. والآن وقد تحقق أمل مقيم من ءامال هذه الوزارة، فإني أحمد الله لي ولكم على ما قضى من سؤل وأتم من نعمة.

لقد سعيت طيلة سنين قصد ائتلاف مجلسكم هذا واتساقه، ليقيني بأن العمل الثقافي أيا ما كان مراد انطلاقه ومسيره لا يستغني عن إرادات متناصرة وجهود متضافرة، وما كل سعي بخائب وما كل جهد بضائع، وحسب العامل أن ينبعث في عمله من نية صادقة خالصة، وعزم أكيد وطيد، ليؤتي مسماه المستطاب من الثمار، ويفضي إلى المحبوب من النتائج والآثار.

ولو تيسر، حضرات السادة، انعقاد اجتماعكم هذا قبل اليوم، ولو كان من أسباب المساندة والتعزيز لوزارة الثقافة منذ سنين مثل ما يتوافر لها بفضل مجلسكم ابتداء من لحظتنا هذه، لو تيسر هذا في الأوان المؤمل والظرف المنشود، لسهل على الكاهل حمل أعباء هذه الوزارة، ولجرت مغالبة الصعاب، ومصاولة المشاكل، بعتاد عتيد، وعدد عديد، ولقطعت أشواط أكثر بعدا، وطويت مراحل بنفس أطول، وفي زمن أوجز وأقصر، ولاكن المسؤول عن هذه الوزارة لا قى منذ قيامه بأمرها من العقبات، وواجه من المشاكل، ضروبا تصدى لتذليلها وحلها وهو أعزل إلا من سلاح إيمانه وإيمان الزمرة القليلة من مساعديه بأن الثقافة يجب أن تنتشر في هذه البلاد وتزدهر، وبأن المواطنين كافة، أفرادا وجماعات، أحرياء بأن يتدرجوا من حال إلى حال في مدارج التطور والارتقاء بفضل ما تحدثه الثقافة في القلوب والعقول، ويتنقلوا ظافرين بحصيلة تتلوها حصائل، وبمكسب يضاف إلى مكاسب حتى ينتهوا في آخر المطاف إلى تكوين مجتمع قادر على أن يضطلع بين الأمم والشعوب بخير ما تضطلع به المجتمعات لفائدتها الخاصة، وفائدة الإنسان حيثما وجد من مكان أو زمان.

ولن يخامرني الشعور بعد اليوم، بأنني أخوض معركة الثقافة بعدد من الكفاة قليل، وهي معركة كما تعلمون هادئة وقور رزان في بعض الأحيان، وحادة متوهجة مستفحلة مرات بعد مرات.

وان في انبثاق مجلسكم هذا واشراق طلعته والتئام شمله لما يشيع في النفس ويذكي أرج المسرة البالغة. ويثير أسرابا كثيفة من الاعتداد بكم والاعتزاز.

لقد لبيتم، حضرات السادة، الدعوة إلى الانتساب والانتماء إلى هذا المجلس، وأنتم عالمون أن ما ينتاط بكم من أموره، يفرض عليكم باستمرار، واجب النصح والإرشاد، ويهيب بكم أن تبذلوا عند الحاجة والاقتضاء، المؤازرة الصريحة والتعزيز الذي تبلغ به المقاصد وتدرك المطامح، وان استجابتكم الكريمة، وقبولكم السمح، لأداء هذا الواجب، على ما يتنازعكم من صنوف الاهتمام، ويتجاذ بكم من مختلف الشؤون والأعمال، لجديران بكل ثناء وتنويه، وخليقان بأن تقدم لكم من جرائهما التهنئة الصادقة الحارة، والشكر الوافر الجزيل، فما أكثر ابتهاجي بأن تنطوي هذه الكلمة على ما يستحقه إقبالكم وارتياحكم من تحية وارفة أقرنها بسابغ التقدير، وما أعظم ما يغمرني من اغتباط شديد في هذه اللحظة التي أعدها زهرة غضة ناضرة من أزهار الثقافة، بتقديم أجمل التهاني لكم، والاعراب عن أخلص ءايات الشكر، لما تفضلتم به من رضى المشاركة وصالح الإسهام.

حضرات السادة

لا أضيف إلى علمكم شيئا طريفا إذا نبأتكم بأن هذه البلاد، تلقت رسالة الإسلام، ولما يمض على وفاة الرسول الأعظم، صلوات الله عليه

وسلامه، إلا أعوام معدودة، ودانت من فورها بتعاليمه وقيمه، وصارت بعد انتشاره فيها واستمساك أهلها بعروته الوثقى، قاعدة راسخة ثابتة من قواعد إشعاعه، ورحبة متألقة من رحاب حضارته، وسرعان ما أصبحت هذه البلاد بما خالطها من روح إسلامية متأججة، وبما استقر واستتب فيها من نظام، وبما تمادى فيها من خصائص ومميزات، كيانا اتضحت ملامحه، واستبانت معالم شخصيته، ثم طفقت هذه الشخصية تكتمل وتتوكد على تجرم الأحقاب والعصور، حتى علقت بالأذهان والأفكار صورتها البارزة التي لا تلتبس بغيرها من الصور والأشكال.

وكان لزاما أن تتفتق في هذه البلاد ثقافة قوامها الأصول المتأصلة وجميع ما انضم إليها وائتلف معها من خصائص الواقع المنتظم للإحساس والتفكير، والأذواق والعادات، والآداب والميول، وأساليب التناول والتصرف، والأخذ والرد، وكان إلى هذا، لزاما أن تلتقي هذه الثقافة في الأزمنة المتعاقبة، بثقافات مغايرة كثيرة، وأن ينشأ عن هذا الاتصال الذي أرادته ظروف سياسية أو اقتصادية، أخذ وعطاء اختلف حجماهما باختلاف الأحوال والملابسات.

وبقيت بلادنا منذ العصور الغابرة متفتحة بعض التفتح تبذل بسخاء تارة وتتناول بحذر تارة أخرى إلى أن أظلتنا العهود المتأخرة فكان الاتصال الذي دفعنا إليه دفعا، وأكرهنا عليه إكراها، وكان منا ذلك الإقبال على الثقافات الدخيلة الذي كاد أن يعصف بدعائم الشخصية المغربية.

ويقوض أركان الثقافة الوطنية. ولولا أن تداركتنا صحوة استفزت فينا الشعور بالذات، وءادنتنا بالخطر المحقق. وحادت بنا عن مسالك الضلال والانحراف. لتقطع ما بيننا وبين أصالتنا من أسباب، ولعفا، ونحن سادرون، ما كان لنا من شخصية تضافرت على صنعها أطوار تاريخنا والقيم العريقة لحضارتنا.

وها نحن أولاء وقد استنارت لنا الطريق وركبنا متن السبيل اللاحب، نحرص أشد ما يكون الحرص على أن تظل ثقافتنا معتمدة على رسالة الإسلام ولغة القرآن وجميع ما يضفي على المغرب خصائص الذاتية المستقلة. ومعبرة عن الشخصية التي لا نبتغي بها بديلا. ومرحبة بكل ما من شأنه أن يزيدها اتساعا إلى اتساع، وثراء إلى ثراء، شريطة ألا يلحقها من الامتياح والاستمداد، اختلال أو فساد.

وان وزارة الثقافة التي تعنى بالفئات الكثيرة الممارسة للأعمال المؤثرة في التطور الحضاري، وتتعامل مع المفكرين والأدباء والكتاب والمؤلفين والفنانين. وجميع من لهم إسهام ملحوظ في إبداع الجمال المتعدد الأصناف والأنماط. ودور ظاهر في ابتكار أفانين التزيين والتبهيج وتلوين الحياة بالألوان التي تجعلها محببة ممشوقة - ان هذه الوزارة لا تمارس عملا من أعمال التأليف أو الإبداع ولا تدل على سبيل ولا تصرف إلى قصد ولا تضطلع بوصاية ولا تباشر أي ضغط وإنما تحصر مداخلتها في إبراز المعالم الحضارية وتهذيب الذوق، وارهاف الشعور

بالجمال، وتوسيع ءافاق المعرفة، وتشجيع التأليف والإبداع، وبذل الوسائل للتفكير والنقد، ومد الأسباب لتألق المواهب والملكات.

وليس هنا حدود تعاكس الحرية المتروكة للمثقفين الذين يخوضون ثبج الحياة الثقافية بأعمال تنتمي إلى التصنيف والإبداع، إلا تلك الحدود المتمثلة فيما تنكره القيم الدينية والحضارية الأساسية، ويستهجنه الضمير الحي السليم، وتأباه الأخلاق والآداب المرعية، وتسترذله القوانين المسنونة.

فهذا الاعتناء وهذا التعامل وهذا الحفز والحث وهذه الرعاية كل هذ الضروب من المعالجة ان هي إلا المحاور التي تنطلق طولها وزارة الثقافة، ولا أرتاب لحظة واحدة في أنكم ستمدونها فيما هو معهود إليها بعاملي المشاركة والمساندة، وهما عاملان كفيلان بأن يتيسر للبلاد بلوغ أهدافها الثقافية جميعها في كنف الاشراف والتسديد الساميين اللذين يواليهما المثقف الأكبر صاحب الجلالة الحسن الثاني أطال الله بقاءه للثقافة وشؤونها.

والله الموفق للصواب

والسلام عليكم ورحمة الله

محمد اباحنيني

الاجتماع الأول لأعضاء اللجنة الوطنية للثقافة

رأس السيد الحاج محمد أبا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية في يوم الثلاثاء 27 شعبان 1401 (30 يونيه 1981) الاجتماع الأول لأعضاء اللجنة الوطنية للثقافة التي احدثت بموجب مرسوم رقم 2.74.549 المؤرخ بـ 22 جمادى الثانية 1395 (3 يوليوز 1975) الصادر بالجريدة الرسمية عدد 3272 بتاريخ 6 رجب 1395 (16 يوليوز 1975) ص 1890. 1891.

تتلخص أهدافها فيما يلي :

- النهوض بالثقافة والإبداع الفني بجميع أشكاله.
- القيام في نطاق العمل على بلوغ الأهداف السابقة. باقتراح المشاريع التي تقتضي استعمال مفاهيم ومناهج جديدة كفيلة بالتشجيع على البحث في ميدان التنمية الثقافية.
- ايلاء الموهبة الثقافية الوطنية وأساليب التعبير التي تضمن أصالتها والحفاظ على هويتها عناية ممتازة. مع توسيع نطاق التعاون الثقافي الدولي.
- دراسة وتنسيق جميع الوسائل الكفيلة بالنهوض بالأبحاث الأثرية وحماية التراث المتمثل في المباني الوطنية وإبراز قيمته.
- اقتراح كل تدبير يرمي إلى تحقيق المهام المنوطة باللجنة الوطنية للثقافة ولا سيما التدابير التشريعية والتنظيمية.

وقد تكونت اللجنة الوطنية للثقافة من ممثلي بعض الوزارات التي لها اهتمامات ثقافية إلى جانب شخصيات أخرى ذات الاتجاهات الفكرية والفنية المعروفة يرأسها معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية.

وهذه قائمة بأسماء السادة أعضاء اللجنة .

الرئيـــس :

- معالي الأستاذ الحاج محمد أبا حنيني : وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

الأعضــاء :

عمداء كليات جامعة القرويين :

- فضيلة العلامة السيد الرحالي الفاروقي : عميد كلية اللغة العربية بمراكش
- فضيلة العلامة السيد أحمد بنشقرون : عميد كلية الشريعة بفاس
- فضيلة العلامة السيد محمد حدو أمزيان : عميد كلية أصول الدين بتطوان

عمداء كليات جامعة محمد الخامس :

- حضرة الدكتور السيد عبد العزيز بنجلون : عميد كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط.
- حضرة الدكتور السيد إدريس خليل : عميد كلية العلوم بالرباط
- حضرة الدكتور السيد البشير الأزرق : عميد كلية الطب والصيدلة بالرباط
- حضرة الدكتور السيد محمد حجي : عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

مدير دار الحديث الحسنية :

- فضيلة الدكتور السيد محمد فاروق النبهان : مدير دار الحديث الحسنية

شخصيات ذات اهتمام بالشؤون الثقافية :

- حضرة الأستاذ السيد محمد العربي الخطابي : محافظ الخزانة الملكية
- حضرة الأستاذ السيد ابراهيم بوطالب : نائب مدينة فاس ورئيس لجنة الثقافة والاعلام بمجلس النواب
- حضرة الأستاذ السيد عبد الكريم غلاب : نائب مدينة الدار البيضاء في مجلس النواب
- حضرة الدكتور السيد عزيز الحبابي : أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
- حضرة الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله : مدير مركز تنسيق التعريب في العالم العربي
- حضرة الدكتور السيد عبد الهادي التازي : مكلف بمهمة بالديوان الملكي
- حضرة الدكتور السيد عباس الجراري : أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
- حضرة الدكتور السيد محمد زنيبر : أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- حضرة الأستاذ السيد عمر أمرير : أستاذ بثانوية ولادة بالدار البيضاء

مديرا معهد التعليم الإسلامي :

ـ حضرة الأستاذ السيد مبارك المتقي	ـ مدير التعليم الإسلامي بتارودانت
ـ حضرة الأستاذ السيد علال الصاوي	ـ مدير معهد التعليم الإسلامي بمكناس

ممثلو بعض الوزارات :

ـ السيد عبد الصادق ربيع	ـ مدير الدراسات التشريعية بالأمانة العامة للحكومة
ـ السيد عبد الحميد جبيلو	ـ رئيس قسم النقل والتجهيزات بوزارة التجهيز والإنعاش الوطني
ـ السيد عيسى ايكن	ـ رئيس قسم الشبيبة بوزارة الشبيبة والرياضة
ـ السيد محمد المليتي	ـ مهندس دولة بوزارة السكنى وإعداد التراب الوطني
ـ السيد محمد فرج	ـ متصرف بوزارة الشغل والتكوين المهني
ـ السيد العربي الصقلي	ـ رئيس قسم الصحافة والاعلام بوزارة الاعلام
ـ السيد محمد الحجوي الثعالبي	ـ مدير التعليم الأصيل بوزارة التربية الوطنية وتكوين الأطر
ـ السيد محمد البخاري	ـ مدير الوظيفة العمومية بوزارة الشؤون الإدارية
ـ السيد محمد لعمرتي	ـ متصرف مساعد في قسم العلاقات الإدارية بوزارة الداخلية
ـ السيد عبد الرؤوف حجي	ـ رئيس قسم الاشهار والعلاقات الدولية والتنشيط بوزارة الدولة المكلفة بالسياحة
ـ السيد عبد الرحمان بوشعراء	ـ مدير العلاقات الثقافية بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الخارجية والتعاون
ـ الدكتور عزيز هواري	ـ الكاتب العام لوزارة الشؤون الاجتماعية والصناعة التقليدية
ـ السيد أحمد اكس	ـ رئيس مصلحة إحياء التراث بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية :

ـ السيد عبد الرحمان الفاسي	ـ محافظ الخزانة العامة بالرباط
ـ السيد عزيز السغروشني	ـ مدير مسرح محمد الخامس
ـ السيد أحمد عواطف	ـ مدير المعهد الموسيقي بالرباط

الكاتب العام للجنة الوطنية للثقافة :

- السيد عثمان حيمي ، مفتش المصالح الجهوية والمؤسسات التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

وفي بداية الاجتماع ألقى معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأستاذ الكبير السيد الحاج محمد أبا حنيني الخطاب القيم المثبت في ص 398 إلى ص 403.

وبعد ذلك تفرعت اللجنة الوطنية إلى خمس لجان وتم انتخاب رؤسائها ،

1) لجنة التأليف والترجمة والنشر، وتتكون من السادة الأساتذة ،

د. محمد حجي ، رئيسا

أعضاؤها :

الحاج أحمد ابن شقرون

محمد حدو أمزيان

عبد الكريم غلاب

د. عبد الجراري

د. محمد عزيز الحبابي

د. عبد الهادي التازي

2) اللجنة الفنية، وتتكون من السادة الأساتذة ،

د. محمد زنيبر ، رئيسا.

أعضاؤها :

عمر أمرير

العربي الصقلي

عيسى إيكن

محمد عزيز السفروشني

3) لجنة التعليم والتثقيف، وتتكون من السادة الأساتذة ،

د. عبد العزيز ابن جلون ، رئيسا.

أعضاؤها :

ابراهيم بوطالب

محمد البوخاري

محمد لعمرتي

محمد فرج

أحمد اكنى

4) لجنة الآثار، وتتكون من السادة الأساتذة :

د. عبد الهادي التازي ، رئيسا.

أعضاؤها :

د. البشير الأزرق

د. محمد زنيبر

علال الصاوي

عبد المجيد جبيلو

محمد المليتي

عمر أمرير

5) لجنة التعريف بالثقافة المغربية، وتتكون من السادة الأساتذة :

د. عباس الجراري ، رئيسا.

د. محمد فاروق النبهان

د. محمد حجي

د. عبد الهادي التازي

د. محمد عزيز الحبابي

عبد الرحمن بوشمراء

محمد الحجوي الثعالبي

العربي الصقلي

عيسى يكن

هذا. وقد عين للجنة الوطنية للثقافة كاتب عام من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية هو السيد عثمان حيمي.

وستجتمع هذه اللجنة بمجموعها باستدعاء من رئيسها معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية مرة واحدة على الأقل في كل ثلاثة أشهر. أما اللجان الفرعية فتجتمع دوريا كلما دعت الظروف إلى ذلك.

وفي ختام هذه الجلسة رفع أعضاء اللجنة الثقافية بهذه المناسبة البرقية الآتية إلى مقام حضرة صاحب الجلالة المؤيد المنصور بالله ،

نص البرقية التي رفعها أعضاء اللجنة الوطنية للثقافة إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الحسن الثاني ايده الله بمناسبة انعقاد اجتماعها الأول

يشرف ويسعد أعضاء اللجنة الوطنية للثقافة بمناسبة انعقاد اجتماعهم الأول، أن يرفعوا إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني المؤيد المنصور بالله أسمى آيات الولاء والإكبار والتعلق بشخصه الكريم وبالعرش العلوي المجيد. معربين لجلالته عن يقينهم في ازدهار الثقافة ونموها في عهده.

وان أعضاء اللجنة الوطنية للثقافة إذ يشيدون وينوهون بالجهاد الذي يخوضه صاحب الجلالة موحد البلاد من أجل تحقيق مطامح المغرب ورقيه وتقدمه. يغتنمون هذه المناسبة للإعراب عن تعظيمهم لعمله المستمر ودأبه الموصول للمحافظة على الشخصية المغربية والذاتية الوطنية الأصيلة.

وانهم ليتوجهون بالدعاء الضارع إلى الله أن يطيل بقاء ملك البلاد ويحفظه قائدا لها ورائدا. ومحققا لجميع أماني شعبه في الـوُدد والعز والكرامة. كما يضرعون إليه أن يقر عينه الكريمة بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد واخوته الغر الميامين أصحاب السمو الملكي الأمراء والأميرات.

شكر وتقدير

كان لصدور العدد التاسع عشر من مجلة «المناهل» الخاص بالقاضي عياض، صدى استحسان من لدن هيآت علمية وثقافية، وشخصيات فكرية مرموقة من المغرب وخارجه. وقد وردت على معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأديب الكبير الأستاذ السيد الحاج محمد أبا حنيني مجموعة من رسائل التنويه بهذا العدد، وبالمجهودات التي تبذلها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في إصدار هذه المجلة تنشيطا للحركة الفكرية والعلمية بالمغرب، وتعريفا بأعلامه الكبار.

وننشر فيما يلي رسالتين في هذا الموضوع من جملة الرسائل المذكورة، احداهما للسيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية د. أحمد رمزي، والثانية لمدير دار الحديث الحسنية د. محمد فاروق النبهان.

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام تام بوجود مولانا الإمام دام عزه وعلاه،

وبعد، فقد أطلعت على العدد الذي أصدرتموه من مجلة «المناهل» احتفاء بالقاضي عياض، تلك الشخصية المغربية الفذة التي ساهمت في الحركة العلمية والأدبية بالمغرب، وتزعمت النضال المذهبي وتركت ما تركت من مؤلفات لاغنى عنها لمن يعنى بدراسة علوم الحديث والسيرة النبوية والفقه المالكي.

وقد امتاز هذا العدد بما تضمنه من موضوعات تكتسي طابع الجدة والابتكار. وتتناول حياة القاضي عياض وتتقصى آثاره العلمية والأدبية ما من شأنه أن يثير الاعجاب والتقدير ويبعث على الاعتزاز والافتخار. ويجعل الأوساط المهتمة بشؤون الفكر في بلادنا تتلقاه بإقبال منقطع النظير.

ولا يسعني ونحن نتأهب لندوة القاضي عياض إلا أن أبعث إليكم ببالغ الامتنان والشكر والاعجاب بهذا المجهود العلمي الموفق الذي سيضيف إلى تراثنا رصيدا قيما ومرجعا هاما يعود إليه الباحثون والدارسون في كل ما يتعلق بحياة القاضي عياض وجوانب شخصيته.

ومع موفور المودة والاحترام.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

امضاء : الدكتور أحمد رمزي

لبسم الله الرحمن الرحيم

سلام تام بوجود مولانا الإمام المؤيد بالله

وبعد، فقد توصلت بسرور كبير بالعدد التاسع عشر من مجلة المناهل التي تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، وهو العدد الخاص بالقاضي عياض. وقد أعجبت كل الاعجاب بالجهد العظيم المبذول في اعداده، من حيث عمق الأبحاث العلمية وأصالتها في التعريف بعلم عظيم من اعلام المغرب.

كما أشيد بروح الوفاء التي حملت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، بتوصية من معالي السيد الوزير الحاج محمد أبا حنيني، الغيور على تراث المغرب، للتعريف بالقاضي عياض، ولتخصيص عدد خاص من مجلة «المناهل» لا براز جوانب هامة من حياته...

وانني واثق أن «المناهل» بهذه الخطوات الجبارة والرائدة ستفرض نفسها كإحدى أهم المجلات العلمية الرائدة المتخصصة في العالم العربي..

وادعو الله تعالى أن يحفظكم ويرعاكم ويسدد خطواتكم..
وتفضلوا بقبول أصدق عواطف التقدير والاحترام

مدير دار الحديث الحسنية
الدكتور محمد فاروق النبهان

عدد خاص من المناهل

بالحركة الفكرية في سبتة وندوة حول تاريخ الأندلس وآثار المؤرخ الاندلسي أبي مروان ابن حيان

أصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية أعدادا خاصة من مجلة «المناهل» أفردت بعضها لدراسة العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس، وبعضها الأخر للتعريف بعالمين مغربيين جليلين هما أبو الحسن اليوسي والقاضي عياض.

وقد نالت هذه الأعداد الخاصة اهتمام المثقفين وظفرت بإقبالهم على ماضمته من دراسات وأبحاث قيمة جادة ونشرته من معرفة واسعة نافعة.

وحرصا من وزارة الدولة على إرضاء رغبة القراء في موالاة هذا العمل الثقافي، وعلى الإسهام في مد أسباب جديدة للمعرفة، فقد استقر رأيها بعد استشارة صفوة من الأساتذة المغاربة الكبار والعلماء المواطنين الجلة، على أن تصدر أعدادا متتابعة خاصة، يشتمل المقبل منها على دراسات وأبحاث تتجلى من خلالها معالم الحركة الفكرية التي ازدهرت بمدينة سبتة ويبرز في أثنائها الدور الثقافي الهام الذي اضطلعت به هذه المدينة المغربية السليبة.

وان وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية لعاكفة من الآن على اتخاذ الوسائل الكفيلة بصدور العدد الخاص، المقبل، وتحقيق الهدف المطلوب من صدوره.

ومن جهة أخرى، وانطلاقا من القصد الثابت المستمر أن تتم فوق أرض المغرب تارة بعد أخرى، لقاءات بين العلماء المتخصصين في مجال الحضارة الإسلامية وانطلاقا إلى ذلك من جدوى تلاقي أعلام العرفان من مغاربة ومشارقة ومستشرقين وتبادل الآراء بينهم وتطارح النظريات حول المواضيع التي تمت بصلة ماسة إلى ثقافة الغرب الإسلامي، فقد اجتمع رأي وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية وءاراء الأساتذة العلماء الذين سلف ذكرهم على أن تنظم الوزارة في غضون الخريف المقبل لقاء يتدارس خلاله نخبة من علماء المغرب والمشرق وعلماء الاستشراق موضوع تاريخ الأندلس بصورة عامة وموضوع حياة وءاثار المؤرخ الأندلسي الفذ الكاتب الماهر والأديب الكبير أبي مروان ابن حيان بوجه خاص.

ووزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مصروفة الاهتمام إلى مباشرة الاتصالات بغية تأمين أوسع مشاركة وألمعها وتيسير أوفر حظ لهذا الملتقى العلمي من العائدة الحسنة والنجاح.

الأستاذ عبد الكبير الفاسي
في ذمة الله

بعد أن علمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، نبأ وفاة المرحوم الأستاذ عبد الكبير الفاسي، أصدرت هذا البلاغ .

تنعى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية إلى الأدباء والمفكرين والكتاب المغاربة السيد عبد الكبير بن عبد الحفيظ الفاسي الفهري الذي وفاه الأجل المحتوم بمدينة مراكش.

وقد كان الفقيد من الرعيل الأول من المثقفين والكتاب الذين أسهموا في الحركة الثقافية بالمغرب إسهاما تجلى في ماكتبه من قصص ومقالات وأبحاث ودراسات مطبوعة بطابع المعرفة الكبيرة، والتفكير العميق.

وبالأضافة إلى هذا، فقد كان رحمه الله من الوطنيين الملتزمين بالإخلاص للعرش العلوي المجيد، ولقضايا استقلال الوطن ووحدته.

تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جنته، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

جمع وطبع تراث الفقيد
الأستاذ عبد الكبير الفاسي

منذ أيام قليلة التحق بالرفيق الأعلى أديب من أدباء المغرب الكبار ومثقف واسع المعرفة ومفكر متوقد الذهن، نافذ البصر، صائب الرأي ومناضل تجرع مرارة الاستعمار. ذلك الأديب المثقف المفكر والمكافح الذي أخلص وأحسن البلاء هو المرحوم عبد الكبير الفاسي الفهري الذي وافاه الأجل المحتوم بعد عمر حافل بأنفس وأفضل ما تمتلىء به الأعمار، فلم يكن الفقيد أديبا عالما ومفكرا فحسب وإنما كان من المثقفين الذين يلتهمون كل قديم وجديد من عصارة القلوب والعقول ويظهرون القراء بقلم حاضر لايسأم ولا يكل، وتبيين لايستغلق ولا يستبهم، على ما يلابسهم من احساسات ويتوافر عندهم من ءاراء.

ولقد انطوى العدد الكثير من الصحف والمجلات على ما تناوله الفقيد من شؤون مختلفة وطرقه من أبواب متعددة، ولا مراء في أن ماصرف إليه العناية من مواضيع وكد فيه الذهن من أفكار ووقف عليه القلم من قضايا، كل هذا جدير بأن يصان من الضياع ويحمى من التفرق والشتات ويبرز للمثقفين ذخيرة مجموعة بين دفتين خليقة بأن يفيد منها الباحثون والدارسون.

وقد استقر عزم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية على أن تجمع ما تفرق من هذه الذخيرة وتسلك ما انتشر منها في نظام.

وحرصا من هذه الوزارة على أن يتسم عملها هذا بسمة الإحاطة فإنها تهيب بجميع الذين واتاهم الحظ فتيسرت لهم المراجع والمظان أن يعينوها فيما عقدته من نية واتجهت إليه من قصد ويدلوها على ما خلف الفقيد رحمه الله من جم الآثار وقيمها.

نتيجة جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1981

اجتمعت اللجنة ـ المعينة لفحص المخطوطات والوثائق المرشحة لنيل «جائزة الحسن الثاني» لهذه السنة ـ برئاسة السيد الحاج محمد أبا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية فلاحظت بابتهاج استجابة المواطنين وإقبالهم على عرض ما بأيديهم من مخطوطات ووثائق. وبعد فحصها ودراستها وتقويمها قدمت لمعاليه نتائج أعماله بمنح الجوائز المقررة في إطار الجائزة المذكورة.

وقد أسفر الفحص المشار إليه أعلاه، عن النتائج الآتية :

ـ منح الجائزة الأولى وقدرها خمسة آلاف درهم (5.000) للسيد صالح الضيافي اعتبارا لمخطوط «رسائل أبي المطرف، ابن عميرة. الجزء الأول».

ـ منح الجائزة الثانية وقدرها أربعة آلاف درهم (4.000) للسيد التهامي الراجي اعتبارا لمجموعة من المخطوطات في القراءات القرآنية. منها شرح مورد الظمآن لمسعود بن محمد جموع. مصحف مرمز.

الفجر الساطع في شرح الدرر اللوامع لعبد الرحمن ابن القاضي.

بعض تآليف محمد بن عبد السلام الفاسي

- منح الجائزة الثالثة وقدرها ثلاثة آلاف درهم (3.000) للسيد عبد القادر الرزيني. اعتبارا لمجموعة من الوثائق المتعلقة بتاريخ المغرب.

ومن جهة أخرى. فقد تقرر منح جوائز تشجيعية على النحو الآتي :

أولا : لعشر مجموعات ومبلغ كل تشجيع لكل واحدة منها ألف ومائتا درهم (200 1).

ثانيا : لخمس مجموعات ومبلغ كل تشجيع لكل واحدة منها ثمان مائة درهم (800).

ثالثا : لأربع وعشرين مجموعة ومبلغ كل تشجيع لكل واحدة منها خمسمائة درهم (500).

معرض الوثائق والمخطوطات التي رشحت هذه السنة لجائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق

في إطار جائزة صاحب الجلالة الحسن الثاني أيده الله للمخطوطات والوثائق التي رشحت في هذه السنة للجائزة المذكورة ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية معرضا لهذه المخطوطات والوثائق.

وقد قام السيد الحاج محمد أبا حنيني وزير الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بتدشين هذا المعرض بالوزارة، في الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الجمعة 12 جمادى الثانية 01 14 (17 أبريل 1981).

مشاركة المغرب في اللجنة الدائمة للآثار والمتاحف المنعقدة بنواكشوط

شارك المغرب في اجتماع اللجنة الدائمة للآثار والمتاحف في دورتها العادية الخامسة المنعقدة بمدينة نواكشوط من 22 إلى 24 فبراير 1981 وقد حضر في هذا اللقاء مندوبون عن عدة دول عربية هي : فلسطين، والجمهورية السورية، والجمهورية العراقية، والكويت، والإمارات العربية المتحدة، ودولة البحرين، وقطر، والجمهورية العربية اليمنية، والجمهورية التونسية، والجمهورية الإسلامية الموريتانية، إلى جانب خبيرين في النقوش اليمنية وكذا وفد المنظمة برئاسة الدكتور صالح خرفي، مدير إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وحضره من الجانب المغربي السيد عبد العزيز توري من مصلحة الآثار التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية.

من المواضيع الأساسية التي تطرق لها المجتمعون، صيانة المدن العربية الإسلامية، ثم موضوع إيفاد وتبادل الخبراء، وانكبت اللجنة على دراسة مشروع قانون «اللجنة الدائمة للتراث» لما له من أهمية، ثم تطرقت إلى مسألة إحداث متحف للحضارة العربية حيث كانت الجمهورية السورية قد عبرت عن استعدادها لاحتضانه، ومن بين ما اقترح في هذه الدورة إصدار نشرة إخبارية شاملة تتولى جمع وتلخيص كل ما تم من أعمال علمية وميدانية في مختلف الدول العربية ليتمكن المهتمون بحقل الآثار من الاطلاع والتعرف على ماتم إنجازه في هذه البلدان كل سنة.

وفي الختام تقرر تنظيم الدورة السادسة للجنة الدائمة للآثار والمتاحف بدولة البحرين في فبراير (1983 وتمديد مدة الاجتماع إلى 5 أيام.

محاضرة الدكتور المهدي بن عبود

بمدينة دوسلدورف بألمانيا الاتحادية

تلبية لرغبة الجمعية الألمانية المغربية وفي نطاق توطيد روابط الصداقة بين المملكة المغربية وجمهورية ألمانيا الاتحادية وتمتين العلاقات الثقافية والإنسانية بين الشعبين المغربي والألماني، أوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الأستاذ الدكتور المهدي بن عبود إلى ألمانيا الاتحادية لإلقاء محاضرة بمدينة دوسلدورف في موضوع «الإسلام والأزمات الدولية». وقد حظيت هذه المحاضرة التي ألقيت بتاريخ 9 من شهر أبريل الماضي بالنادي الصناعي إقبالا كبيرا من رجال الفكر والاعلام بهذا البلد الصديق.

مشاركة المغرب

في مؤتمر بيربنيون بفرنسا

انعقد ببيربنيون (فرنسا) من 14 إلى 18 أبريل 1981 المؤتمر 106 لجمعيات العلماء الذي ضم مئات المشاركين الوافدين من 16 بلدا. من بين أنشطة هذا المؤتمر ندوة نظمتها شعبة الأعمال التاريخية لجامعة السربون بباريس حول تاريخ وآثار إفريقيا الشمالية.

وقد مثلث وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية السيدة جودية حصار ابن سليمان، رئيسة مصلحة الآثار، حيث أجرت عدة اتصالات حول المواضيع التاريخية. كما قام السيد جون بوب بعرض حول نتائج التنقيبات التي قامت بها الوزارة لموقع سلا كولونيا.

هذا وقد نوقشت في هذه الندوة كل قضايا العمارة القديمة والتاريخ السياسي الاقتصادي والاجتماعي لإفريقيا الشمالية في العصور القديمة من لدن أشهر المتخصصين في العالم.

والجدير بالذكر أن موضوع الآثار الإسلامية كان جديدا بالنسبة لهذا اللقاء بفرنسا وقد قدم مسؤولو دول شمال إفريقيا الثلاث عروضا عامة حول تنظيم وبرامج والمناهج المتبعة في الابحاث المعمارية الإسلامية ببلدانهم. واتضح أن المغرب بالرغم من افتقاره. إلى العدد الكافي من الأطر المتخصصة في هذا الميدان فإنه كان في مستوى اللقاء. نظرا لما يتوافر لدى المصلحة المكلفة بالآثار من تنظيم منهجي في أبحاثها وللضبط الدقيق لكل موقع تتم دراسته ضمن بحث جهوي شامل. وإلى الأهمية التي توليها في أبحاثها إلى التفكير والممارسة في مايتعلق بمنهاج البحث والدراسة العلمية للصناعة الإسلامية للخزف في العصور الوسطى. بالإضافة إلى الدور الذي قامت به الطبوعات الصادرة عنها في التعريف بمجهودات بلدنا في هذا الميدان.

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية توفد فرقة تكادة للفنون الشعبية للمشاركة في الأعياد الوطنية لجزيرة مالطة

توطيدا لأواصر الصداقة والمودة العريقة التي تجمع بين الشعبين الصديقين المغربي والمالطي ومشاركة من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في احتفالات الشعب المالطي بأعياده الوطنية في إطار المهرجان الثقافي والفني الذي نظم تخليدا لهذه المناسبة. أوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مجموعة تكادة للفنون الشعبية لإحياء حفلات موسيقية أيام 8 و 9 و 10 مايو 1981 بمدينة لا فاليط.

وقد لقيت هذه الحفلات إقبالا كبيرا من طرف الجمهور المالطي ونالت الفرقة المذكورة الجائزة الأولى من بين عشرين مجموعة فنية تمثل دول البحر الأبيض المتوسط وهي عبارة عن ميدالية تخلد هذه الاحتفالات كما عزفت فرقة الحرس المالطي النشيد الوطني المغربي. واستدعت وزارة الثقافة المالطية فرقة تكادة لقضاء ثلاثة أيام في ضيافتها.

الأسبوع الثقافي
لبلدان المغرب العربي
بستراسبورغ

نظمت الجمعية الفرنسية المعروفة باسم «المركز الاجتماعي والثقافي بكرونامبورغ» بتعاون مع قنصليات المملكة المغربية والجزائر وتونس من 11 إلى 16 ماي بمدينة ستراسبورغ أسبوعا ثقافيا قصد التعريف بالحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لدول المغرب العربي.

ونظرا للأهمية التي تكتسيها مدينة ستراسبورغ كمقرللمجلس الأوربي والدور الذي تلعبه الجمعية الفرنسية السالفة الذكر في ميدان التربية حيث يتردد عليها عدد كبير من أفراد مختلف جاليات المغرب العربي ارتأت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية المشاركة في هذه التظاهرة بمعارض مختلفة قام بإعدادها السيد إدريس الدخيسي رئيس قسم إحصاء الممتلكات الثقافية

واشتملت هذه المعارض على صور لبعض المباني التاريخية وقصبات الجنوب معززة بكتب ومجلات مكنت من إعطاء نظرة واضحة على ما تزخر به بلادنا من معالم تاريخية وحضارية عريقة وأصيلة. كما قام السيد الدخيسي بإلقاء عرض مدعم بصور ثابتة تناول خلاله موضوع فن الهندسة المعمارية المغربية عبر العصور أعطى خلاله نظرة تاريخية وفنية لعدد كبير من المباني التاريخية منذ العصر المرابطي إلى العصر العلوي.

وقد أسفر هذا الملتقى على نتائج جد مرضية حيث عرفت جميع هذه الأنشطة نجاحا منقطع النظير وإقبالا فائقا.

المهرجان الحادي عشر للموسيقى المعاصرة بزغرب

في إطار العلاقات الثقافية بين المغرب ويوغوسلافيا تلقت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية دعوة للمشاركة في المهرجان الحادى عشر للموسيقى المعاصرة الذي نظم بمدينة زغرب مابين 9 و 16 ماي 1981.

وقد أوفدت الوزارة إلى هذا المهرجان الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل المندوب الجهوي ومدير المدرسة الوطنية للموسيقى بمكناس.

هذا وقد تتبع الممثل المغربي سائر العروض الموسيقية التي قدمتها الفرق الوافدة من يوغسلافيا وكندا والولايات المتحدة وأنجلترا وفرنسا وهولاندا وألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية وإيطاليا واليابان. كما شارك في حلقات المناقشة التي كانت تعقد صباح كل يوم لتقييم العروض. والتي كان يحضرها في أغلب الحالات المؤلفون الموسيقيون وقادة الاركسترات. مما أضفى على هذا اللقاء الموسيقي طابع الموضوعية.

ومن الجدير بالذكر أن المغرب كان البلد العربي الوحيد الذي حضر في المهرجان.

اجتماع المجلس العلمي للمعجم الايقوني للميثولوجيا الكلاسيكية بأثينا من 30 ماي إلى 2 يوليوز 1981

انعقد هذه السنة من 30 مايو إلى 2 يونيو في مدينة اثينا بدعوة من الجمعية الاثرية اليونانية، الاجتماع الخامس للمجلس العلمي للمعجم الايقوني للميثيولوجيا الكلاسيكية.

حضر هذه الدورة علماء من 40 دولة من بينهم اثريون عرب مثل المغرب كعضو في المجلس العلمي الأستاذة نعمة الله الخطيب بوجيبار، النائبة للشؤون الثقافية بالدار البيضاء.

وخلال الجلسات أطلع الحاضرون على التجارب المطبعية للجزء الأول للمعجم الذي سيصدر في شهر أكتوبر المقبل ويتكون من مجلدين ، المجلد الأول يضم 800 صفحة، والثاني 700 لوحة مصورة، يعرف بالالهة التي يبدأ اسمها من الف إلى الف فاء حسب الأبجدية اليونانية، وتدارس الأعضاء المقالات التي ستنشر في الجزء الثاني المقرر إصداره في أوائل 1982، كما تحدثوا عن كيفية تدوين العدد الضخم من الصور والمعلومات التي تبعث من جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط إلى المكتب الدائم للمعجم بمدينة بال ـ والمغرب الذي سبق له ان بعث جميع المعلومات المتوفرة لديه في ميدان الميثيولوجيا استفاد بدوره من المنظمة في سنة 1979، ببعث 3 أثاريين لتتبع التدريب المنظم في تونس ـ من طرف الكتابة العامة للمعجم بمساعدة منظمة اليونيسكو والمعهد الوطني التونسي للفنون والآثار ـ المتعلق بكيفية دراسة واحصاء وتدوين المعلومات الايقونية حسب الطرق الحديثة المستعملة للمعجم.

مشاركة المغرب في
اجتماع الجمعية العامة للمركز الدولي للدراسات حول المحافظة وإحياء الممتلكات الثقافية بروما

بدعوة من المركز الدولي للدراسات حول المحافظة وإحياء الممتلكات الثقافية. انعقد بروما اجتماع الجمعية العامة للمركز المذكور من 8 إلى 14 ماي 1981.

وشاركت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في هذا الاجتماع بوفد يتكون من السادة ، ادريس آيت صالح رئيس مصلحة المباني التاريخية والمواقع مندوبا. وعبد الملك الفزازي رئيس مصلحة المتاحف ملاحظا.

وقد تم ترشيح المملكة المغربية كعضو دائم في المجلس الأعلى للمركز لمدة سنتين.

جائزة المغرب
لسنة 1981

ان جائزة المغرب لسنة 1981 ستمنح في نهاية هذه السنة الحالية.

وبناء على هذا، فإن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية تنهي إلى علم الراغبين في المشاركة أن يوجهوا الكتب التي يودون ترشيحها لهذه المسابقة قبل يوم الخميس 15 أكتوبر 1981.

وعلى من يريد الاطلاع على الشروط المطلوبة قانونا أن يعود إلى القرار الوزاري الصادر في الجريدة الرسمية عدد 3230 رقم 15474 بتاريخ 17 شعبان 1394 الموافق 5 سبتمبر 1974، أو أن يتصل بمصلحة المكتبات والنشر والتوزيع التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية.

زيارة وفد من المهندسين المغاربة المتخصصين في الآثار إلى المملكة العربية السعودية

قام وفد من المهندسين المغاربة المعماريين المتخصصين في الآثار وصيانة المباني التاريخية - المتكون من السيد ادريس أيت صالح رئيس مصلحة المباني التاريخية والمواقع والسيدين الحسين القادري مفتش المباني التاريخية بفاس ونجيب العرائشي مندوب وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني بفاس - بزيارة للمملكة العربية السعودية ما بين 15 و 30 ماي 1981 حيث أجرى عدة اتصالات مع المسؤولين السعوديين لدراسة إمكانية تطوير العلاقات القائمة بين البلدين في ميدان الثقافة عامة وميدان ترميم المباني التاريخة والمواقع بصفة خاصة.

كما قام الوفد بزيارة المآثر التاريخية بعدة مدن رئيسية بالمملكة السعودية.

زيارة مدير مسرح محمد الخامس إلى المملكة البلجيكية

في إطار الاتفاقية المبرمة بين المملكة المغربية والمملكة البلجيكية التي تنص على تبادل زيارة الخبراء في ميادين الفنون المسرحية خلال موسم 1981، قام مدير مسرح محمد الخامس برحلة إلى بركسيل استغرقت عشرة أيام ابتداء من 14 ماي

1981. زار خلالها عدة موسسات ثقافية وأجرى عدة محادثات مع مسيريها وأساتذتها، أتاحت له الوقوف على ما وصل إليه المسرح البلجيكي من تقدم نتيجة للأساليب والتقنيات المتبعة في التعليم المسرحي، وقد عبر المسؤولون عن استعدادهم لاستقبال طلبة مغاربة أو إيفاد اساتذة وفرق ومجموعات إلى بلادنا للمشاركة في تكوين الممثلين أو في برامج المسرح الوطني.

اعتذار

ورد على مجلة «المناهل» من الأستاذ السيد عبد الكريم التواتي تصحيح خطأين وقعا سهوا في آيتين كريمتين.

الخطأ الأول، جاء في الآية الثالثة من سورة الأنبياء هكذا، «وأسروا النجوى الذين أمنوا» وصوابها «وأسروا النجوى الذين ظلموا» ص 283 س 5 وذلك في موضوع «منهج البحث الأدبي عند القاضي عياض» للدكتورة ابتسام مرهون الصفار الصادر في العدد 19 من مجلة «المناهل».

والخطأ الثاني، ورد في الآية الثالثة من سورة القلم هكذا، «ما انت بنعمة ربك بمجنون وان لاجرا غير ممنون» وصوابها «ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لــك لاجرا غير ممنون» ص 322 س 10 وذلك في بحث «عياض النقاد البلاغي» للأستاذ محمد ابن تاويت الصادر في العدد المذكور أعلاه.

«والمناهل» إذ تشكر الأستاذ التواتي شكرا جزيلا لتنبيه تعتذر عن صدور هذين الخطأين.

«المناهل»

المناهل

تصـدرهـا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـة

زنقة غاندي ـ الرباط ـ المغـرب

التلفون : 91-318 / 92 / 93

AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél : 318 91 92 93

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)

مطبعة فضالة ـ المحمدية